المكتبة الأهلية بشارع عبد العزيز

البؤساء

MISERABLES

تأليف

فكتور هيجو

شاعر فرنسا العظيم

تعريبه

صاحب مجلة الراوى

— الطبعة الاولى

مكتبة الاهلية بمصر

مصر) ١٩٢١ م

الجزء الثانى

... ى هـذه الحوادث التى بسطناها في الـكتاب الاول
ثمانية أعوام كان جان فالجان في خلالها يتعظ براهبات الدير فيشقى
لشقائهن وهو يحسب انه ينعم بهذا الشقاء وغوسيت تتعلم وتمى
تنمو بين أترابها نمو الزهرة في حديقة غناء

ففى احدى الليالى كان يوجد في شارع الهيكل غلام لا يتجاوز
عمره اثنى عشر عاما

وهو من غلمـان باريس المتشردين المشهورين في كل عهد
بزلاقة اللسان وذكاء الفواد وقد لبس بنطلون ر ... لم يأخذه
من أبيه وقميص امرأة لم يتصل اليه من أمه بل ...
أحد أهل الخير ...

ولقد كان له أب وأم ولـ...
تـكن تحبه فـكان يدعو الى الا...
بيتيم

وكان ابواه قد طرداه ومع...
الشوارع اذ كان يجد بلاطها الين من ...

ولم يكن له مكان يأوى اليه ...
يتدفأ عليها ومع ذلك فقـد كان يضـ...
ويسرق وينهب وهو على ... ه ...
غلمان باريس لانه كان

على انه كانت تخطر له أمه مرة أو مرتين

لزيارتها في شارع الغراب حيث كانت تقيم مع زوج...

غرفة استأجرتها في المنزل نمرة ٥٢ وهو نفس المنزل الذى أقام

فيه جان فالجان حين جاء بكوسيت من فندق تناردييه

وكانت عائلة هذا الغلام مؤلفة من أبويه وأختيه الصبيتين

وكان الاب قد دعا نفسه جوندريت حين استأجر هذه الغرفة

ولكنه قال للعجوز صاحبة المنزل انه اذا جاءك أحد فسألك

عن بولونى أو ايطالى أو اسبانى ارشديه الي فانا هو المعني

... العائلة فى أشد حالات الفقر وبجانب الغرفة التى

فيها فتى فقير أيضاً ولكنهم

هذا الفتى لشدة علاقته بهذه

بانه يبلغ نحو الخامسة والثمانين

...ى متين العضل لم يفقدنا من

...ف بصره

عشرين الف فرنك يعيش به عيشا

الخمسين من العمر بقيت عازبة فقد

مرة ... امرأتيه بعد أن ولدتا

هو الآن فى سلك

ـه وبقيت بنته الثانية تدير منزل أبيه

. في منزله غير خادمة وخادم كانا يلقيان منه أشد

العناء لحدة طباعه ولسرعة غضبه ولـكن كرمه كان خير شفيع له

فيما يلقيان

واتفق يوماً أن خادمة له كانت برحت منزله منذ ستة أشهر

عادت اليه تحمل طفلا حديث الولادة ادعت أنه ولده فلم يغضب

لهذه النميمة بل أنه سرمنها وجعل ينظر إلى الطفل مبتسما راضياً

ويقول

وبعد فايدعو إلى العجب فان الدوق دى أنجلوم تزوج نشأة

فى الخامسة عشرة من عمرها وهو ابن خمس وثمانين ،

التى ولدت له بنت وهو فى ال

هذه الحكايات فليس ما يدعو

على انى أقول أن هذا العفو

العناية به إذ أي ذنب اقترفه هو

وفى العام التالى جاءته الخا

إلى امهما وتعهد أن ينقدها ثمانية

يزورها احيانا ليرى الغلامين

ولبث مع أخته وغلام صغير كان

يضطرب منه خوفاً وهذا الغلام كان مار

عند جده وتعلم حتى ـة عشر من عمر

ففى مساء يوم عاد إلى المنزل فوجد جده يد

فقال له

يجب يا بنى أن تسافر غداً إلى فرنون

قال لماذا

قال لترى أباك

فوقع هذا النبأ وقعاً شديداً عليه لانه لم يكن يعرف أباه وكان يكرهه لاعتقاده أنه تخلى عنه ولانه نشأ على كرهه فى منزل جده ورأى جده ما كان من اضطرابه فقال له لا بأس يا بني فانه هو يريد أن يراك فاسرع بالسفر فان الامر يقضى بالسرعة

السفر فسافر فى اليوم التالى فلما وصل وجد

ا برنه غير بضعة سطور كتبها

ونا فى معركة واترلو وعمى »

دبدة بهذا اللقب الذى اشتريته بدمي »

به

ها أنقذ حياتى جندى برتبة ملازم »

ه يدير فندقاً فى هذه الايام فى قرية »

ين ورجائى إلى ولدى إذا لقيه أن يكافئه عنى »

" يستطيع "

ـس هذه الورقة بل هذه الوصية فوضعها في جيبه

وحضر جنازة أبيه ثم عاد إلى باريس مشتغلا بدرس الحقوق عن

أبيه كأنه لم يكن فقد دفن بيوم ونسي بيومين ووضع ماريوس

شريطة سوداء على قبعته وهذا كل ما كان

***

كان من عادات ماريوس أن يذهب في صباح كل أحد إلى

الكنيسة وهي عادة تملكت فيه منذ الصغر

وقد ذهب يوما اليها وجلس في كرسي دون أن ينتبه الى اسم

كان مكتوبا عليها وهو اسم ملبوف

وفيما هو جالس وقد بدأت الصلاة جاءه

أرجوك أن تتخلى عن هذا الكر

فامتثل ماريوس مسرعا وبعد

وقال له انى اعتذر اليك كي لا يـ

فانى لا أستطيع الجلوس على غير هـ

لك وهو

ان هذا الكرسي كان يجلس عليه

الكنيسة فيجلس على هذا الكرسي لير

أن يراه بغير هذه الطريقة لاسباب عائلية

وكان يأتي الى هنا حين يعلم انهم يأتون بولده لحضور سمر سيرى

ولده ويبكي لانه كان يحبه حباً يبلغ حد العبادة

وقد كنت أري ذلك بعيني فأتأثر تأثراً عظيما حتى لم يعد يروق لى الجلوس الا فى هدا الموضع فانى عرفت هذا المنكود بعض المعرفة فقدكان له حم انذره بحرمان ولده من ارثه اذا كان أبوه يراه

وذلك لخلاف فى المنازع السياسية بين والد الغلام وبين جده ففرق الحد بينهما لهدا السبب ورضى الاب بهـذا الفراق بل رضى أن يضحى هذه التضحية العظمى لخير ولده كى لا يحرمه جده من ارثه فان الاب لم يكن من الاغنياء

ر اذ، أخطىء هـدا الجد تخطئة عظيمة فانى على احترامى

طيق اذ أرى الناس يبالغون فى التشيع لها الى هـذا

تخلقوا بأخلاق الوحوش

الاب من ضباط نابليون . وشهد معركة

ن يحرمه من ولده لان ذلك الحو يكره نابليون

لاب المسكين وهو يقيم فى فرنون

اذكان هـذا الاسم اسم ابيه وقال

ـ سيع ـمال أأنت هو ذلك الغلام الصغير الذى كنت

أراه فى الكنيسة .. نعم فان هيأتك لم تتغير كثيراً .. نعم فاعلم يا بني أن أباك كان يحبك كثيراً

فشكره ماريوس وانصرف عائداً الى المنزل فأخبر جده أن أصحابه دعوه للعيد ثلاثة أيام فى ضواحى باريس واستأذنه بالذهاب معهم فأذن له بما أراد

***

وقد غاب ماريوس عن المنزل ثلاثة أيام ثم عاد الى باريس فذهب توا الى مكتبة المدرسة التي كان يدرس فيها الحقوق فقر
تاريخ الجمهورية والامبراطورية ومذكرات سانت هيلانة وجميـ
مانشر فى ذلك العهد من الجرائد المذكرات والمد
وقد قرأ اسم أبيه فى تلك المذكرات فلقي
أبوه تحت أمرتهم وزار أصحابه الضباط وعا
أول من أخبره بأمر أبيه فوثق أتم
مثله له جده فى عهد حداثته
وأطهرهم قلباً وأمضاهم حساماً و
جده للملكية أوغر قلبه عليه فمثله
وكان ماريوس منعكفاً على در
حين عرف ما عرفه عن أبيه وعرف
انصرف الى درسها فبات شديد التعلق .
بنابليون العظيم وبات يكره الملكية أشد

جده على ما كان عليه أبوه من قبله

وكان قد ذهب عملا بوصية أبيه الى قرية مونتفرميل كي يرى تناردييه الذي انقذ أباه من الموت فلم يجد أثراً للفندق وقيل له أن تلك العيلة هجرت القرية بعد أن أصيب الفندق بالافلاس ولا يعلمون الى أين ذهبت فعاد الى باريس قانطا من ايجاده

وكان قد تغير تغيراً عظيما فلم يعد يلقى جده بذلك العطف القديم ولم يعد يعجب بما كان يسمعه منه عن حسنات الملكيه ولا يطرب لطعنه بالامبراطور ونعتـه بشارب الدماء وبالوحش ال· بل كان يتمعض لهذه الاقوال ويعترض جده أحيانا بعلء

جده لم يكن يرضى أن يسمع كلمة اعتراض على مايقول

ع بأميال حفيده

ا ان ماريوس عاد من فرنون وهي بلد أبيـه

فته وخلع ملابسه وذهب الى الحمام

ي غرفته فلم يجده بل وجـد سترته على

ه من جيبها فأخذها وهو يقول في نفسه

ف سر انقلاب هذا الغلام

أيضاً فوجد علبـة مقفلة فأخـذ العلبة

القاعة حيث كانت ابنته

وهناك قرأ الرسالة فوجدها وصية أبيه وفتح العلبة فوجد

فيها رقاع زيارة مكتوبا عليها « البارون ماريوس بونتمارسى »

وبعد أن قرأها دفعها الى ابنته فقرأتها ثم نادى الخادم وأمره أن يرجع الورقة والرقاع الى غرفة ماريوس وأقام مع بنتـه على أسوأ حال كلاهما مطرق وكلاهما حزين

وبعد هنيهة جاء ماريوس فقال له جده بلهجة الساخر

أهنئك بلقبك الجـديد فقد أصبحت بارون فكيف ذلك وما معناه فاحمر وجه ماريوس وأجابه قائلا

معناه اني ابن أبي

قال أما هو أبوك وما أنا بارون

قال بل ان أبي ذلك الرجـل الشريف والبطل الذي خـدم الجمهورية وفرنسا خدمات جلى أورثته ا يعد من أعاظم الرجال

بل هو ذلك الرجـل الذي عاش ر كرات المدفع ورصاص البنادق وية تحت الثلوج والامطار

بل هو ذلك البطل الذي فم راء ومات منسياً ولم يكن ذنبه الا أنه أ وهما وطنه وولده

وكان ذلك فوق مايستطيع لا أن يسم فانه حـين سمع لفظة الجمهوريه وقف وقد توهج من العصب

كل كلمة كان يقولها ماريوس كانت بمثابة صفعة على وجه جده
الشيخ وقد حاول أن يضبط نفسه ولكن الحدة ابتدرته فقال له
أيها الولد المعقوق الدميم انى لا أعلم ما كان عليه أبوك بل كل
ما أعلمه أنه لا يوجد بين هؤلاء الزمر غير الاشقياء واللصوص
والسفاكين نعم انهم كلهم على هذا النمط لا أستثنى منهم أحداً
أسمعت ياماريوس

وانك بارون ولكن هذه البارونيه التي نالها أبوك من ذلك
الوحش لا تعادل سدى هذا النمل الذى ألبسه
أن جميع الذين خدموا روبسبير لصوص وكل الذين خدموا
نخدعوا مليكهم الشرعي وخانوه وكلهم جبناء
ابز والالمانيين فى واترلو
لــه عن تلك العصابات فاذا كان أبوك منها

ة أبيه انتفض انتفاض العصفور بلله
ف ينتقم من جده لابيه فاذا أهان هذا

جده وكيف يصبر على اهانة أبيه فهناك
ضاء
رهو شبه سكران ثم نظر الى جده نظرة
ـــره وقال بصوت أجش

ليسقط البوربون وليسقط هذا الخنزير لويس الثامن عشر

وكان لويس الثامن عشر قد مات في ذلك العهد ولكنه أراد بجملته تحقير الملكية

وقد وقع هذا الكلام عليه وقوع الصاعقة فجعل يسير في تلك القاعة ذهابا وايابا وهو لايدري مايفعل

الى أن وقفت أمامه بنته فقال لها

ان بارونا ورجلا مثلي من العوام لايمكن أن يقيما في منزل واحد

ثم التفت الى ماريوس وقال له بصوت يتهدج من الغضب اذهب

فخرج ماريوس من فوره

وفي اليوم التالي قال الشيخ لبنته

انك ترسلين كل ستة أشهر ستين دينار

الى هذا الشارب الدماء ولا تذكري ا

أما ماريوس فانه سار وهو لايعلم

عشرين فرنكا وساعة ذهبية وثيابه

وقد ركب مركبة وسار الى أقفر ذ

فاستأجر غرفة في ذلك المنزل الذي كان ي

قبل فدفع نصف أجرتها عن شهر مما كان م

بالباقي

وفى اليوم التالى باع مايستطيع الاستغناء عنه من ثيابه فعاش به بالاقتصاد اسبوعا

وفى الاسبوع التالى باع ساعته وكانت خالته ارسلت له بايعاز من أبيها مبلغاً كبيراً من المال فابى قبوله على شدة احتياجه

ولما كاد ينفق ثمن الساعة بحث عن عمل يرتزق به فوجد عملا عند أحد المحامين المشهورين

ثم أتم دروسه وعين محامياً فى المحاكم فكتب الى جده كتابا رقيقاً أخبره فيه انه بات من زمرة المحامين فمزق جده الكتاب بعد قراءته وقال

' نكن من البلهاء لعلم ان محاميا وبارونا لايجتمعان

***

به من عمله لاتكاد تكفيه للعيش بالتقتير ومع

ث عن تنارديه لمكافأته عملا بوصية أبيه فلا

من العمر وقد ترك منزل جده منذ

يا فان ماريوس كان يعتقد أن جده قد

اعتقاده فان الاب قد لايحب ولده ولكنه

بيده

بعده عنه ولكن كبرياؤه منعته من ان يدعوه

. رم يكن يفتكر إلا به فى الليل والنهار

وأما ماريوس فلم يكن حاقداً عليه ولكنه لم يكن يطيق العيش مع من أهان أباه فأبى التزلف اليه بالرغم عن ضيقه

ثم أنه كان أنوفاً وقد قال فى نفسه

انى حين خرجت من منزلى كنت غلاماً لا أتجاور السابعة عشرة من العمر وتلميذ مدرسة فلم أبال بالضيق أأخاف الفقر اليوم وقد بلغت العشرين وصرت من المحامين

وعلى الجملة فقد عول على أن لا يعود إلى منزل جده ولو افضي الامر إلى حرمانه من ارثه

وكان يشتغل بجد ونشاط وكل ما سنحت له فرصة فراغ يذهب الى حدائق لكسمبورج فيتنزه فيها

وكان كل ما ذهب إلى هذه الحدائق وهو كل يوم يرى رجلا يتنزه هناك تصحبه صبية منذسنة وكان الرجل يبلغ نحو الستين من ال على الكآبة والتعب والقوة كأنه من أو اعتزلوا الخدمة طلباً للراحة

أما الفتاة فكانت تبلغ نحو الخامس جميلة العينين يدل ابتهاجها بكل ما تراه المدرسة أو من الدير

وقد لحظ ماريوس الرجل والفتاة يومين يتنبه اليهما أما هما فكانا يتحدثان فكان الرجل يتكلم قليلا ولكنه

كان ينظر اليها نظرات ملؤها الحمو الابدى

وكان ماريوس قد اتخذ عادة أن يتنزه فى رواق طويل من هده الحديقةوكان الرحل والفتاة يتمرهان فيه أيضاً فيسير من اوله الى آخره ثم يعود

وهو يفعل ذلك خمس مرات على الاقل فيرى الفتاة وآباها عشر مرات فى ذهابه وايابه كل يوم دون أن يحييهما

واتفق أن صدبقاً لماريوس رآهما مراراًولم يكن يعرف اسميهما فلقب الرجل بالمسيولبلان إشارة إلى شعره الابيض ولقب الفتاة ىء ا. بل لانوار اشارة الى شعرها الاسود فلزمهماهدا اللقب

ا به تسهيلا للاشارة اليهما في سياق الحديث

انيه انقطع ماريوس عن زيارة الكسمبرج محوستة

هب نواً الى ذلك الرواق ورأى لبلان وبنته

تعودا ان يجلسا عليـه فرأى أن الرجل

ة فقد بانت الآن جميلة الطلعة براقة

فى الملابس فلما مر بها ماريوس لم ير

نه رأى أهدابها الطويلة ترسم خيالها

يها ألطف ابتسام

بها ابنة ثانية لهدا الرحل ولـكنه عرف

ب عينها وان الفتاة أصبحت صبية فى مـدة

سد اشهر فتغيرب هدا التغيير وقد نظر اليها ونظرت اليه فرأى في

عينيها صفاء يدل على صفاء قلبها

وكانت نظرتها اليه دون اكتراث وهو كذلك لم يكترث لها

غلبث على ذلك بضعة أيام

الى أن التقت نظراتهما يوما فرأى انها لم تنظر اليه تلك النظرة البسيطة التي لامعنى لها بل شعر ان هوة سرية قد فتحت ثم قفلت فجأة فكأنها نظرت اليه بروحها

...وقد شغل قلبه من ذلك العهد فجعل يهتم بملابسه ويصلح شعره ولا يفتأ ينظر الى المرآة كل ماوجد الى ذلك سبيلا فلم يعد يذهب الى الحدائق المنزهة بل ليرى تلك الفتاة فكان كل مارآها تزيد في عينيه جمالا

وقد انتهى به الامر الى انه صار يجلس على مة

مقعدها فكانت تنظر اليه كما ينظر اليها . ق

بالنظرات انها تحبه كما ايقنت من قبل انه يحبه

كل ذلك وهو لا يعلم إلى الآن اسم

أنه وجد يوما منديلها على مقعدها فوجد

فما أفاده هذين الحرفين شيئاً فى معرفة

وقد تبعهما يوما بعد انصرافهما الى

فوقف حتى صعدا سلمه فدنا من البواب ر

ابن يقيم الذى دخل الآن مع ابنته او

البيت قال بل فى الثالث منه

— أتعلم ماذا يعمل

— انه من أصحاب الايراد كما يظهر لانه لا يشتغل ولكنه كثير الاحسان الى الفقراء

— ماذا يدعي

— العل سيدى من الجواسيس

فخجل ماريوس وانصرف

وفى اليوم التالى لم يحضر لبلان وابنته الى الحدائق ومضى على ذلك أسبوع دون أن يراها فذهب الى المنزل فرأى النور ينبعث من نوافذه فقرع الباب وجاءه البواب فقال له

. أ .د أن أرى الذي يقيم فى الدور الثالث

واب وقال له انه ترك المنزل وأقام فى سواه

م

رف ماريوس وقد اسودت الدنيا فى

؛

.ل الشتاء وماريوس لا يجد أثراً لتلك الفتاة

وقد عاد يوما الى غرفته فوجد صاحبة المنزل مغضبة لان جيرانه فى الغرفة لم يدفعوا لها أجرة الشهر وأنها تريد طردهم فاشفق عليهم ودفع عنهم الاجرة

وفى تلك الليلة عاد من المطعم الذي يتمشى فيه فلما وصل الى منزله وجد عند بابه منديلا ففتحه فوجد فيه أربع رسائل

وقد دخل الى غرفته فانار الشمعة وقرأ تلك الرسائل فوجد ان واحدة منها بعنوان المركيزة دى كريشراى وتوقيعها باسم ضابط اسباني ووجد الثانية بعنوان الكونتيس دى مونتفران وتوقيعها باسم امرأة باليرار

ووجد الثالثة بعنوان الموسيو بابورجو ا

وتوقيعها باسم جنتلون من الكتاب

ووجد الرابعة بعنوان رحل الخير و،

وتوقيعها باسم فاباتتو من الممثلين

وكل هذه الرسائل المختلفة ال

معناها وهو طلب الاحسان

وقد عجب ماريوس من هذ

تواقيعها أنها من أربعة أشخاص

الدخان المنبعثة منها كانت تدل على ا

فلما وجد أنه لايستطيع حل هذا اللغز

وألقاها على المنضدة ونام

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى أخذ يشتغل ففيما هو على ذلك قرع بابه فأذن للطارق بالدخول فدخلت اليه صبية لاتتجاوز ستة عشر عاما وهي هزيلة الجسم نحيلة الاعضاء لم تكن لابسة والفصل فصل شتاء غير قميص رفيع وتنورة شدتها على وسطها بخيط وكتفاها عاريان

فجعل ماريوس يتمعن بها ويذكر أنه رآها قبل ذلك فقال لها ماذا تريدين أيتها الآنسة

قالت لقد جئتك برسالة ياسيدى ماريوس

فعجب كيف أنها تعرف إسمه وأخذ منها الرسالة ففضها وقرأ

ر »

لما تفضلت به علينا من دفعك أجرة غرفتنا

لام وتضمره القلوب

كيف أننا لم نذق طعاماً منذ يومين

الينا نظرة رفق وأحسان فاشكرك

(جوندريت)

— جوريديت —

ولقد تلقى ماريوس هـذا الـكتاب فـكان دهشه عظيما حين تبين خطه وأيقن أنه نفس الخط الذي كتبت به الرسائل الاربع التي وجدها أمس عند باب المنزل

ولم يكن يعرفه من جيرانه على طول عهد الجوارسوى أنهم من الفقراء البائسين ولـكنه علم الآن جليا ان الفقر والشقاء دفعا جاره إلى استدرار حسنات الناس بمثل هذه الرسائل وانه يبحث عن المشهورين من أهل الاحسان فيرسل اليهم الـكتب مع بناته وقد أشفق عليه وعلى بناته

أما تلك الفتاة فانها كانت تذهب وتجـ
كلفة وقد رأت كتابا على المنضدة فقالت
ثم تناولت الـكتاب وقرأت فيه
« لقد صدر الامر الى الجنرال
« على قصر هوجون الـكائن في و
وقالت . . واترلو . . اني أعرف
حرت في هـذا العصر وقد حضره
جميع عيلتنا من حزب بونابرت .. نعم
فقد تعلمنا من قبل . وانى أعرف الـكتابة اير
على ورقة كانت على المنضـدة عبارة قالت لها أختها أمس وهما في

الشارع « الحذر من البوليس »

ثم حدقت بماريوس فقهقهت ضاحكة وقالت

أتعلم ياسيدي انك فتى جميل

وقد دنت منه فوضعت يدها على كتفه وقالت

انك لاتنتبه الي ولكني اعرفك ياموسيو ماريوس فاني لقيتك مراراً على السلم ورأيتك مرة دخلت الى منزل ملبون الكائن فى جهة اوسترليتس

أما ماريوس فانه ابتعد عنها قليلا وقال لها

لقد لقيت أمس رسائل أظن انها لكم فاسمحي لي أن أردها اياها فصفقت بيديها وقالت

امع أحق فى كل مكان فلم نعثر عليها . . أين

الشارع . . انها لاشك سقطت منى وأنا

حين شعرنا بضياعها حذراً من أنه

اها الى أصحابها فلم تنل شيئاً

ل فاخرجت واحدة منها وقالت

ذهب كل يوم الى الكنيسة وهذا

بها عله يعطينا ماتتعشى به

ـذينا اليوم . . اننا نكون قد ظفرنا

بعـ ...وب ...س

فتذكر ماريوس بقولها هذا ماجاءت اليه من أجله وبحث في كل جيوبه فكان كل ما وجده خمسة فرنكات وستةعشرسنتيما فاعطاها الخمسة فرنكات وأبقي السنتيمات وهو يقول في نفسه سأتغدى بما بقي وسأرى في المساء مايكون

أما الفتاة فاخذت الخمسة فرنكات وخرجت راكضة وهي تقول لابد لي أن أرى الشيخ في الكنيسة عسىأن نتغذى اليوم وأن نتمشى كسائر الناس

***

لقد عاش ماريوس خمسه أعوام عيش الفقراء فظهر له الآن انه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء بل انه رأى انه لم حقيقة الشقاء حتى رآها اليوم ممثلة في تلك الفتا

وذلك ان من لم ير غير شقاء الرجل لم فلينظر الى شقاء المرأة ومن لم ير الا شقاء شيئاً فلينظر الى شقاء الاحداث

ان الرجل حين يصل إلى أقصى الحين نفسه الي أن يصبح من غير مور حين يصبح من غير عمل ويعوزه الخبز فان كل ذلك يفقده بفقدالموارد فان نور ، ونور الرجاء يخمد لدى بصيرته

ويا ويل من يدفعه القنوط الى ارتكاب الجرائم ويحمله الجوع

على استخدام امرأته وبناته وبنيه فيما لا يريده ولا يريدونه فيعملون يداً واحدة على قتل الشرف والعاطفة والمروءة والشعور والطهارة وتضحية كل ما يقيهم خطر ذلك الجوع

وقد هال ماريوس مالقيه من هـذه الفتاة ونبهته الى ما لم يخطر له من قبل فعنف نفسه لتغاضيه عن شقاء جيرانه

نعم انه دفع عنهم أجرة الغرفة ولكن هذه المروءة يقدم عليها كل انسان له شيء من الشعور

اما هو فقد كان يجب عليه أن يفعل أكثر مما فعل مع جيران لا يفصل بينه وبينهم غير جدار رقيق وهم يطوون يومين على

الى الجدار الفاصل بينه وبينهم وهو يقول هذه

ة فوق سريره تطل على غرفتهم فخطر له أن

على حقيقة أمرهم وصعد من فوره الى السرير

النافذة الى داخل الغرفة

نظره قذارة تلك الغرفة وانساخ كل ما

من كرسي من القش ومائدة عرجاء وآنية

ى عليه القدم

ـ الغرفة غير نافذة واحدة تسيح عليها

ـ منها غير نور ضعيف كان يرى منه وجه الرجل

وهو يشبه الخيال

وكانت الجدران محفرة تشبه وجها شوهته الجدرى وكذلك سقفها وقد رأى على أحـد جدرانها صورة كبيرة لها أطار من الخشب كتب تحتها « الحلم » وهى تمثل امرأة نائمة وطفلا نائما على ركبتها ونسراً محلقاً بين الغيوم يحمل بمنقاره تاجا والمرأة تزيح تاجا عن رأس الطفل دون أن تنتبه من رقادها

وفى الوسط نابليون بملء مجده وهو متوكأ على عمود غليظ أزرق كتبت عليه هذه الـكلمات

مارنجو .. اوسترلتيز .. يانا . وارغرام . اللوت.

وهي أشهر المواقع التى انتصر فيها نابليون

وقد رأى ماريوس على المائدة أدوات الـكتا ١

وراءها وهو ضعيف هزيل له لحية طويلة وخط

وكان يلبس قميص امرأة وحذاء خرجت

وهو يكتب ويدخن وربما كان يكتب ر

اطلع عليها ماريوس

وكان يكتب ثم يتوقف عن الـ

فيقول

نعم ان المساواة مفقودة حتى بالم

ان الاغنياء يدفنوهم فى مكان رصفت أر

الوحول وغرست الاشجار فى جانبيه فلا تلد

ويدفنون الفقير تحت حيث تغوص في الوحول إلى الركب

ثم ضرب المائدة بيده وحرق الارم من القهر وقال
انى سآكل العالم
وكان بالقرب منه إمرأة تبلغ الاربعين من العمر وهي جالسة على الارض ولم تكن لابسة غير قميص رفيع
وبجانبها فتاة هزيلة صفراء حافية القدمين تكادتكون عارية
وربما كانت أخت الفتاة الذى جاءت الى ماريوس
وقد سكت الجميع فلم يعـد يسمع غير صرير قلم الرجل على الورقة وتنهدت المرأة من حين إلى حين
وكان ماريوس قد حاول النزول من المكان الذي يراقب فيه
أى ولكن رأى عنـد ذلك أن الفتاة التى جاءت
الغرفة فاقفلت الباب عن ورائها وقالت بلهجة
نتصار

قال لها

سانت جاك

ـ ين انه قادم
— نعم فهو في أثرى

— أأنت واثقة من قدومه

— كل الثقة فهو قادم في مركبة

— كيف يأتى فى مركبة وتصلين قبله . . أني رشدته الى الغرفة . . .
وجدته فى الكنيسة . . أعطيته الرساله

— هذا تفصيل ماجرى فانى دخلت إلى الكنيسه فلقيه فى
المكان الذى يجلس عادة فيه فاعطيته الرساله فقرأها وسألنى أين
نقيم فقلت له أريد ياسيدى أن أذهب بك قال كلا بل أرشديني
إلى البيت واسبقيني اليه نصل فى حين واحد فاني ذاهب فى مركبة
فلما أرشدته الى غرفتنا ظهرت عليه علائم الدهشة والت.. ثم قال
حسناً فاذهب

وقد صبرت إلى انتهاء الصلاة ورأيته رك.

وذهبت بها الى جهة السوق فأتيت وهذا

— اذن كيف تقولين أنه قادم فى اثر ا

— لقد رأيت مركبته فى شار

فوصلت قبله فوقف الرجل عند ذلك

أسمعت أنه قادم فاسرعي الى أط

فأسرعت ممتثلة الى المستوقد و.

وقال لبنته الكبرى فانزعى القش

وقال لابنته الصغرى وأنت اذهبي الى الس

زجاج

فوقفت الفتاة مترددة وهى تقول أن البرد شديد والثلج ينهمر فانتهرها فأسرعت الى الزجاج فكسرته ولجأت الى زاوية أتقاء للهواء فقد كان زمهريراً

وعند ذلك دنت منه امرأته فقالت له

ماذا تريد أن تصنع أيها العزيز

قال أريد أن تنامي فى فراشك وان تمارسي

وعنـد ذلك سمعت بنتها الصغرى تبكي فالتفتت اليها فرأت الدم يسيل من يدها فقالت لزوجها

لقد أخطأت في ما أمرتها به من كسر الزجاج فانها جرحت يدها

أردت ذلك حصيصاً لانى كنت أتوقعه

الك

لاأحب الاعتراض والآن فانت مريضة وابنتك

والزجاج مكسور فستطيع استقبال ضيفنا

قالت لها

ستكدرين أباك

ريد أن تبكى وتشهق بالبكاء فان شهيقها

نيره

ه وقال لها

ـيد فاذا لم يحضر هذا الرجل أكون كسرت الزجاج

وجرحت يد ابنتى وأطفأت النار عبثاً وما عليـه اذا تأخر فانه

يقول فى نفسه ليصبروا . والله ماوددت الا أن تجمع أعناق كل هؤلاء الاغنياء فى عنق واحد فأخنقه بيدى . . انهم يتصدقون على الفقراء ببعض دريهمات لا يلتمسون بذلك غير المباهات وطلب الجاه ثم يحسبون أنهم أصبحوا فوق البشر

ولقد يأتوننا بملابس تقينا البرد كما يقولون وبخبز يقينا الجوع ولا يعطوننا درهما لحذرهم أن ننفقه على السكر . ومن هم هؤلاء الاغنياء وكيف صاروا من اهل الثروة والجاه انهم جمعوا أموالهم من عرق الفقير وامتصوها من دم المجتمع الانسانى فليروا ماسرقوه دون مباهاة فلا سبيل الى الفخر

وعند ذلك قرع الباب قرعا خفيفاً فأسرع الرجل
ثم انحنى بملء الاحترام وقال

تفضل ياسيدى بالدخول . . تفضلي يا
تشريف هذه الغرفة

فنظر ماريوس من النافذة الى الداخل
أبيها فشعر أن الدم جمد فى عروقه و
وصاح قائلا

رباه هذه هى

أما الفتاة فانها دخلت الى الغرفة
معها صرة من الثياب فوضعتها على المائدة
وراء الباب وجعلت تنظر الى قبعة الزائرة المخملية
والدموع تكاد تسيل من عينيها

أما لبلان فانه دنا من جوندريت وقال له

انك تجد فى هذه الصرة ملابس جديدة وأغطية من الصوف تقيكم البرد فانه شديد فى هذه الايام

فانحنى جوندريت شاكراً حتى كاد يبلغ الارض وهمس فى أذن ابنته فسألها قائلا

باى اسم وقعت على الرسالة التى كتبتها اليه

قالت باسم فابانتو

وعاد لبلان إلى محادثته فقال

أرى أنك فى حال تحمل على الاشفاق يا موسيو . .

— انى أدعى ياسيدى فابانتو

انك من الممثلين الذين برعوا بهذا الفن الجميل

لميذ قلما ياسيدي وقد نجحت نجاحاً باهراً فى ما مضى

. حا ور الشقاء فاصبحت من غير خبز وبات

فى نكدى انكسار زجاج النافذة ومرض

ى تبتغي الاقدار منى بعد هذا . . انظر

جرحت يدها وهي تشتغل بآلة ميكانيكية

كسب ستة سانتيمات وربما قطعوا يدها بعد

ول

م ياسيدى واأسفاه

وكان جوندريت يحادث لبلان منذ هنيهة وهو ينظر اليه

نظرات غريبة ويبحث فى ذاكرته اذ خيل له أنه رأى هذا الرجل قبل الآن

وشغل الرجل عنه بمحادثة بنته فدنا جوندريت من امرأته وقال لها بصوت منخفض

امعنى النظر بهذا الرجل ألم تعرفيه

ثم عاد الى لبلان وقال له

انظر ياسيدي إلى ما أنا فيه فليس لى قميص ألبسه حتى اضطررت ان ألبس قميص امرأتى ونحن في أشد أيام الشتاء

ولم يبق لى ثوب أخرج به ولو كان لى ثوب للبسته وذهبت الى مدموازيل مارس (ممثلة شهيرة) وهي تعرفنى ٠

فقد مثلت معها فى الريف فلا أعدم بواسطتها و..

ولكن ما حيلتى وليس لي درهم ولا ثو

وابنتى مصابة بجرح خطر فكيف اداويهما وم

وفوق ذلك فاني مدين لصاحبة الغرفة

تتوعدنى كل يوم بالطرد فكيف أفيها و

فاخرج لبلان خمسة فرنكات من جيبه

جوندريت فى نفسه

ويح لى منه فماذا أصنع بما أعطانى إيا

الكرسي الذي قطعته والزجاج الذى كسرته

أما لبلان فانه انتبه لامتعاضه فقال له

حذ الآن هذه الدريهمات فاشتر بها ما يتيسر إد ليس لي سواها
الان وسأعود اليك فى هذا المساء أليس اليوم موعد دفع احرة الغرفة
— نعم يا سيدى فاذا لم أدفع فى الساعة الثامنة طردوني
— كم تبلغ قيمة المتأخر عليك
— ستين فرنكا
— إذن سأكون عندك فى الساعة السادسة وأجيئك بهذا
المبلغ والآن أستودعكم الله
وقد مشى مع بنته الى الباب فاستوقفه جو ندريت قائلا
لقد نسيت سترتك الخارجية ياسيدى
تركتها
كرك ياسيدى فاسمح لى أن أوصلك الى المركبة
لخروج فالبس هده السترة فان البرد شديد
الى باب المركبة

***

ى من هذا المنظر ولكنه فى الحقيقة
بالنظر الى ابنة لبلان اذ كان يراقب كل
الثياب وحين كلمت المرأة المتمارضة بعلء
ء الحنو
ما أراد ودون رقيب فسمع نبرات صوتها
الى ان يسمعها بالنبرات الموسيقية ورأى وجهها وعينيها وقدميها

فانه حين كان يلقاها فى لكسمبورج كان يسارقها اللحظ مستحيياً ويود لو خسر عشرة اعوام من عمره على أن يسمع صوتها

فلما رآها خرجت مع أبيها لم يخطر له غير خاطر واحد وهو أن يتبعها ليعلم أين تقيم

وقد وثب من فوره الى الارض فاخذ قبعته وخرج من غرفته فلما وصل الي الشارع رآها قعدت مع أبيها في المركبة وسارت بهما

وقد رأى مركبة سائرة على مسافة قريبة منه من مركبات الاجرة فاسرع اليها فاستوقف سائقها وقال له

انى استاجر مركبتك بالساعة

فحك السائق ابهامه بسبابته اشارة الى ما

له ماريوس ماذا تريد

قال أريد أن يكون الدفع مقدماً وهذا

قال كم الاجرة

قال فرنك في الساعة

فذكر أن لم يبق معه غير ستة د

سأعطيك حين رجوعنا

فلم يجبه السائق بشيء بل ضرب

لايلوى عليه

فاصيب المنكود بما يشبه اليأس لضياع هذه الفرصة الثمي

بسبب فرنك واحد ولعن تلك الساعة التي جاءته فيها تلك الفتاة فاعطاها كل ما كان لديه وعاد الى غرفته وهو شبه المجانين

ثم ذكر ما سمعه من لبلان وهو أنه سيعود في الساعة السادسة من المساء نحف شحمه وقال سأتبعه حين انصرافه في الليل فاعلم أين يقيم

وكان قد رأى حين دخول جوندريت يحدث رجلا من أهل الشبهات وهما واقفان لا يباليان بالثلج الذي كان يتساقط عليهما

ولما صعد السلم وحاول الدخول الى غرفته رأى إبنة جوندريت الكبرى تتبعه فاستاء لمنظرها وبانت تسمج في عينيه

كة

، غرفته فلم يكد يستقر فيها حتى دخلت اليه

ذا تريدين

تجيب فقال لها

ماذا تريدين مني

بة ياموسيو ماريوس فماذا اعتراك

فما أنا بكئيب

— بل ان كل مافيك يدل على الحزن

— دعيني وحدي

— انك رجل كريم ياسيدى فانك على فقرك كنت من أكرم الناس فى هذا الصباح فاسترسل في هذا المجال وقل لى ماذا أصابك وما هـذا الحزن الذي يتولاك وكيف أستطيع تفريجك . . انى لاأسألك أن تبوح لى باسرارك . . ولـكني قد انفعك كما انفع أبى بارسال الرسائل والذهاب إلى المنـازل والبحث عن العنوانات واقتفاء الآثار إلى غـير ذلك . . انى أصلح ياسيدى لـكل هذا فاستخدمني فى ماتشاء من اغراضك على أوفق الى كشف هـذا الغم عن صدرك

فخطر له عند ذلك خاطر سريع وقال لها

اصغي إليّ فانك أتيت الى هنا منذ هنيهة كذلك

قالت نعم

— هل تعرفين عنوانه

— كلا

— أتستطيعين معرفته

فاتقدت عيناها ببارق من السرور و

أهذا الذى تريده

— نعم

— أتعرف الرجل وبنته

— كلا

— أى انك لاتعرف هذه الفتاة وتريد أن تعرفها

— أتريدين أن تبحثي عن عنوانها

فنظرت اليه محدقة وقالت

ماذا تعطيني

— كل ماتشائين

— كل ماأشاء

— نعم

اذا ستعرف العنوان

طرقة الرأس وجلس ماريوس على كرسي يفكر

ثم سمع صوت جاره يقول

باثق ه نه

ي يعنيه بحديثه ألعله يعنى

والد التي أحبها

ه التي كان يراقب منها غرفة جاره

ن سوى ان المرأة شفيت من مرضها

ه

نقول

قال بن المعد فقد رأيته منذ ثمانية أعوام وكان كما أراه اليوم

ألم تعرفيه أنت

— كلا

— ولكنني نبهتك اليه فانه لم يختلف عما كان عليه في شيء سوى انه ظهر عليه الكبر قليلا

ثم التفت إلى بنتيه وقال لهما

ادهبا أنتما في شأنيكما ولا تعودا خاليتين

فاعترضته زوجته قائلة

أتذهب ويدها جريحة

قال لا بأس فان الهواء الطلق يفيدها

ثم قال للفتاة الكبرى يجب أن ترجعي مع أختك في الساعة الخامسة فاني قد احتاج اليكما

فذهبت الفتاتان وبقي جوندريت مع زوجته وابنها في الغرفة

ثم وقف فجأة وقال لها

أتريدين أن تعلمي من هي هذه الف

فايقن ماريوس من انه يسير الى الاصغاء فقالت المرأة

من هي

قال انها هي بعينها

— هذا محال فاني حين أرى بنتي لسير ... تلبس الحرير ، تمشي مشيه كبار السيدات لا أصدق عيني

كلا فانك واهم . وبعد فان تلك كانت قبيحة السحنة وهذه تكاد تكون من الجميلات

— لقد قلت لك انها هى بعينها وسترين

فرفعت عينيها الى السقف شأن القانطات بعد أن أكد لها زوجها هذا التأكيد ثم هددت السماء بقبضتيها فرأى ماريوس انها أشد هولا من زوجها وان هذين الزوجين لم يأتلفا الا وهما متفقان فى الطباع والمشارب

وبعد أن بدت منها تلك العلائم الدالة على يأسها نظرت إلى زوجها ... أيمكن أن تكون هذه الحسناء التى كانت تنظر الينا بالاشفاق تلك الصعلوكة ذات الاطمار إذن سافقأ

...نحت أعصابها وانسمت حدقتاها

...د الى المشى فى الغرفة ثم وقف بحذاءة وقال

...نا أمراً آخر

...نى وسأكون من الاغنياء

...ـه وهى تحسب أن عقله قد اختلط

...ال

...ـه من الشقاء وانى فى كل يوم اذا وجدت الخبز خفت الموت من البرد واذا وجدت النار خفت الموت من

الجوع . . نعم لقد كفى واني أريد أن آكل حين أجوع وان أشرب حين العطش وان أعيش من غير عمل عيش أصحاب الملايين

— ماذا تعني عما تقول

— أصغى الى

— ولكن اخفض صوتك اذا كنت تريد أن تقول أمراً خطيراً حذراً من أن يسمعوك

— من عساه يسمعنا غير جارنا فقد رأيته خرج من المنزل فاسمعي ما أقوله فقد وقع هذا الرجل فى الشرك فانى دبرت الامر واتفقت مع شركائى وانه سيأتى الينا فى الساعة الـ ... من فرنكا وهو موعد خروج جارنا من غرفته للعشاء فانه الساعة الحادية عشرة ومع ذلك فان المئتين فرانك تساعدينا فلا بد له من أن يمتثل

— واذا لم يمتثل

— نكرهه على الامتثال والآن فا ... الرفاق وسأعود قريباً فترين كيف يكون

— ولكنى أعجب كيف انه لم يعرف

— أنه لو عرفها لما وعد بالرجوع الينا ...

كنت متمارضة فلم يتبين وجهك واما انا ... اللحية الطويلة التى أرسلتها وأما البنتان فقد رآهما ...

خذى فاشترى لنا لحما

وقد أعطاها خمسة فرنكات فقالت بكم اشترى

قال بفرنك

— والباقي أشترى به طعاما

— كلا لا تنفق كل ماأعطيتك

— لماذا

— لانى محتاج الى شراء بعض أشياء فهل يوجد خردجى هنا

— يوجد دكان فى شارع موتقارد

— لقد عرفتها

— الى كم تحتاج

— " • سكين

ى غيرالقليل للطعام

م ان نهتم اليوم للطعام فان لدينا مايشغلناعنه

ت

ص ف فلم يفت ماريوس كلمة من كل ماقيل

***

المضاء والعزيمه وقد جمع بين صدق

هلا كالبراهمه وشديداً كقضاة المحاكم

عصفور اذا به يسحق الافعى

واتما وقع نصره الآن على جب تسكن فيه الافاعى فقال فى

نفسه لابد من رد كيد هؤلاء اللصوص الى النحر

وكان يرجو من مراقبته أن يكشف شيئاً من ذلك السر الذي دق عليه فلم تزده غير تعقيد وابهام اذ أنه لم يفهم شيئاً من لبلان سوى ان جوندريت يعرفه

وخلاصة ماعلمه مما رأى وسمع انهم ينصبون نخاخاً للرجل وابنته فان ابنته قد تنجو من هذا الفخ أما هو فانه واقع فيه لامحاله فلا بد اذن من صيانته من هذا الخطر

ثم انه شعر بعاطفة سرور حين رأى أنه سينقذ التي يحبها .

ولكن كيف السبيل الى انقاذها أيخبرها بالخطر المحدق بابيها وهو لايعلم أين يجده

أم أنه ينتظر عند باب المنزل الى أن يأتي لان

فيخبره بالمكيدة التي يكيدونها له

ولكن جوندريت ورفاقه سيراقبون

رأوه عرفوا قصده فيقبضون عليه ويبعا

تحهم مع الذي يريد انقاذه فلا أفاد و

اذن لم يبق له غير أمر واحد :

وقد لبس ثيابه حين أقر على هذا ا

الغرفة يمشي مشياً وئيداً دون أر

خطواته وانصرف

فلما صار في الشارع وصل الى جدار منخفض جرداء وسمع أصواتا من وراء ذلك الجدار

فاطل منه فرأى رجلين جالسين على الثلج وهما يتحدثان بصوت منخفض ولكنه باطلاله من فوق الجدار كان حديثهما يصل اليه فسمع أحدهما يقول لصاحبه

ان زعيمنا ماتولى عملا الا كان رائد التوفيق

فاجابه رفيقه قائلا

هو ذاك ولكن كم ترجو أن تكون حصة الواحد منا من هذه الغنيمة

— خمسمائة فرنك أوسجن خمسة أعوام على الاكثر

— ا خير غنيمه لو كان النجاح مضمونا

لت لك أنه مضمون فاطمئن وكن

يث تركهما ماريوس وانصرف وذهب من فوره مراكز البوليس وهو يشكر الله لاعطائه ابنة درنكات لانه لو بقيت معه لاقتفى أثر لبلان ولم على المكيدة وكم ينتج الخير من الشر وعسى خير لكم

البوليس سأل عن القومسيير فقيل له لكن يوجد مفتش ينوب عنه فاذا شاء

ورضي ماريو ... لا فرق عنده بين الاثنين ودخل الى ذلك المفتش فرأى أن وجهه لايقل توحشاً عن وجه جوندريت

وقد استقبله المفتش قائلا

ماذا تريد

قال أريد أن أرى قومسيير البوليس

— انه غائب وأنا أنوب منابه

— ان الامر سرى خطير

— قل

— وهو يدعو الى السرعة

— اذن أسرع بالقول

فاخبره ماريوس بكل مارآه وسمعه حتى اذا فرغ من حكايته سأله المفتش قائلا

أين جرت هذه الحادثة

قال فى شارع الغراب و منزل نمرته ٥٠

فرفع المفتش رأسه وقال

أفى الغرفة الوسطى الـكائنة فى آخر ا

— هو ذاك فهل عرفت هذا المنزا

— نعم عرفته كما عرفت جميع ر

يستحيل أن نختبىء فى ذلك المنزل لضيقه

ثم نظر محدقا الى ماريوس وقال له

هل خفت

— ممن

— من هؤلاء الناس

— اني لاأخافهم كما انى لاأخافك

وانما قال له هذا القول الجافي لانه منذ محادثته الى الآن لم ينعته بلقب « سيدى » المالوف فى المحادثات

فأجابه المفتش قائلا

انك تقول قول رجل باسل شريف فان الباسل لايخاف المجرمين والشريف لايخشى الحكام

— والآن على ماذا عزمت

— لقد أخبرتنى انك مقيم فى هذا المنزل فلا بد أن يكون لديك

ل له

ن لا تأتي وحدك فليس هؤلاء الاشرار

ه الكبير وأخرج منه غدارتين فأعطاه

اياه

رتين وارجع إلى منزلك فاختبىء فى غرفتك

ودعهم يتوهمون انك خرجت منها

أما الغدارتان فان كل واحدة منهما محشوة برصاصتين وقد

قلت لي أنه يوجد في غرفتك نافذة تراقب منها فقف هناك الى أن يأتي الاشقياء ودعهم يتمادون قليلاحتى اذا رأيت الامر بلغ غايته اطلق غدارة وعلى البقية

وانما يجب أن تطلق الغدارة فى الهواء واحذر أن تطلقها قبل أن تراهم بدأوا تنفيذ قصدهم السيء فانك من المحامين أريد أنه يجب القبض عليهم وهم متلبسون بالجريمة كما تقولون فى اصطلاحكم

فوضع ماريوس الغدارتين في جيبه وقال سأفعل كل ما أوصيتنى به بالتدقيق

— والآن فاذهب فان الوقت ثمين والموعد فى الساعة السابعة أليس كذلك

— كلا بل الساعة السادسة

— لايزال الوقت متسعاً لدي فاذهب و

لك فودعه ماريوس وانصرف حتى اذا وصل الى

اذا احتجت الي قبل الساعة السادسة أو حدث

الى هنا وارسل الي أحداً من قبلك يسأل ع

***

بعد هنيهة كان صديقان لماريوس مارين بشارع

يتساقط عليهما وهما يسيران ضاحكين غير مكترثين

وعند ذلك حانت التفاته من أحدهما ورأى ماريوس يسير

مستعجلا فقال له الرفيق أما ترى هو ذا صديقنا ماريوس

قال لقد رأيته فلا تكلمه

— لماذا

— لانه مشتغل

— بماذا

— ألم تر وجهه

— ماذا يدل وجهه

— يدل على نه يقتفي أثر أحد من الناس

— ولـكن من تراه يقدو

أن يكون من العشاق وهو يتبع التى يهواها

، لا أحد قبيحة ولا حسناء فى هذا الشارع

وقال

رجل ألا ترى

، أي رجلا يسير أمام ماريوس وقدخط الشيب

حيته . سوداء طويلةمن نوع الردنجوت وبنطلون

قديم ر ج

فلم يتمالك ن الضحك وقال

ما هذا الرجل

قال لاشك انه شاعر فهذه ملابس الشعراء

— اذن هلم بنا نتبعه لنعلم الى أين يسير

— ويحك هل رأيت من يتبع رجلا يقفو أثر رجل

فتركاه وانصرفا وهما يضحكان

وقد صدقت فراستهما فان ماريوس كان يتبع جوندريت وكان جوندريت يسير أمامه وهو لا يخطر له في بال أن ماريوس يتبعه

وقد رآه اختار ذلك الشارع ودخل الى كوخ حقير في شارع آخر فأقام فيه ربع ساعة ثم خرج فعاد الى الشارع الذي كان فيه

وهناك دخل الى دكان خردجي وخرج بعد هنيهة يحمل أزميلا ضخما ستره تحت سترته وذهب إلى شارع مانكيه حتى انتهى الى الجدار الذي كان ماريوس قد اطل منه رأى الرجلين يتحدثان

وكان ماريوس بعد بلغ المسقط ... فاختبأ فيه ورأى جوندريت قد التفت الى ما حواليه فلما لم يجد من يراقبه تسلق ... ثب منه الى الارض الجرداء

وبعد ذلك أسرع ماريوس عائداً الى المنزل ... دون أن يشعر به أحد

وكان من عادة صاحبة المنزل أن تدع ...

فرأى ماريوس حين دخوله أربعة رجال ...

الغرف دون أن يروه ودخل الى غرفته ...

***

ولبث مضطجعا على سريره وهو تائه في مهامه التفكير الى أن بلغت الساعة الخامسة بعد الظهر ولم يبق بينه وبين موعد الجناية غير نصف ساعة

وكان المطر قد انقطع وبزغت أشعة القمر منفذت إلى غرفته واغنتها عن المصباح

وكانت غرفة جوندريت منيرة ولكن السكوت كان سائدا فيها

وبعد هنيهة سمع صرير المفتاح في الباب الخارجي تلاه وقع خطوات شديدة وأيقن أن الداخل جوندريت

أما جوندريت فانه حين دخل استقبلته امرأته وبنتاه وكانت امرأته ساكتة في غيابه سكوت الذئبة في غياب الذئب فقال لها

ان البرد شديد وأخاف أن تجمد كلماتي قبل أن تصل الى مسمعك بل أشعر بي أمشي بغير قدمين

قالت ادن من النار تدفأ

فنظر الى بنتيه فرآهما لابستين خير ما عندهما من الملابس فقال لهما

لقد أ فان هذه الملابس تدعو الى الثقة

فقالت احداهما اننا ننتظر عودتك لنذهب

قال اذهبا ولا تنسيا شيئاً مما قلته لكما

ثم نظر فرأى أثر طعام على المائدة فقال ماهذا الطعام

فقالت له امرأته لقد كان عندنا بقية من البطاطا فاغتنمت فرصة وجود النار وشويتها عليها

قال لا بأس سأجيئكم غدا بطعام لا يوجد على موائد الملوك

ثم قال لامرأته صبي هذا في النار

فسمع ماريوس صوت حركة الفحم حين يمسكونه بملقط أو بآلة من الحديد ومضى جوندريت في حديثه فقال

هل دهنت زلاج الباب وقفلته بالشحم كى لا يسمع له صوت

قالت نعم

— كم الساعة الآن

— ستبلغ ستة بعد قليل

— وهل أتى الرفاق

— لقد أتى أربعة منهم وهم فى الغرفة

— وجارنا

— ذهب لم يعد بعد دانت تعلم ان هذا وقت عشائه

— أأنت وواثقه مما تقولين

— كل الثقه

لا بأس من البحث

ثم أمر احدى بنتيه وكانتا على وشك الذهاب بصحبه ان تأخذ شمعة وتبحث في غرفة ماريوس

فسمعه ماريوس وأسرع فاحتبأ تحت سريره ودخلت الفتاة فلم تجد أحداً فعادت وأخبرت أباها فأمرها أن تذهب مع أختها فتقف احداهما فى عطفة شارع بانكيه والاخرى فى مدخله وان تنظرا الى باب المنزل فاذا رأتا ماريب تسرعان اليه .

نحرحتا ولم يبق فى المنزل غير ماريوس وجوندريت وامرأته واللصوص الاربعة

***

ورأى ماريوس عند ذلك انه قد حان الوقت للمراقبة فصعد الى تلك النافذة التى كان يراقب منها فرأى نوراً عظيما

ولم يكن هذا النور ينبعث من الشمعه وحدها التي كانت مضاءة بل من لهب النار فى المستوقد

وقد رأى فى إحدى زوايا الغرفة حدائد قديمة مختلفه وحبالا ورأى جوندريت جالساً على كرسى يدخن وامرأته تحدثه بصوت منخفض

ثم رفع جوندريت صوته فقال

لقد فطنت الآن فانه لابد له أن يأتى بمركبة لاشتداد المطر فأنيرى المصباح وأخرجى مقفى وراء الباب حتى يأتى فتنيرين طريقه حتى يصعد السلم ثم تعودين إلى سائق المركبة فتنقيدينه أجرته وتطلقين سراحه

قالت من أين أاتيه بالاجرة

فأخرج ريالا من جيبه وأعطاها إياه

فقالت من أين لك هذا

قال هو الريال الذى أخذته ابنتنا من جارنا في هذا الصباح

وبعد أتعلمين أنه يجب أن يكون عندنا هنا كرسيان

— لماذا

— لنجلس عليهما فأين يجلس متى حضر

— إذن سأحضرهما من غرفة جارنا

فارتعش ماريوس مما سمعه ولم يشكك بالافتضاح فأسرع بالنزول من موقفه فاختبأ تحت السرير وهو يعتقد أن هذه المرأة قد تدقق بالبحث لدهائها فتجده

وقد أشار عليها زوجها أن تأخذ الشمعه فقالت لا حاجة اليها فانى استعيض عنها بنور القمر ولا استطيع أن أحملها واحمل الكرسيين فى حين واحد

فاطمأن قلب ماريوس ودخلت المرأة فأخذت الكرسيين وانصرفت فعاد ماريوس إلى موقفه وعادت هي إلى الغرفة فقالت هو ذا الكرسيان

قال وهذا المصباح فاذهبى إلى موقفك

فامتثلت له وبقى فى تلك الغرفة وحده فوضع الكرسيين قرب المائدة وافتقد الازميل فى المستوقد ثم ذهب الى الزاوية حيث كانت الحبال فافتقدها ورأى ماريوس ان هذه الحبال انما كانت سلما من السلالم التى تعلق فى النوافذ ولها عوارض من الخشب الثابتة الدرجات

وبعد ذلك فتح درج المائدة وأخرج سكينا ماضى الحدين

فنظر اليه نظرة الفاحص وأعاده إلى الدرج

***

وعند ذلك دقت ساعة كنيسة سانت مدار ست دقات فقام ووقف مصغياً فسمع امرأته تقول

تفضل ياسيدى بالدخول

فأطل جوندريت من باب غرفته وقال تفضل أيها المحسن الذى طوق اعناقنا بجميله إلى الابد

فدخل لبلان وكان أول ما فعله أنه وضع على المائدة ثمانين فرنكا بدلا من ستين وقال

خذ يامسيو فابانتو فهذا المتأخر من أجرة غرفتك وشىء زهيد لنفقاتك التى لابد منها وسنرى

قال أحسن الله اليك ياسيدى بقدر إحسانك الينا

وكانت امرأته قد صعدت فهمس فى أذنها قائلا

اطلقى سراح السائق

قالت لقد فعلت

وكان المطر قد اشتد تساقطه حتى انه لم يسمع صوت المركبة عند انصرافها ولاعند قدومها ثم انحبس فعادت السماء إلى الصفاء وعادت أشعة القمر إلى البزوغ

وقد جلس لبلان وجلس جوندريت بازائه وأخرج ماريوس احدى النظارتين من جيبه فوقف موقف المتأهب لكل حادث يطرأ

وعند ذلك بدأ لبلان الحديث فقال

كيف حال الصغيرة الجريحة

— انها على شر حال ياسيدى فان اختها الكبرى ذهبت بها إلى الصيدلية لغسل الجرح وتنظيفه وستعودان فتراها

— ولكن مدام فانانتو قد تماثلت إلى العافية كما أرى

— كلا ياسيدى ولكنها شديدة الصبر قوية الارادة فلا تطيق الاقامة فى فراش لانها أشبه بالثيران منها بالانسان

فقالت له امرأته

أشكرك يامسيو جوندريت

وقال لبلان كنت أظن انك تدعي فانانتو

قال، هو ذاك وانى من الممثلين وقد كنت ولا أزال مع امرأتى على خير حال وماذا عسى يكون مصيرنا لولم نكن متفقين على هذا الشقاء لنتعاون على احتماله

وأى شقاء بعد هذا فان الايادى موجودة والارادة الكائنة ولكن القلب غير موجود ولا أدرى كيف تتغاضى الحكومة عن مثل هذه الشؤون فانى لوكنت من الوزراء لكان لى غير نظر فى حالات الناس فلقد بلغ بنا العسر إلى حد انى اعلم بنتى صناعة تجليد الكتب فاى سقوط هذا بعد ما كنا فيه وقد بعت كل ما كان عندى من أيام الخير غير صورة كنت أحب أن احتفظ بها ولكن لابد لى من بيعها اذ لابد لى أن أعيش

وبينما كان جوندريت يتكلم رأى ماريوس رجلا قد دخل الى الغرفة وهو من أولئك الاربعة الذين رآهم يختبئون وجلس

فقال لبلان من هو هذا الرجل

قال انه جار لنا

قال اسألك المعذرة فماذا كنت تقول لى ياسيو جوندريت

قال كنت أقول انه بقى لى صورة أريد بيعها

قال ماهي هذه الصورة

قال انها صورة ثمينة من صنع أشهر المصورين أحرص عليها أشد الحرص لانها تذكرنى العهد القديم ولكنى قلت لك انى لا أجد بداً من بيعها . وقد جاءه بالصورة فبينما هو ينظر اليها التفت فرأى أربعة رجال فى الغرفة وكلهم يحملون على الريب فسأل جوندريت عنهم فقال له

انهم ياسيدى من أصحابى ولا يرعك سواد وجوههم فانهم يشتغلون بالفحم

أما لبلان فانه نظر اليه نظرة الشك فلم يحفل جوندريت بنظراته وقال له

أرجوك ياسيدى أن ترحم شقائى وتشترى منى هذه الصورة فكم تسوى

قال انها من تلك الصور التى يعلقونها فى الحانات وهي تسوى ثلاثة فرنكات على الاكثر

فأجابه بلطف قائلا

هل أتيت بمحفظتك فاني أقنع بألف ريال

فأسرع لبلان الى الوقوف فاستند الى الجدار ونظر نظرة سريعة إلى ما حواليه فى تلك الغرفة فرأى جوندريت على يساره من جهة النافذة ورأى امرأته واللصوص الاربعة على يمينه من جهة الباب

ولم يكن أولئك الاربعة يهتمون لوجوده حتى انهم لم يكونوا ينظرون اليه وعاد جوندريت الى الحديث فقال

انك اذا لم تشتر منى هذه الصورة أيها المحسن العظيم لم يبق لى إلا أن ألقى نفسى فى النهر فاستريح اذ ليس لى مورد ولابد لى من معدات كثيرة لتعلم شئ صناعة التجليد

وكان لبلان ينظر الى جوندريت ويقول فى نفسه

ترى ما أصاب هذا الرجل ألعل اليأس أفقده الصواب

وكان جوندريت ينظر الى الباب نظرات قلق ثم اتقدت عيناه ببارق مخيف فدنا من لبلان وقال له

لم يبق فائدة من البحث فى الصورة فهل عرفتنى

***

وكان الباب قد فتح حينئذ ودخل منه ثلاثة رجال يظهر أن جوندريت كان ينتظرهم فدنا من أحدهم وقال له

هل أتيتم

قال نعم

— أين مونتمارناس

— انه يتحدث مع بنتك عند الباب

— أية ابنة

— الكبرى

— أيوجد مركبة

— نعم

— أهي تنتظر فى المكان الذى أشرت اليه

— نعم

أما لبلان فقد اصفر وجهه وأيقن أنه سقط فى كمين ولكن لم يظهر عليه شيء من أمارات الخوف وجعل المائدة شبه حاجز بينه وبين اللصوص وجعل ينظر اليهم نظرات هائلة

وعند ذلك دنا الاربعة الذين جاؤا قبلا الى الغرفة من قطع الحديد التي كانت فى الزاويه بجانب سلم الحبال فتسلح كل منهم بقطعة وعاد جورنديت الى محادثة لبلان فقال له

أما عرفتنى

قال كلا

فكتف يديه ودنا منه وقد عرض وجهه للنور وقال له

تمعن بوجهى الآن علك تعرفنى

قال كلا

قال اذن فاعلم اني لا أدعي فاتنابو ولا جوندريت بل انى أدعى تنارديه وأنا هو صاحب الفندق الذى زرته فى مونتفرميل أعرفتني الآن

قال كلا

أما ماريوس فانه لم يكن يسمع ماقاله ويعلم ان هـذا الرجل يدعى تنارديه حتى صعق وانتفض واستند الى الجدارحذرا من السقوط وشعر كأن خنجراً قد اخترق قلبه وسقطت الغدارة من يده الى السرير فانه يبحث منذ أربعة أعوام عن هذا الرجل الذى أنقذ أباه من الموت فى معركة واترلو ليكافئه عملا بوصية أبيـه حتى وجده فاذا به سفاك زنيم من زعماءاللصوص

وكان يرى أن حياة هذا الرجل ورفاقه أصبحت فى يده فما عليه الا أن يطلق غدارته فينجو لبلانمن كيدهم ويجارى تنارديه ورجاله بما يستحقون واذا لم يطلقها بلغوا من هذا الرجل المحسن ماأرادوه وربما نجوا فما عساه يصنع فى هذا الموقف

أيتخلى عن لبـلان وهو ضحية هؤلاء اللصوص أم يفضح تنارديه وهي منقذ أبيه

ثم أنه كان يخال له وهو فى هـذا الموقف ان ابنة لبلان التى يرى نور الحياة ينبعث من نور عينيها واقفة أمامه تتوسل اليـه انينقذأباها

ويرى أباه فى جهة أخرى يوصيـه بتنارديه فيجمد الدم في

عروقه ولا يعلم ماذا يصنع لاسيما وان الوقت لم يكن متسعاً للتفكير

أما تارديه فانه مشى هنيهة فى الغرفة ثم وقف أمام لبلانك وقال له

لقد ظفرت بك ولقيتك أخيراً ياصاحب الملايين ويا أيها المحسن العظيم فأنكرتني حين عرفتك بنفسي

أما أنت هو الذى جاء الى فندق فى مونتفرميل ليلة عيد الميلاد وذلك منذ ثمانية أعوام . . أما أنت هو الذى احتلس مني ابنة فانتين الطفلة التي كنا نلقبها بالقبرة ثم تقول انك لا تعرفني

أما أنا فقد عرفتك أيها المحسن العظيم لاول نظرة أيجمل بك أن تأتيني متنكراً بزي الفقراء لتسرق مني تلك الطفلة ياسارق الاطفال

نعم انك أخذتها مني بالاحتيال بعد ان أعطيتني ألفاً وخمسمائة فرنك — وبعد ان كنت أرجو أن أعيش منها كل حياتي

ثم جريت فى أثرك حتى أدركتك فى الغابة وأردت استرجاع الطفلة وارجاع المال ولكنك كنت أقوى مني فيا ليت لي

أما الآن فقد اختلف الامر وأصبحت القوة فى جانبي فماذا تقول

قال انى لا أفهم شيئاً مما تقوله فما أنا من أصحاب الملايين بل انى أكاد أكون فقيراً وما انا ذلك الرجل الذي تصفه فانك واهم بي والوجوه تتشابه

قال كلا بل انك عارف بالحقيقة كما أعرفها . . ألا تذكرني . ألا ترى من أنا

قال أرى انك من شر اللصوص

قال نعم وانكم معشر الاغنياء لا تعرفون أن تلقبونا بغير هذه الالقاب .

نعم انى أفلست وانى اختبىء متنكراً وانى لا أملك درهما وليس لى خبز منذ ثلاثة أيام فما على بعد ذلك اذا كنت من اللصوص

انى اذا سرقت فانما أسرق لاعيش وأما أنت فما عذرك بسرقة الاطفال . . انى جندى فرنساوي قديم حضرت معركة واترلو وأنقذت جنرالا لا أذكر اسمه فقد ذكر لى اسمه وهو فى أشد حالات الضعف فما نسيته ولو كنت أذكره لذهبت اليه ولما نزلت الى هذا الحضيض

أما هذه الصورة التى عرضتها عليك فقلت أنها مما يعلق فى الحانات أتعلم ماذا تمثل . . أنها تمثلني أحمل ذلك الجنرال الجريح على ظهري وأخرج به من مواقف القتال

ولم يكافئني هذا الجنرال بشيء بعد ان خاطرت من أجله بحياتى وصنت حياته فكان كسائر الناس

أما وقد أخبرتك الآن بجلية أمرى فلنصل الى الغاية فاعلم أنى محتاج الى المال الكثير فتعطينى ما أشاء أو تغدو من الهالكين فماذا تقول

وكان لبلان يراقب منـذ هنيهة حركات تنارديه فلما قال له قوله الاخير ضرب المائدة برجله ووثب بخفة الغلمان الى النافذة وتدلى منها

ولكنه قبل أن يلقي بنفسه قبضت عليه ستة أياد قوية وأرجعته الى الغرفة

وكانت امرأة تنارديه قابضة على شعره فلم تتركه حتى أمرها زوجها

أما ماريوس فقد رأى أن الكيل بلغ حده ولم يطق الصبر على ما رآه فأخذ الغدارة بيده يحاول اطلاقها وهو يقول

ألتمس منك العفو يا أبي

وقد همّ باطلاقها ولكنه سمع تنارديه يقول

لا تسيئوا اليه

فامتنع عن اطلاقها الى أن يرى ما يكون

وجرى عراك طويل بين لبلان واللصوص فدافع عن نفسه دفاع الابطال الى أن تغلبوا عليه فأمرهم تنارديه بتقييده ثم أمرهم أن يبتعدوا عنه فامتثلوا فدنا منه فقال

لقد أخطأت يا سيدي بمحاولتك الوثوب من النافذة فانها مرتفعة كثيراً عن الارض وفي ذلك خطر شديد عليك

والآن لنتحدث بسكينة اذا أردت ولا بد لي من ملاحظة أبديها وهي أنك لم تستغث ولم تصح صيحة الى الآن وهو ما يدل على رجاحة عقلك لانك تعلم يقيناً أننا اتخذنا كل ما يجب اتخاذه

من أسباب الاحتياط فلم يبق فائدة من الاستغاثة

وبعد فانك لم تمتنع عن الصياح الا لغرض ظاهر لدي وهو أنك اذا استغثت فماذا يكون ؟ يكون أن رجال البوليس يأتون فيسوقوننا بجملتنا سوق الاغنام الى السجن وليس بعد السجن غير المحاكمة وليس بعد المحاكمة غير الافتضاح

ويظهر أنه لا يوافقك أن يطلع البوليس على حقيقة أمرك وكذلك نحن فلنتفق فان الاتفاق ميسورا اذا أردت

ولقد أخطأت اليك والى نفسي باستعمال العنف فان الاتفاق السلمي أضمن للعاقبة

على أني أخطأت أيضاً بأن طلبت اليك كثيراً من المال فانك قد تكون من أصحاب الملايين ولكنك من الذين اشتهروا بالاحسان ولديك كثير من المطالب تقتضي الكثير من النفقات فلا أريد خرابك واقنع بالقليل فهل تريد يا سيدي أن تعطينا مائتي ألف فرنك فقط

فلم يجبه لبلان بكلمة ومضى تناردييه بحديثه فقال ١

لا أظن أني طمعت كثيراً ياسيدي فاني لا أعلم مقدار ثروتك ولكني أعلم أنك كثير الخير لا تكترث للمال فلا يسؤك أن تحسن الى رجل مثلي بهذا القدر اليسير وتجعله من السعداء

ومتى أعطيتني هذا المبلغ أطلقت سراحك في الحال فلا يتعرض لك أحد بسوء بعد الآن

ولقد تقول أن هذا المبلغ العظيم ليس مما يحمل فى الجيوب وأنت من الصادقين

أما أنا فلست من أهل الالحاح فاكتفى بأن تكتب بخطك ما أمليه عليك

وقد جاء بورق كان اعده فوضعه أمامه على المائدة وقال له

تفضل يا سيدي واكتب

قال كيف تريد أن أكتب وأنا مقيد اليدين

قال لقد أصبت وسأحل قيد يدك اليمنى

ثم حل وثاق يده اليمنى وقال له

يجب أن تعلم يا سيدي أنك الآن تحت مطلق سلطاننا وأنه لا يوجد قوة بشرية تستطيع انقاذك منا

وأني لا أعرف اسمك ولا عنوانك ولكن لابد لك أن تعلم يقيناً أننا لا نطلق سراحك قبل أن يرد الينا جواب الرسالة التي ستكتبها والآن تفضل بالكتابة

— ماذا أكتب

— ما أمليه عليك

فأخذ القلم وأملى عليه تارديه ما يأتي

« يا ابنتي العزيزة

« احضري حالا فاني في أشد الحاجة اليك .. ان الرجل الذي «يحمل اليك هذه الرسالة قد عهدت اليه أن يأتي بك فاحضري

« معه فى الحال دون خوف »

فلما كتب ما أملاه عليه قال له

والآن تفضل بالتوقيع على هذه الرسالة

فوضع لبلان القلم وقال لمن هذه الرسالة

قال للصغيرة .. لابنتك فوقع عليها باسمك . .

فأخذ القلم وأمضى الرسالة باسم اربان فابر

قال والآن تفضل بكتابة العنوان على الغلاف

فكتب على الغلاف هذا العنوان

« الى مدموازيل فابر في منزل ارباز فابر . .

لشارع سانت دومنيك نمرة ١٧

فأخذ تناردييه الرسالة ويداه تضطربان فدفعها الى امرأته وقال لها

يوجد مركبة واقفة عند الباب فسيري بها الى صاحبة هذا العنوان وعودي بها في نفس المركبة

ثم قال لاحد رجاله وأنت فاذهب وتعلق وراء المركبة. وأنت أيتها الزوجة المباركة احذري أن تضيع منك الرسالة واعلمي أن لنا منها مائتي ألف فرنك

قالت لا تخف

وخرجت مع الرجل فنظر تناردييه من النافذة فرآها ركبت المركبة وسارت بها تنهب الارض فعاد الى لبلان وقال له

لا تسأم يا سيدي فانه لا يمضي نصف ساعة حتى تعود

والآن لم يبق لنا ما نقوله فسمح لي أن أجلس بجانب المستوقد كي أتدفأ

وساد السكوت على الجميع ولبث ماريوس في موقفه وهو يقول في نفسه

انها ستحضر وسأسفك دمي في سبيل انقادها مع أبيها من هؤلاء اللصوص .

وبعد نصف ساعة عاد تنارديه الى الحديث وعاد ماريوس الى الاصغاء فقال

لقد قلت لك ياسيدي لا تسأم فلا بد أن تكون امرأتي الآن في الطريق ولا بد لابنتك أن تأتي معها بعد أن تقرأ رسالتك

والآن فاعلم ان امرأتي ستصحبها الى مكان معين مع الرجل الذي رأيته وهناك تخرج ابنتك من المركبة مع الرجل إلى مركبة أخرى تنتظرها فيذهب بها وتعود امرأتي فتخبرنا ان الامر قد تم

أما ابنتك فلا خوف عليها فانها ستكون في محل أمين وتبقى أسيرة فيه الى أن نقبض المائتي الف فرنك فردها اليك

وانما أخبرك بكل ذلك لتعلم اننا اتخذنا كل أسباب الاحتياط فلو أتفق انك اردت شكايتنا فنحن نخسر المال ولكنك تخسر ابنتك

وعلى ذلك فانه حين تعود امرأتى وتخبرنا بان أمر ابنتك قد تم نطلق سراحك كى تأتينا بالمائتى الف فرنك فتنام فى منزلك آمنا مستريحا وكل هذا يدلك على حسن نياتنا

لخفق قلب ماريوس حين سمع ما قاله تارديه وأيقن ان ذلك اللص سيذهب بابنة لبلان الى مكان لايعلمه بدلا من أن يأتى بها الى هنا كما كان يرجوه

خطر له أن يطلق الغدارة ويسلم هؤلاء اللصوص الى البوليس.. ولكنه اذا فعل ماذا يكون فان التى يحبها تبقى مع ذلك اللص

وقد قال تارديه لابيها انك اذا شكوتنا تخسر المال ولكنك تخسر ابنتك

فامتنع عن اطلاق الغدارة ليس حرصاً على حياة تنارديه عملا بوصية أبيه بل لخوفه على التى يحبها

وقد ساد السكوت هنيهة ثم سمع صوت فتح الباب الخارجي فقال تارديه هوذا امرأتي قد عادت

وبعد هنيهة دخلت المرأة غضبى فنظرت نظرة منكرة ملؤها الحقد الى لبلان وقالت لزوجها

لقد عبث بك هذا الرجل فان العنوان كاذب

ودخل فى أثرها الرجل الذى صحبها فقال نفس قولها وأخذ مطرقة من الحديد تاهباً لما سيكون

وعادت المرأة الى الحديث فقالت

لقـد سألت فى شارع سانت دومينيك نمرة ١٧ عن اريان غاربر فلم يوجد من يعرفه هناك

وانه قد عبث بك وهزأ بلحيتك كما يهزأون بالاطفـال ولو كنت فى مكانك لقطعت يده التى كتب بها تلك الرسالة الـكاذبة تأديباً له

وعندى انه لم يبق عليك الآن الا أن تشويه على النار حتي يقول أين هي ستة

ولقد صدق من قال ان الرجال أضعف عقولا من النساء وكفى هزء هذا الابله بك برهاناً على صدق ماأقول

فتنهد ماريوس تنهدالارتياح لنجاة حبيبته من الخطر والتفت تناردييه الى لبلان وقال له

ما الذى كنت ترجوه من الـكذب

قال انى أردت أن أطيل الزمن

ثم تمطى في قيوده وقطعها وأسرع الى المستوقد قبـل أن يدركه اللصوص فأخذ منه قطعة الحديد المحميه

فتراجع اللصوص عنه وقد رأوا فى يده تلك الحديدة تتوهج ثم ثابوا الى رشدهم فقال واحد منهم يخاطب تناردييه

لاتخف فان رجله لاتزال مقيـدة فى السرير وأنا الضمين بانه لايستطيع الافلات

أما لبلان فانه قال لهم بلهجة ملؤها البساله

أيها الاشقياء ان حياتي لاتسوى عناء الدفاع عنها ولولا ذلك لما أبقيت منكم حياً

أما ماحسبتموه من أن التعذيب يدعوني الى قول مالا أريد قوله فهو وهم وضلال واليكم البرهان

ثم كشف عن ساعده وقال انظروا

وعند ذلك وضع تلك الحديدة المحمية التي كان يمسكها بطرفها الخشبي على لحم ساعده فتصاعدت رائحة لحمه المحترق وتراجع ماريوس مذعوراً من هول مارأى

ثم نظر الى تناردييه نظرة اشفاق وقال له

أتحسب اني أخاف تعذيبك أيها الرجل وقد رأيت ما كان مني انكم لو قطعتموني اربا لما قلت لكم الا الذي أريد أن أقوله

وقد رمى الحديدة التي انطفأت على ساعده من النافذة التي كانت مفتوحة وقال

اصنعوا بي الآن ماأنتم صانعون

فلما رأى تناردييه أنه ألقى الحديدة صاح برفاقه قائلا قيدوه

ثم قال لامرأته بصوت سمعه ماريوس

لم يبق علينا الا أن نقطعه كما تقولين

ثم فتح درج المائدة وأخرج سكيناً هائلة تجمد الدم في عروق

ماريوس وجعل ينظر الى ماحواليه نظرة القانطين

وكانت أشعة القمر قد مدت الى غرفته وأنارتها كنور النهار فارتعش ماريوس اذ رأى ورقة على منصدته مكتوبا عليها بحروف كبيرة

« احذروا البوليس »

وهى تلك الجملة التى كتبتها عنده ابنة تارديه حين أرادت أن تظهر له انها تعرف الكتابة

فأسرع الى هذه الورقة وقد خطر له خاطر غريب ينقذ به تارديه ولئلا. معاً فطواها وعاد الى موقفه فالقاها من النافذة الى الغرفة التي كان فيها اللصوص

فصاحت امرأة تارديه قائلة

ماهذا الذى سقط

وأسرعت فتناولت الورقة

فقال لها زوجها ماهذا

وأخذ منها الورقة فقال لها من أين سقطت

قالت من النافذة

ففتحها مسرعا ودنا بها من النور فقال

هذا خط ابنتى ايبونين

ثم قرأها مسرعا وقال أسرعوا وعلقوا السلم ولنهرب

فقالت المرأة اهرب قبل أن نقتل هذا الرجل

قال ان الوقت لايتسع لنا فأسرعوا

قالوا من أين نهرب

قال من النافذة الكبرى فما زالت ابنتى ألقت الينا الورقة فان المنزل مطوق

فعلقوا السلم فى النافذة وأراد امرأة تناردييه ان تبدأ بالنزول مع زوجها فاستوقفهما اللصوص وقالوا

كلا بل انكما تهربان بعدنا

فقال تناردييه ماهذا الاعتراض فسيداهمنا الجنود

قالوا اذن نقترع فمن اصابته القرعة هرب

قال لعلكم جننتم فان الاقتراع يقتضى له أن نكتب أسماءنا وان نضعها فى قبعة وان...

ففتح الباب عند ذلك وتراجع اللصوص منذعرين اذ رأوا رجلا يقول لهم أتريدون قبعتى

وكان هذا الرجل المفتش جافرت

***

كان جافرت عند هبوط الليل قد جاء برجاله وكمن بهم وراء أشجار غصة كان يرى من خلالها منزل تناردييه

وقد علم ان بنتيه واقفتان فى موقف الرقيب فأراد أن يبدأ بالقبض عليهما فقبض على الصغرى وأما الكبرى فلم يجدها فى موقعها

ثم وقف مع رجاله ينتظر ان يسمع صوت غدارة ماريوس حسب الاتفاق

ولكن ماريوس لم يفعل فسأم الانتظار وكان قد رأى اللصوص دخلوا الى المنزل فعزم على أن يدخل اليه ويباغت اللصوص به قبل أن يسمع صوت الغدارة

ويذكر القراء ان ماريوس كان قد أعطاه مفتاح المنزل فذهب اليه مع جنوده ودخل اليه حين وجوب دخوله أي حين كان تنارديه يحاول تقطيع أعضاء لبلان لحمله على الاقرار

أما اللصوص فقد ذعروا حين رأوا هذا المفتش الهائل فأسرعوا الى الآلات التي كانوا تركوها حين رموا على الاقرار وتسلحوا بها ووقف أولئك السبعة في موقف الدفاع وتسلح تنارديه بقطعة من الرخام وجدها بجانب المستوقد

أما جافرت فانه لبس قبعته وقال لهم

انكم لا تخرجون من النافذة بل من الباب وأنوفكم مرغمة فانكم سبعة ونحن خمسة عشر وانكم عزل ونحن مسلحون وانكم تخافون أن تقتلونا ونحن نكافأ اذا قتلناكم

فأخرج أحد اللصوص غدارة من تحت ثوبه ودنا من تنارديه فقال له

هذا هو جافرت واني أخاف أن أطلق عليه الغدارة فهل تجسر أنت على اطلاقها عليه

قال نعم أحسنر
قال إذن خذ الغدارة فاذا قتلته تفرق عنا الجنود
فأخذها تنارديه وصوبها الى جافرت
وكان جافرت على قيد ثلاث خطوات منه فحدق به وقال له بملء السكينة
لا تفعل فانك ستخطئني
فاطلق تنارديه فأخطأه كما قال
وعند ذلك قال له جافرت بلهجة الساخر
ألم أقل لك انك ستخطئني
والقى أحد اللصوص مطرقته على الارض وقال
اني رضيت بالتسليم إذ لا شك انك رئيس الابالسة ولكني ألتمس ملتمساً واحداً وهو أن لا تمنعوا عني التبغ
قال طب نفساً فلا نمنعه عنك
ورضى الآخرون بالتسليم فأمر الجنود أن يقيدوا أيديهم
وقد سلموا جميعهم ماخلا تنارديه وامرأته فانه تسلح برخامة هائلة ورمي بها جافرت حين دنا منه
ولكن جافرت حاد عنها وهجم عليه فقبض على عنقه وعلى عنق امرأته وأسرع الجنود فكبلوهما بالقيود والمرأة تصيح باكية وتذكر بنتيها
فقال لها جافرت انهما فى السجن فاطمئني

وقد جلس وراء المنضدة وبدأ يكتب تقريره ثم قال لجنوده

فكوا الاسير وائتونى به لاستنطقه

فجعل الجنود ينظر بعضهم الى بعض اذ لم يروا ذلك الاسير

فصاح جافرت قائلا

أين هو ألعلكم قيدتموه مع اللصوص

قالوا كلا ولكننا لا نعلم كيف ذهب

ذلك ان الموسيو لبلان أو اربان فابر او والد القنبرة قد توارى عن الانظار فان الجنود كانوا واقفين عند الباب يحرسونه ولكن النافذة كانت مفتوحة فاغتنم فرصة اشتغال الجنود بتقييد اللصوص فنطع قيد رجله واتسل الى تلك النافذة فنزل على السلم الذى كان معلق فيها

وقد خطر لجافرت انه هرب على هذا الشكل فدنا من النافذة فرأى السلم لا يزال يرتج فأطل منها فلم يجد أحداً فاكتفى باولئك اللصوص وجاء بمركبات فنقلتهم الى السجن

***

كان ماريوس قد رأى كل ماجرى حين قبض جافرت على اللصوص فلم يكد يذهب بهم فى المركبات الى السجن حتى خرج هو أيضاً من المنزل وكانت الساعة قد بلغت التاسعة من المساء

وقد ذهب الى صديق له فقال له اني سأبيت الليلة عندك فاخذ فراشاً من سريره اذ كان له فراشان فبسطه على الارض ونام

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى عاد إلى منزله فنقد المرأة أجرة غرفته وأخذ أمتعته وغادر ذلك المنزل دون أن يخبرها بعنوانه الجديد

فلما جاء جافرت فى ذلك اليوم ليسأله عن حوادث الليلة الماضية قيل له انه أخذ أمتعته وانصرف

وقد كان ماريوس غادر هذا المنزل لسببين أحدهما انه أنف من الاقامة فيه بعد ماحدث

والثاني انه كره أن يدعوه الى الشهادة فيضطر أن يشهد على تارديه بما رآه وهو منقذ أبيه

أما جافرت فقد توهم ان ماريوس هرب من ذلك المنزل لخوفه من اللصوص وانه لم يقف على شيء مما جرى

ومع ذلك فقد بحث عنه بحثاً دقيقاً فلم يجده

ومضى على ذلك شهر ثم شهران وماريوس لا يزال عند صديقه وقد علم من صديق له من المحامين أن تارديه فى السجن فكان يرسل اليه فى كل أسبوع خمسة فرنكات

ولم يكن لديه مايزيد على نفقاته فكان يستدين من صديقه مايرسله الى تارديه فى كل أسبوع

على انه كان حزين القلب ساهي الطرف يريد أن ينسى تلك الفتاة التى ملكت شغافه فتتمثل له بكل مخيل ولا سبيل اليها اذ لم يكن يعلم أين تقيم

وقد أصبح ميالا الى العزلة منقطعاً الى التفكير لا يزور أحداً من أصحابه حتي ولا ذلك الشيخ ملبوف الذى كان أول من أطلعه على شأن أبيه

أما ملبوف هذا فقد كان من الموسرين ثم انقطعت موارده فبات من الفقراء

فبينما هو ذات يوم فى حديقته يفكر فى أمره سمع صوتاً رقيقاً يقول له

أتريد ياسيدى ملبوف أن أتولى عنك ري هذه الحديقة

ثم رددتها حتى اذا فرغت قال لها

ليباركك الله فانك تشبهين الملائكة لانك تحبين الزهور

قالت بل انى من الشياطين

قال يسؤنى ياابنتى انى لا أستطيع أن أعطيك شيئاً

قالت بل انك تستطيع أن تنفعنى اذا أردت

— ماذا

— بان تخبرنى أين يقيم المسيو ماريوس

— أي ماريوس هذا

— هو فتى جميل كان يزورك أحيانا

— نعم نعم لقد ذكرته فهو البارون ماريوس بونمرسى . انه يقيم . . أين . . كلا ياابنتى لا أعلم أين يقيم . . ولكنى أذكر أنه يمر فى شارع كلوربارب فاذهبى الى هذا الشارع فقد تجدينه هنالك

فشكرته الفتاة وتركته وانصرفت

وبعد يومين بينما كان ماريوس ماراً بذلك الشارع الذي ذكره الشيخ سمع صوت فتاة تقول

هذا هو . . هذا هو

فالتفت فرأى ابنة تارديه أيبونين اذ بات يعرف اسمها الآن وقد وجدها كما عرفها من قبل أى حافيــة القدمين تلبس أطماراً بالية وعلائم اليأس بادية فى وجهها النحيل

أما أيبونين فاقتربت منه وقد اتقدت عيناها بشارق من السرور حين رأته فقالت

لقد لقيتك أخيراً وكان الموسيو ميلوف مصيباً بقوله انى أجدك فى هذا الشارع . آه لو تعلم كم بحثت عنك فقد سجنت أسبوعين ثم أطلقوا سراحى اذ لم يجدوا منى ماريب ولانى لم أبلغ بعد سن الرشاد وأنا أبحث عنك منذ ستة أسابيع . ألعلك تركت ذلك المنزل

قال نعم

قالت لقد أصبت . . وبعد فلماذا تلبس هذه القبعة القديمة فان من كان مثلك من الفتيان يجب ان يتأنق فى لباســه . . أتعلم ياسيدى ان الموسيو ملبوف يدعوك باروناً . اذ هذا اللقب لا يلقب به غير الشيوخ فقد حملت مرة رسالة الى بارون فوجدت أنه يبلغ مائة عام من العمر والآن قل لى أين تقيم

فلم يجبها بشيء

قالت انك شديد الكآبة فهل كان ذلك لانك ترانى على أنى اذا أردت عادت اليك البشاشة بالرغم عنك

قال ماذا تعنين

— عدنى انك تضحك فاني أحب أن أراك ضاحكا وبعد أن تعدنى انك تنيلنى كل ما أريد

— نعم ولكن تكلمى

فحدثته به وقالت

لقد عرفت العنوان

فاصفر وجهه وقال

أى عنوان

— العنوان الذى طلبت الي أن أبحث عنه أى عنوان المدموازيل

وقد قالت هذا القول وتنهدت تنهداً عميقاً

أما ماريوس فانه أخذ يدها بين يديه وقال لها

اهدى لى . . ارشدينى . . انى أعطيك كل ماتريدين ولست من الذين ينكثون . . قولى أين تقيم

— تعال معى فاني لاأعرف اسم الشارع ولا نمرة المنزل ولكنى أعرف فتعال معى

ثم تنهدت أيضاً وقالت

أرأيت كيف أعدت البشاشة اليك

فمرت غمامة كثيفة على مخيلة ماريوس فقبض على ذراعها وقال لها

أريد أن تقسمي لي يميناً

—أية يمين

—أريد أن تقسمي لي أن لاتخبري أباك بهذا العنوان يا أيبونين

—أيبونين . . كيف عرفت اني أدعى بهذا الاسم

— عدني عما قلته لك

—يسرني انك عرفت اسمي

فقبض على يديها وقال لها

ولكن بحق السماء اصغي الي واقسمي لي أنك لاتطلعين أباك على هذا العنوان

— اطمئن فان أبي سجين وقد لايخرج من سجنه وبعد فهل اهتم بأبي الآن

— ولكنك لم تقسمي ولم تعديني بشيء

فضحكت ضحكا عالياً وقالت

لقد وأجعتني تقبضك على ساعدي فاطمئن فاني أقسم لك أن لاأبوح لاي بشيء

— ولا لاحد سواه

— والآن هلمي بنا

— الآن

— نعم الآن

— تعال . . رباه كم فرحه هذا النبأ

وقد مشت بضع خطوات ثم وقفت وقالت

أرى انه خير لك ان تتمشى على قيد بضع خطوات اذ لا يجمل عن كان مثلك ان يصحب من تكون مثلي

وقد أسرعت خطاها قبل أن تسمع جوابه حتى ابتعدت عنه قليلا ثم وقفت

فأدركها ماريوس وقال لها

لماذ وقفت

قالت أتذكر ماوعدتني به

— ماذا وعدتك

— وعدتني أنك تعطيني كل ماأردت

فمد ماريوس يده الى جيبه ولم يكن يملك غير الريال الذي استدانه من صديقه ليرسله الى أبيها فأخرجه من جيبه ووضعه في يد أيبونين

اما هي فانها فتحت يدها ودعت الريال يسقط على الارض ثم نظرت اليه نظرة المؤنب وقالت

انى لاأريد منك مالا ياسيدى ماريوس

***

في أواسط القرن الماضي بنى أحد رؤساء البرلمان في باريس منزلا في شارع بليميت كي يخفي فيه خليلته فقد كانت العادة في ذلك العهد إن مثل هذا التهتك لا يجوز الا للاشراف

وقد بنى هـذا المنزل فى وسط حديقة تشرف على الشارع وراءه أرضا تشرف على شارع بيباون وبنى فيها بيتاً صغيراً لتقيم فيه مرضع طفل عند الاقتضاء فكان يأتى إلى حليلته من ذلك الشارع فمن اقتفى أثره يحسب أنه دخل إلى شارع بيباون والحقيقة أنه يكون فى شارع ليممت

ففى شهر (اكتوبر)تشرين أول سـنة١٨٢٩ أى بعد عهد هذا لرئيس باربعين عاما

جاء رجل كهل فاستأجر هـذا المنزل مع المنزل الآخر المشرف على شارع بيباون فأصلحه وأقام فيه مع صبية حسناء فلم تتناوله ألسنة الجيران لسبب واحد وهو أنه لم يكن هناك جيران

أما هذا الكهل فقد كان جان فالجان وأما الصبية فهي غوسيت وكان يصحبهما خادمة تدعى توسان وهى عجوز من الريف أخرجها جان من المستشفى الذى كانت فيه

فاستأجر المنزل باسم فوشلفان وقد عرف القراء دون شك أن هذا الرجل الذى عرفه تناردييه والذى كان تارة يدعى لبلان وتارة اربر لم يكن غير جان فالجان

ويذكر القراء أنه كان مقيما مع غوسيت فى دير بيكميس وانه كان سعيدا أحيه فما الذى دعاه الى الخروج من ذلك النعيم

ذلك أنه منذ بات ترى نته الصادقة لم يعد ينظر إلى نفسه فى شأن من شؤون ال نظر لى سواه فكان يرى غوسيت كل يوم

تسمو فى ذلك الدير نمو الزهر فى الاكام ويقول فى نفسه انها باتت لى فلا يحول بينى وبينها حائل ولا يفرق بيننا قوة فى الوجود وأنها ستغدو من راهبات الدير وانى أبقى معها فى بستانه حتى أموت فيحسب أنه بات بعد ذلك أسعد انسان فى الوجود

ولكنه كان يناجى نفسه أيضاً فيقول

لاريب انى أعيش سعيداً و هـذا الدير مازالت غوسيت شبابي وما زلت آمنا شرور الناس ولـكن هل تكون غوسيت سعيدة مثلى وان هذا الدير الذي أعده من فراديس الجنان الا يكون سجنا أبدياً لها وهل يروق لهـا أن تقضي الحياة فى هذا السجن .

وبعد أفلا أكون سارقاً اذ أحرمتها من ملذات الوجود فى سجنها بدير كي أكون آمنا على حياتى وأية أنانية أعظم من هذه ثم أيحمل بى اذ أدخلها فى سلك الرهبنة دون أن أستشيرها فأكون قد قضيت عليها بسجن أبدى الا يكون بعد ذلك انهامتى شعرت انلاخلاص لها من هذا القيدتكرهني لاني كنت السبب فيه وهى قد تكون طامحة إلى غير هذا العيش

وقد تمكن منه هذا الخاطر حتىإنه عول على مغادرة الدير واذ ذلك واجب مقدس لا بد له من قضائه فاذا أرادت بعـد بلوغها مبالغ الشباب والادراك أن تنتظم في سلك الرهبات فذلك عائد اليها ولا أكون أرغمتها عليه فى سبيل صيانة نفسي

وكانت غوسيت قد أقامت في ذلك الدير خمسة أعوام وأتمت دروسها الاولية فأقام ينتظر فرصة صالحة تمكنه من مبارحة الدير إلى أن جاءت تلك الفرصة بوفاة الشيخ فوشلفان

وكانت الرئيسة تعتقد أنه اخوه فالتمس مقابلتها واخبرها أنه ورث من أخيه ارثا يمكنه من العيش بقية أيامه دون عمل وانه ليس من العدل أن تقيم غوسيت خمسة أعوام في الدير دون مقابل فالتمس منها أن تقبل منه خمسة آلاف فرنك أجرة تعليمها فقبلت منه المال وبرح الدير مع غوسيت وهو مطمئن القلب لاعتقاده أنه عمل ما تقضي عليه به الواجبات

وقد وفق الى استئجار هذا المنزل الذي وصفناه باسم أيلتيم فوشلفان وهو الاسم الذي كانوا يدعونه به حين كان في الدير

ثم انه استأجر أيضا منزلين آخرين في باريس كي لا يستلفت الانظار اليه بقائه زمناً طويلا في زمن واحد فكان يتنقل في هذه المنازل كل ما آنس ريبة أوخامره شك فكان تارة يقيم في شارع الوحل المسلح وتارة في شارع الغرب فتقيم شهراً أوشهرين مع غوسيت ويبقى الخادمة في المنزل القديم وإنما كان يفعل كل ذلك لخوفه من البوليس فانه هارب من سجن طولون ولا ترحم الحكومة من يهربون

وكانت الحكومة قد أحصت النفوس في ذلك العهد وكان نظامها يقضي يومئذ على كل من يعيش من ريع أمواله أن يكون من الحرس الوطني

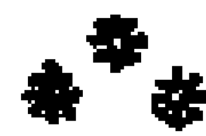
واذا لم يكن لجان مهنة فقد تقيد اسمه بين أسماء أصحاب الايراد وبات من الحرس الوطني فكان يلبس ثوب الحرس أربعاً أو خمس مرات في العام فكان هذا الثوب شبه تنكر له

وكان قد بلغ الستين من العمر وهو العمر الذي يعفي من الخدمة العسكرية الوطنية

ولكن هيأته تدل على أنه لم يتجاوز الخمسين وهو لا يستطيع أن يظهر أوراقه الدالة على حقيقة عمره حذراً من أن يفتضح باظهارها فأخفى اسمه وكتم عمره وأصبح من الحرس الوطني وهو مرتاح الى ذلك كل الارتياح

ولم يكن يدخل الى منزله الا من شارع بابيلون وكذلك غوسيت وتوسان بحيث لا يعلم أحد انه مقيم في هذا المنزل الا اذا رأوه في حديقته من الشارع

وفوق ذلك فقد ترك تلك الحديقة على حالها لم يغرسها وترك العشب الوحشي ينمو فيها كي لا يستلفت الانظار ولا يعلم الناس ان المنزل ماهول



كانت غوسيت حين خروجها من الدير قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها وهي قد أتمت علومها في ذلك الدير أي انها درست كل مايتعلمونه فيه وهو أصول الدين وتاريخ الكنيسة والجغرافيا

والنحو وتاريخ ملوك فرنسا وشيء من الموسيقى

ولكنها لم تكن تعلم شيئاً من أسرار الوجود وهو خطأ محض اذ لا بد من تعليم الفتاة بالتدريج ذلك العلم الذى يؤهلها لان تكون امرأة فلا أشد خطراً على العذارى من الجهل

فلما تركت الدير وأقامت فى ذلك المنزل وجدت فيه من الوحشة والاسر نفس ما كانت تجده فى ديرها

غير أنها كانت تتعزى بسجنها الجديد أنها كانت ترى الناس والفتيان يمرون بالشوارع فتراهم من الحديقة

ثم أنها كانت تحب أباها أى جان فالجان حبا عظيما وكان جان مولعاً بالمطالعات حتى انه بات من العارفين فكان يصحبها أيان ذهب ويجلس واياها في الحدائق فيحدثها ويكشف لها كل ماخفى عنها فيزيل عن نفسها تلك الغشاوة المظلمة

ولم تكن تفارق غرفته حين يكونان فى المنزل وكانت تؤنبه أحيانا فتقول له

انى أشعر حين أكون عندك ببرد شديد فلماذا لا تضع سجادة فى غرفتك ومستوقداً فتأمن شر البرد

فيبتسم لها ويقول

يوجد ملايين من البشر يا ابنتى خيراً مني وهم يفترشون الارض ويلتحفون بالسماء

— اذن لماذا فرشت غرفتى أجمل فرش ووضعت مستوقداً فيها

— لانك فتاة ياابنتى

— أيجب أن يتعذب الرجال بالبرد وشظف العيش

— بعض الرجال لا كلهم

— اذن سآتي اليك كل يوم واحتمل ماتعانيه من البرد حتى تصلح غرفتك

ثم انك لاتأكل من مأكلنا ولا تأكل غير الخبز الاسود فلماذا هذا التقشف الذى يضنيك

— لانى يا ابنتى ...

— اذن سأقتدى بك وأعيش كما تعيش

فكان يضطر الى مجاراتها فى ما أرادت حذراً من أن يجاريه فى مالا يريد ولم تكن تذكر شيئاً من ايام حداثتها الا شيئاً قليلا مما انطبع على ذاكرتها من حوادث مدام تناردييه وعنفها ولاسيما تلك الليلة الهائلة التى ارسلتها فيها لجلب الماء من النبع فى الغابه

ولم يكن جان قد ذكر لها شيئاً من أمر امها ولاندرى أكان ذلك من قبيل الاحترام لتلك المنكودة التى ماتت بعد ان تابت توبتها الصادقة أم أنه كان يخشى أن تنصرف حنوها الى تلك الام التى لا تعرفها

وعلى الجملة فقد كان جان معها سعيداً ويعتقد ان هذه السعادة ستدوم مدى الحياة ثم يغبط نفسه لهذه النعمة التى لا يستحقها فيحمد الله

***

وقد اتفق يوماً لعوسيت أنها نظرت الى وجهها في المرآة فذهلت إذ أنها رأت انها حسناء

وذلك أنها طالما سمعت في الدير من الراهبات ومن أترابها أنها قبيحة فرسخ فى ذهنها أنها شمعاء

ولكنها رأت نفسها اليوم أنها على غير ما كن يعتقدن بها ثم أنها كانت ترى الفتيان ينظرون اليها حين تكون مع أبيها نظرات لم تألفها من قبل فكثر من ذلك العهد تطلعها إلى المرآة وبدأت تتأنق فى ملابسها وأخذ جسمها بالنمو فكان كل ذلك مدعاة الى زيادة جمالها وفى ذلك العهد رآها ماريوس ورأته فى حدائق ليكسمبورج

وكانت قد وجدت منه نفس ما وجد منها فكانت تلح على أبيها بالذهاب إلى ليكسمبرج وهى لا تريد من ذلك غير الرجاء بان ترى ذلك الفتى فانها كانت ترتاح الى نظراته ارتياحاً لا تعلم له سبباً وهى لا تعلم لجهلها إذا كان ذلك محموداً يجب الاسترسال فيه أو مذموماً يجب الاقلاع عنه

وعلى الجملة فقد أحبته وهي لا تعلم شيئاً من معاني الحب فلو قال لها قائل أنك لا تنامين وهذا مصر وانك لا تأكلين وهذا يضني وان قلبك ينبض بعنف وهذا مخطر وان وجهك يحمر ثم يصفر حين ترين فلاناً فى حدائق ليسكمبرج وهذا لا يجدر بالفتيات . أنه لو قال لها قائل هذا القول لعجبت منه وقالت

أى ذنب لى فى كل هذا فانى لا أستطيع الامتناع عن شىء مما تقولون

وهذا كان شأن ماريوس أيضاً فقد كان كل منهما يحب صاحبه وقد نفذ ذلك الحب بغتة إلى قلبيهما فملأه كما تنفذ الشمس الى الاناء الفارغ فتملأه شعاعاً

ولبثت ترى كل يوم ماريوس فى الحدائق ويراها الى ان خطر لماريوس أن يعرف منزلها وتبعها مع أبيها وسأله البواب عنهما كما تقدم

وفى اليوم التالى عرف جان من البواب ما كان منه فادرك قصد الفتى من السؤال وذهب من فوره مع غوسيت إلى المنزل الكائن فى شارع بليميت وانقطع عن الذهاب الى ليكسمبرج

أما غوسيت فانها لم تقل كلمة ولم تسأل أباها عن سبب انقطاعه عن الذهاب إلى تلك الحديقة

كل ذلك وجان يراقبها أتم المراقبة حتى اطمأن قلبه وايقن أنه كان واهما فى ظنونه فقال لغوسيت يوماً

أتذهبين الى حدائق ليكسمبرج

فاتقدت عيناها ببارق الرجاء وقالت نعم

وقد ذهبا ولكنها لم تجد ماريوس فقد كان مضى ثلاثة أشهر على انقطاعهما عن الحديقة فلما سألها فى اليوم التالى اذا كانت تريد الذهاب الى ليكسمبرج

أجابته كلا

ولكن علائم الكآبة والميل الى العزلة بدأت تظهر عليها فاجفل جان مما كان يراه وكان يقيم ساعات فى غرفته وهو يفكر في سبب هذه الكآبة فلا يهتدى

وقد كان يسألها أحياناً قائلا

مالى أراك كئيبة

فتجيبه مبتسمة أنك واهم يا أبى

ثم تسأله هى قائلة ما هذا الانقباض الذى يتولاك

فيبتسم ويقول أنك واهمة يا ابنتى

وقد طال بهما عهد هذه الكآبة ولم يكن يعزيهما غير توزيع الصدقات على الفقراء

وفي ذلك العهد اتفقت زيارتهما التنارديه وكان ما كان فى تلك الليلة الهائلة التى يذكرها القراء فعاد جان الى منزله بعد ان هرب من النافذة وهو مصاب بجرح أليم فى ذراعه الايسر من تلك الحديدة الحامية التى كواه بها

وقد كان لهذا الجرح تأثير عظيم عليه حتى أنه أصيب بحمى شديدة لزمته شهراً

وكان يأبى أن يأتوه بطبيب فلم تكن غوسيت تفارقه لحظة وهي تقرأ له الجرائد والكتب المختلفة فعاد اليه هناؤه القديم ونسي ليكسمبرج وذلك الفتى الذي كان يرود حول منزله بل نسى كآبة

غوسيت فانها كانت تتكلف البشاشة حتى أنه بات يقول فى نفسه ان كل ما خطر لي لم يكن الا من قبيل الاوهام

حتى انه لم يعد يكترث لحافرت فقد قال فى نفسه

انه لم يرني وقد تمكنت من الفرار فلا ابالي بما بقي

ولكنه كان يشفق على اولئك اللصوص وأخصهم تنارديه لوثوقه أنهم ارسلوا الى سجن طولون فيقول

ترى ماذا يكون مصير هذه العائلة المنكودة

***

لقد قلنا كلمة فى أحد الفصول المتقدمة عن غلام يدعى كافروش وفاتنا أن نقول أن هذا الغلام هو ابن تنارديه

ولكن أباه قد طرده وأمه لم تكن تحبه فعاش مع غلمان الازقة وهو أطيبهم قلباً والينهم جانباً

وقد اتفق ليلة أنه لم يكن لديه مايتقوت به وذكر أنه لم يأكل منذ الصباح فانطلق يسعى باحثاً عن عشاء

وقد توغل فى الاماكن الخالية من الناس فان السرقة هناك تكاد تكون مامونة العاقبة

وما زال يسير باحثاً عن طعامه كالنسر يحوم باحثاً عن فريسة حتى انتهى الى حديقة قديمة تحيط بمنزل لايقيم فيه غير رجل شيخ وامرأة عجوز

وكان يوجد فى هذه الحديقة شجرة تفاح قرب السور وهو من القضبان الحديديه ففحص ذلك السور ونظر الى تلك الشجرة

فارتأى أن يقنع بأن يكون عشاؤه من التفاح فان هذه التفاحة التي أهلكت آدم وأخرجته من الجنة ستحييه وتنقذه من ألم الجوع

وكان بجانب تلك الحديقة رواق ضيق مقفر كثرت فيه الادغال فمشى كافروش الى الحديقة حيث كانت التفاحة ونظر الى ماحواليه فلم يجد أحداً من الناس وكان السور سهل المرتقى فتسلقه

وفيماهو يتسلق سمع محادثة على مقربة منه فتوقف عن الصعود ونظر فرأى شيخاً جالساً على حجر وامرأة عجوزاً واقفة تحدثه فاصغى الى حديثهما فسمعها تقول

أن صاحب المنزل غير راض ياмسيو مالبوف

فسألها الشيخ قائلا لماذا

— لانك مدين له بثلاثة أقساط

— بعد شهر تصير الاقساط أربعة

— ولكنه يقول أنه يخرجنا من المنزل

— وأنا أقول انى أمتثل

— وبائع الحطب يطلب حسابه فبماذا تتدفأ

— بحرارة الشمس

— وبائع اللحم يقول أنه لايستطيع أن يعطينا شيئاً بعد الان

— اذن نستغنى عن اللحم فانه ثقيل على المعدة

— وماذا نأكل

— نأكل خبزاً

— وكذلك القران فانه يقول اذ لم نعطه نقوداً لايعطينا خبزاً

— ليفعل مايشاء

— وماذا نأكل

— تبقى لنا التفاحة

— ولكن لايمكن العيش من غير مال

— لاسبيل لى اليه

فيأست المحور منه وانصرفت وبقي الشيخ مطرقا يتفكر وكذلك كافروش

وكان الليل قد هبط فبينما كان كافروش يفتكر سمع وقع حطوات في الشوارع فالتفت فرأى على نور الشفق رجلا كهلا يسير وفي أثره لص عرفه لاول وهلة انه مونتبارناس

وقد احتمأ كي لا يرياه وجعل يراقبهما اذ بات واثقاً من أن مونتبارناس يتبع هذا الرجل الكهل فشعر بعاطفة اشفاق عليه لان هذا اللص كان من مشاهير أهل الشر

وكان قد خطر له أن ينجد الكهل ولكنه مالبث ان رجع عن هذا الخاطر اذ وازن بين قوته وبين قوة اللص فايقن انه لاسبيل له الى نجدته لضعفه

ولم يلبث اللص ان أدرك الكهل وهو لاه عنه بتفكيره وباغته بصدمة عنيفة لم يكن يتوقعها فسقط الكهل على الارض وأسرع اللص فوضع ركبته فوق صدره

ومن عجيب مارآه ان ذلك الكهل لم يصح صيحة ولم يقل كلمة ولكن الاعجب من ذلك انه لم تكن غير هنيهة حتى رأى ذلك الكهل قد حمل اللص بين يديه كما يحملون الاطفال وقذف به ثم نهض واللص لايزال على الارض فقال له

انهض

فنهض اللص وقبض عليه الكهل فوقف أمامه ذليلا فقال له الكهل كم يبلغ عمرك أيها الفتى

قال عشرون عاما

— انك شديد القوى وعلى أتم عافية فلماذا لاتشتغل

— لاني أضجر من الشغل

— ما هى صناعتك

— كما رأيت

— قل الجد فاني أستطيع أن أفيدك فماذا تريد أن تكون

— اريد أن أكون لصاً

فأطرق الكهل مفكراً وهو لايزال قابضاً عليه فكان اللص يحاول الافلات منه فلا يستطيع

وأخذ الكهل ينصحه النصائح المختلفة وهو لا يكترث له حتى إذا فرغ من نصائحه قال له

انك كنت تطمع بكيسي أليس كذلك

قال هو ذاك

قال خذه فهو لك

ثم تركه وقد قنط من اصلاحه وانصرف

وقد عرف القراء دون شك ان هذا الكهل كان جان فالجان فقد أنسوا من هذه القوة وهذا الكرم

اما كافروش فانه ظل يراقب اللص فلما رأى الكهل انصرف ورأى اللص قد وضع الكيس في جيب سترته من الوراء تبعه دون أن يراه حتى وصل اليه فسرق الكيس من جيبه دون أن يشعر به وعاد مسرعا الي الحديقة فأخذ الكيس ورماه من فوق الحديد بين قدمي ملبوف

وكان الشيخ قد غفا على مقعده الحجرى فسمع صوت وقوع الكيس بين قدميه فأخذه ورأى انه محشو بالنقود فلم يبحث من أين أتى بل فتحه فوجد فيه ست ليرات ذهبية وبعض النقود الفضية فأخذه الى خادمته العجوز وقال لها

خذى هذا الكيس فقد هبط الينا من السماء

***

كان جان فالجان يسافر أحيانا فيغيب عن المنزل يومين أو ثلاثة دون أن يعلم أحد إلى أين يذهب حتى غوسيت

ولكنها كانت تلاحظ أنه لا يسافر هذه الاسفار إلا حين لا يبقى لديه نقود

وقد سافر هذه المدة وقال لها انه سيغيب ثلاثة أيام

فلما أقبل الليل أخذت غوسيت تتلهى بالعزف على البيانو

حتى إذا فرغت جلست مطرقة تفكر ولم تكن تفتكر حين تخلو إلى نفسها الامباريوس

فبينما هى على ذلك سمعت وقع خطوات فى الحديقة فذهلت فى البدء إذ لايمكن أن تكون خطوات أبيهـا فانه مسافر ولا خطوات الخادمة فان الساعة بلغت العاشرة وهى نائمة

وقد قامت إلى الشباك ونظرت من خلال الزجاج فخيل لها انها رأت رجلا يمشى الهوينا،

فأسرعت إلى غرفتها لان نوافذها تشرف على الحديقة أكثر من أشراف القاعة التى كانت فيها وأطلت من النافذة والقمر بدر ينير كنور الفجر فلم تجد أحداً فأطلقت نظرها إلى الشارع فما رأت بشراً وأصغت علها تسمع وقع خطوات فلم تسمع شيئاً فقالت فى نفسها

لاشك ان الخوف اسمعنى تلك الخطوات وأرانى ذلك الرجل وعادت إلى مجلسها ولم تفتكر بتلك الحادثة

وفى اليوم التالى خرجت إلى الحديقة تتنزه وقد بزغ القمر وخرجت من بين الادغال كى تذهب الى المكان التى تعودت أن تتنزه فيه . تخيل لها إنها سمعت وقع خطوات وانها رأت خيال رجل يلبس قبعة مستديرة وهو يسير وراءها

جمدت فى مكانها من الرعب ولبثت هنيهة لا تستطيع أن تتكلم ولا تستغيث ولا تتحرك ولا تلتفت

ثم تشددت والتفتت فلم تجد أحداً فلأ الرعب قلبها وقالت في نفسها

هبني توهمت أمس فهل يتفق أن أتوهم مرتين وقد رأيت الخيال بعيني ورأيت القبعة المستديرة على رأسه

وفي اليوم التالي عاد جان فالجان فأخبرته بما اتفق لها فاضطرب قلبه وشغل باله وخرج إلى الحديقة فرأته يفحص أقفال الباب

وفي الليلة نفسها صحت من رقادها ولم يبق لديها مجال للشك فانها سمعت وقع خطوات تحت نافذة غرفتها فأسرعت اليها ففتحتها ورأت رجلا واقفاً وبيده عصا

وعند ذلك حاولت أن تصيح مستغيثة ولكنها قبل أن تفعل رأت على نور القمر ان هذا الرجل كان أباها

وقد أقام جان في الحديقة كل تلك الليلة ولبث ليلتين يسهر فيها كل الليل وغوسيت تراه من النافذة

وفي الليلة الثالثة بينما كانت غوسيت نائمة سمعت صوتاً يناديها من الحديقة ففتحت النافذة فرأت أباها يضحك ضحكا عاليا ويقول

لقد أيقظتك خصيصاً لتطمأني فانظري إلى الخيال ذي القبعة المستديرة الذي كنت ترينه

فنظرت إلى العشب حيث دلها أبوها فرأت خيالا يشبه خيال رجل يلبس قبعة وكان ذلك خيال أنبوبة المستوقد

فجعلت تضحك أيضاً وزالت منها تلك الهواجس ولكنها

لما خلت إلى نفسها عاد اليها الريب فقالت

هبني واهمة فى الخيال أأكون واهمة بسماع الخطوات

***

وبعد هذه الحادثة ببضعة أيام حدثت حادثة أخرى وذلك انه كان يوجد فى الحديقة مقعد حجرى تخفيه الاشجار عن المارين بالشارع

وكانت غوسيت تجلس عليه عادة فاتفق فى ليلة أن جان فالجان خرج حسب عادته فنزلت غوسيت إلى الحديقة بعد غياب الشمس وجلست على ذلك المقعد هنيهة ثم قامت فتوغلت فى الحديقة وعادت إلى مقعدها

فلما جلست عليه رأت بجانبها حجراً كبيراً لم تكن قد رأته من قبل فخافت خوفاً شديداً اذ ايقنت انه لابد من يد وضعت ذلك الحجر على المقعد منذ حين قريب

وهنا لم يبق مجال للشك فانها لاترى خيالا يمكن أن يكون خيال ابوية ولا تسمع خطوات يمثلها الوهم بل إنها ترى حجراً يلمس باليد ويرى بالعين

وقد ذعرت ذعراً شديدا فأسرعت إلى غرفتها وأقفلت نوافذها ونادت الخادمة فسألتها اذا كان أبوها قد أتى فقالت كلا فقالت اقفلى الابواب كلها وضعى وراء كل باب رتاجه الحديدى حين يأتى أبى تفتح له

وكانت هذه الخادمة شديدة الخوف فقالت لها

— لقد أحسنت ياسيدتي فان الحذر لابد منه فى هذا الشارع المقفر لا سيما وان أباك يتأخر ويبيت أحيانا خارج المنزل فلو هاجمنا اللصوص لقطعونا أربا ولا يسمع صياحنا أحد

قالت كفى واقفلى الابواب والنوافذ

وقد نامت تلك الليلة وهى تحلم ان هذا الحجر قد استحال الى جمل وأن هذا الجمل قد وقع على صدرها

وفى الصباح نهضت من رقادها وقد أعادت اليها جرأتها أشعة الشمس فلبست ملابسها وخرجت الى الحديقة فسارت توا الى الحجر فوجدته لايزال فى موضعه

وقد دنت منه ورفعته فوجدت تحته غلافاً ضخما حشوه الاوراق فأخرجت مافيه دفتراً عثرت صفحاته وعليه كتابة بخط جميل

وكان الدفتر مؤلفاً من عدة صفحات كلها مكتوبة فبحثت فى آخرها علها تجد توقيعاً فلم تجد فاعادت النظر الى الغلاف فلم تجد عنواناً فقالت فى نفسها

لابد أن يكون هذا الكتاب لى بدليل وضعه على المقعد الذى تعودت الجلوس عليه فمن عسى الذى يكون أرسله

وقد أخذته وسارت به الى مكان خفي بين الاشجار ففتحته وجعلت تقرأه واليك ما كان مكتوبا فيه

قلب تحت حجر

الحب هو تحية الملائكة للكواكب

ما أشد حزن النفس حين يحزنها الحب

ان الله لم يخلق الوجود الا للنفس وما خلق النفس الا للحب

انه يكفي الروح ابتسامة من فم جميل حتى تنتقل الى عالم الاحلام، ان الله من وراء كل شيء في الوجود ولكن كل ما في الوجود يخفيه عن الانظار فمن أحب كائناً بات شفافاً فرأى من خلاله وجه الله

ان العاشقين اذا افترقا يرى كل منهما صاحبه مهما بالغوا بالتفريق بينهما فاذا غاب عن عينيك من تحب فان كل جارحة منك تراه في كل معنى لطيف فيبدو لك في نغمة الناي الرخيم وفى مسارح الغزلان ومساقط انداء الغمام ومساحب اذيال النسيم وعطر الازهار وتغريد الاطيار وابتسام الطفل ونور الشمس وكل ما ابتدعه الله للحب وما الربيع الا رسالة اكتبها الى من أحب

ان الحب شرارة مقدسة ونفحة روحية وكذلك النفس فهما صنوان لا يفترقان وهو شرارة لا تقوى قوة في الوجود على اخمادها فهي تلتهب حتى توشك أن تحرق القلب وتشرق حتى تتوهج بها السماء

ما أسعد العاشقين يتناجيان فان الله نفسه لا يستطيع أن يزيد

تلك السعادة بل يستطيع أن يعد فى أيامها

انك تنظر الى النجم لسببين أحـدهما لمعانه وثانيها دق سره ولـكنك ترى أمامك نوراً أرق من نور النجم وسراً أدق من سره وهو المرأة

ان الحب حين يحل في قلبين طاهرين يدركان به سر الحياة الذى دق على الافـكار فيصبحان غايتي قدر واحد وحماحي حمامة واحدة فيطيران ويتحابان

ان مايبدأ به الحب لايتمه الا الله

لايقنع المحب بحال فاذا نال الهناء طمع بالفردوس واذا ناله طمح الى العرش فياأيها المحبون ان الهناء والجنان والعرش كائنون فى الحب

ألعلها تذهب الى ليكسمبرج — كلا ياسيدى — انها تصلى في هذه الكنيسة أليس كذلك — انها لاتأتى اليها — ألا تزال مقيمة فى هذا المنزل — كلا فقد برحته — أين تقيم — لا أعلم

ما أشقى المحب الذى يضيع روحه ولا يعلم أين يجدها

انت يامن شقى فى هذا الوجود لانه يحب . حب بل تمادي فى الحب فان من مات فى الحب عاش

***

وقد كان الدفتر مملوءاً بمثل هذه الفقرات فـكانت غوسيت تقرأها وهى خافقة القلب

ثم أخذت تتمعن فى تلك الكتابة فرأتها مكتوبة بأجمل خط وقد أشرق فى قلبها نور غريب لما قرأتها فقد تلقت فى الدير أموراً كثيرة عن النفس ولكنها لم تتلق في مدرسة الايام شيئاً عن الحب فاوقفها هذا الدفتر على كثير من الدقائق كالحزن والقدر والحياة والازلية والبداية والنهاية كانما يداً فتحت وألقت عليها فجأة قبصة من النور

وقد جعلت تسأل نفسها فتقول

ألا ترى من هذا الذى كتب الي هذه الرسالة ألا هو

وكان فرحها عظيما فانه هو الذى كتب الرسالة وهو الذى دخل إلى الحديقة موضعها تحت الحجر وهو الذى يحبها هذا الحب العجيب بعد ان كادت تعتقد انه نسيها . نعم لاشك انه هو كاتبها فقد كنت اقرأ فى عينيه مااقرأه الآن فى كتابه

ثم قامت وعادت إلى غرفتها فاقفلت بابها من الداخل وجعلت تعيد تلاوة تلك السطور حتى اذا حفظتها خبأت الدفتر فى صدرها بعد ان وعته فى قلبها وقضت كل ذلك اليوم وهي مشردة البال لاتعلم أفى حلم كانت أم فى يقظة

ولما أقبل المساء خرج جان فالجان من المنزل على عادته فقامت غوسيت الى مرآتها فمشطت شعرها على آخر طرز ولبست أفخر ما عندها من الثياب وبالغت بالتأنق وهي لاتعلم له سبباً فانها لم تكن تريد الخروج من المنزل ولم تكن تتوقع أن يزورها أحد

ولما فرغت من ذلك كان الليل قد أقبل فنزلت الى الحديقة وذهبت الى مقعدها فجلست عليـه بجانب ذلك الحجر الذي كان لايزال فى موضعه فوضعت يدها فوقه كأنها تريد أن تشكره

وفيما هى على ذلك سمعت صوت تردد اقدام من ورائها فالتفتت ثم وقفت اذ كان هو

وقد رأته واقفاً وقبعته في يده وهو أصفر الوجـه هزيل مرتد بثوب اسود لم تكد تميز لونه فشعرت أنها ستسقط على الارض وجعلت ترجع ببطىء مقاومة لتلك القوة الخفية التى كانت تجذبها اليـه حتى استندت الى شجرة ولولم تجـدها لوقعت لما تولاها من الاضطراب

وعنـد ذلك سمعت صوته الرقيق التى لم تكن قد سمعته من قبل يصل اليها كالانغام الموسيقيه من بين الاوراق فقال

أسألك العفو عن جرأتى لوجودى هنا فقد طفح قلبي ودفعنى اليك كما يدفع البحار السفينة فهـل قرأت ماوضعته لك هنا على هذا المقعد . . هل عرفتني . . لاتخشي منى . . ألا تذكرين ذلك اليوم الذى نظرت الي فيـه تلك النظرة التى سحرتنى وذهبت بصوابى فقد كان ذلك في ليكسمبرج

أتذكرين ذلك اليوم الذى مررت فيه بجانبى . . لقـد كان ذلك في السادس عشر من شهر حزيران (يونيو)وهو تاريخ لاانساه مدى الحياة لانطباعه على صفحات قلبي

ولم أعد أراك بعده فسألت عنك التي تؤجر الكراسي فقالت انك لم تعودي

وكنت تقيمين في شارع الغرب في الدور الثالث تجاه بيت جديد أرأيت أني أعرف أين كنت تقيمين

وقد قيل لي يوما وأنا أقرأ جريدة انك مررت فأسرعت راكضاً في أثرك فوجدت فتاة تلبس قبعة كقبعتك

وكنت في الليل آتي الى هنا . . لا تخشي فلم يرني أحد . وقد أتيت لارى نوافذ غرفتك وكنت أمشي مشياً وئيداً كي لا تسمعي وقع خطواتي ولا أخيفك

وقد كنت أول أمس وراءك فلما شعرت بوقع خطواتي اختبأت فلم تريني . وسمعتك مرة تغنين فكنت أسعد انسان فهل أسأت اليك بسماعي غناءك من وراء النافذة

انك الهواء الذى أتنشقه والروح التى أعيش بها فائذني لي أن آتي الى هنا قليلا

آه لو تعلمين انى لا أحبك حباً بل أعبدك عبادة واغفرى لي فاني لا أعلم ما أقول ... لقد استأت مني وقد أزعجتك أليس كذلك

فتنهدت غوسيت تنهداً عميقاً وقالت

يا أماه

وقد تراخت اعضاؤها ووهت ركبتاها ورأى ماريوس أنها

لم تعد تستطيع الوقوف فأسرع اليها فضمها الى صدره بعنف وهو لا يعلم ماذا يصنع

أما هي فانها أخذت يده فوضعتها على قلبها وشعر ان الدفتر هناك

فقال لها أتحبينني اذن

فأجابته بصوت خافت لم يكد يتبينه

اسكت فأنت تعلم

وقد خبأت رأسها في صدره وهي شبه سكرى فأجلسها على المقعد وجلس بجانبها وهما لا يجدان قولا يقولانه فيتكلمان بلغة العيون

وكانت الكواكب قد بدأت تلمع في السماء فلم يعلما كيف تلاقت الشفاه وارتعش كلاهما لهذه القبلة وجعل كل منهما ينظر الى صاحبه نظرات تنبعث منها أشعة حب لا توصف فلم يشعرا ببرد الليل ورطوبة الحجر وتساقط الأنداء فكانت يده في يدها دون أن تمد تلك اليد ولم تسأله كيف دخل الى الحديقة وكيف يجالسها اذ كان يبدو لها ذلك الآن انه من أبسط الامور

وكانت تكلمه من حين الى حين فتقول له أقوالا متقطعة تضطرب ألفاظها في فمها كما تضطرب نقطة الطل حين تسقط على الزهرة

ثم انطلق لسانه ولسانها تباعا فباح كل بما كان يجده وتعاهدا على الحب الى الابد

حتى اذا أبرما تلك المعاهدة وختماها بقبلة قال لها

انى أدعى ماريوس فماذا تدعين

قالت غوسيت

***

منذ سنة ١٨٢٣ أى عندما كان تارديه وامرأته يديران فندقهما في مونتفرميل وقد أخذا يهبطان الى مهاوى الافلاس كان لهما ثلاثة أبناء غير البنتين

وقد رأت امرأة تارديه ان هذا القدر كثير فتخلصت من من الولدين الصغيرين فان هذه المرأة لم تكن اما الا مع بنتيها وهناك ينتهي حنوها ومبدأ حقدها على الجنس البشرى من أولادها الذكور فانها كرهت ابنها الكبير حتى طردته من المنزل وبات من غلمان الارقة كما رأينا وكرهت ولديها الصغيرين حتى أنها تخلصت منهما كما سترى

ولنذكر الآن كيف تخلصت من الولدين وكيف استفادت من ذلك

يذكر القراء أن جد ماريوس كان عنده خادمة وان هذه الخادمة جاءته مرة بطفل ولدته ثم جاءته بعد عام بطفل آخر مدعية انهما ولداه فارسل الولدين الى امرأة فى الريف تربيهما وعين لها ثمانين فرنكا فى الشهر

وكانت هذه المرأة مقيمة فى مونتفرميل فاتفق فى ذلك العهد حدوث وباء تفشى فى القرية ومات به الطفلان

وكانت هذه المرأة تدعي مانيون فكبر عليها وفاة الطفلين لانها خسرت بموتهما ثمانين فرنكا وباتت فى حاجة الى الطفلين ليسدان مسدهما فلا ينقطع عنها الراتب

وقد عرفت امرأة تارديه حقيقة أمرها لانها كانت جارتها وكان لولديها الصغيرين من العمر نفس ما للولدين الفقيدين فاتفقت معها على أن تعطيها ولديها مقابل عشر فرنكات تقبضها منها فى كل شهر بحيث يبقى للمرأة سبعين فرنكا مما تقبضه من جلنمارد

وقد أخذت المرأة ابنتي تارديه وذهبت بهما الى باريس ولم يبق لتارديه غير بنتيه وولده كافروش

ولما سلمت امرأة تارديه وعادت الى المنزل قالت لزوجها وهي تتكلف اظهار الندم

ألا ترى أننا أخطأنا بتخلينا عن الولدين

قال أي خطأ هذا فان جاك جان روسو على فضله المعروف كان يفعل باولاده شبه ما فعلنا

قالت ولكني أخاف أن يقف البوليس على أمرنا فهل يجوز لنا شرعاً أن نفعل ما فعلناه

قال كل أمر جائز وفوق ذلك فان الطفل متى كان فقيراً لا يبحث عنه أحد

أما المرأة التى ذهبت بالطفلين فقد استأجرت منزلا في باريس كانت تؤجر غرفة فكانت تقيم عندها امرأة انكليزية من شهيرات

اللصوص يدعونها مدموازيل ميس وكان ابنا تنارديه عندها على خير حال بالقياس الى ما كانا يلقيانه عند امهما من الشظف والجوع

ومضى على ذلك بضعة أعوام الى ان حدث حادث قضى على هذين الطفلين ان يكونا من غلمان الارقة فقد صدر أمر الحكومة بالقبض على جميع أهل الشبهات

وكان من جملة الذين قبض عليهم مدموازيل ميس الانكليزية ومربية الطفلين وجميع الذين كانوا يقيمون فى ذلك المنزل

أما الطفلان فقد كانا يلعبان وراء المنزل فلم يعلما شيئاً مما جرى فلما عادا وجدا الباب مقفلا ولا أحد فى المنزل

وقد ناداهما صاحب دكان تجاه المنزل فقال لهما ان منزلكما قد انتقل فخذا هذه الورقة المكتوب فيها اسم المنزل الجديد واذهبا الى هذا الشارع الذي على اليسار وهناك تسألان عن العنوان المكتوب فى هذه الورقة

وكانت المرأة قد كتبت على هذه الورقة عنوان الرجل الذى كان يعطيها فى كل شهر ثمانين فرنكا واعطتها الى صاحب الدكان كي يعطيها للولدين حين عودتهما

فأخذها أكبرهما سناً ومشى ويده بيد أخيه وكان الهواء زمهريراً وقد هبط الظلام فطار الورقة من يده ولم يستطع ايجادها فجعل يسير مع أخيه هائمين في الشوارع وهما لايعلمان أين يذهبان

كان كافروش يسير فى تلك الليلة متجولا فى الشوارع حسب

عادته وقد وقف عند مخزن بائع ثياب ينظر من وراء الزجاج الى الملابس المعروضة ويوازن بينها وبين ثيابه فتارة ينقبض وتارة يبتسم

وبينما هو على ذلك كان الغلامان أى ولدا تاردية أى أخواه يسيران فى ذلك الشارع

وكان عمر اكبرهما تسع سنوات وعمر الاصغر أربع وقد وصلا الى دكان حلاق وهما ينتفضان من البرد ورأيا ناراً تتوهج في الدكان فدخلا اليها

وقد التفت الحلاق فرآهما قد ركعا بجانب النار وهجم عليهما هجوم الضواري فطرد الواحد بيده ورفس الآخر برجله فخرجا من الدكان وهما يبكيان

وكان ذلك الدكان بجوار مخزن الملابس فرآهما كاروش وأسرع اليهما وسألهما قائلا

مابالكما تبكيان

فقال أكبرهما لاننا لانعلم أين ننام

قال أتبكيان لهذا الامر اليسير اتبعاني

فانقطعا عن البكاء وتبعاه

ولكن كاروش لم يرق فى عينيه مافعله ذلك الحلاق فعاد اليه وقال له

لاتقفل دكانك قبل ان اعود اليك

فنظر الحلاق اليه شذراً وقال له

لمادا

قال لاعود بجرس اربطه الى دنبك فانك لست من البشر

ثم تركه وانصرف يتبعه الغلامان فرأى امرأة تحمل مكنسة وهي تجرها على الارض فقال لها

ما أجمل هذا الجواد الذين تركبينه

واتفق عند ذلك ان داس على نعل أحد المارة وكان قد صنعه حديثاً فغضب الرجل وانتهره فقال له

ألعلك استأت فمن تشكو

قال أشكو منك أيها القبيح

قال عدا الي غدا فقد أقفلت المكتب ولا أسمع شكاوى الآن

ثم سار بالغلامين فلقى فتاة ترتعد من البرد وهى لاتلبس غير قميص رفيع فأخذ وشاحه وألقاه على كتفيها وانصرف قبل أن يدع لها وقتاً لشكره وهو يقول

انى أشــد كرما من القديس مارتين فهو أعطى الفقير نصف وشاحه اما أنا فوهبته بجملته

وعند ذلك عصفت الرياح وسقط المطر فالتفت فرأى الفتاة قد حلت الوشاح بيدها وسارت به مسرعة الى جهة سوق الدلالين فضحك وقال

بشرط أن لاتبيعه برأس ماله كما بعته أنا

وبعد هنيهة وصل الى دكان بائع خبز فأخرج قطعة من النقود فدفعها اليه وقال له

اعطنا رغيفا بعد ان تقسمه ثلاثة أقسام فانا ثلاثة كما ترى

فأعطاه فدفع قطعتين الى الولدين وأكل قطعة

ثم سار بهما الى جهة الباستيل وهناك لقيه فتى فصاح قائلا أهذا أنت يا كافروش

قال ماتصنع هنا ياмونتبارناس فقد عرفتك بالرغم عن تنكرك الذى لا يعرفه سواى

وكان هو نفس اللص الذى حاول في تلك الليلة ان يسلب جان فالجان فأخذ منه الكيس وسلبه منه كافروش فأعطاه الى الشيخ ملبوف كما تقدم

فقال له مونتبارناس لا تذكر اسمى كى لا يسمعك الرقباء أتعلم الى أين أنا ذاهب الآن

قال الى الكنيسة دون شك

فضحك اللص وقال كلا بل انى ذاهب للقاء بابيت

قال لقد كنت أظنه سجينا

قال هو ذاك ولكنه تمكن من الفرار

وقد أخذ يقص عليه تفصيل فراره وبيده عصا استلفتت أنظار كافروش فلما أتم حكايته سأله قائلا

ماهذه العصا التى تحملها

قال انها من المخترعات الحديثة فهي حربة لاعصا وقد اضطررت الليلة الى التسلح بها فلا أدري مايكون فقد اتفق لي حادثة في تلك الليلة لو كان معي سلاح لخرجت منها ظافراً كما أشاء

ماذا حدث

— حدث اني لقيت رجلا كهلا فصرعته ثم صرعني ثم أراد أن يؤدبني بنصحه ثم وهبني كيسه فلو كان سلاحي معي لما أخذت ذلك الكيس على سبيل الهبة ولما تجاسر على أن يسدى الى تلك النصائح . أتدرى بماذا كان ينصحني

— بماذا

— بان أشتغل

— لاشك أنه من المجانين أو انه سفيه يستحق التأديب

— وليس هذا كل شيء

— ماذا حدث أيضاً

— حدث انى وضعت الكيس في جيبي ثم افتقدته بعد هنيهة فلم أجده

— ألم يكن أحد فى الطريق

— كلا

— اذن لاشك ان صاحبك من السحرة فقد أعطاك الكيس بيد وأخذه بيد

— كفي فاني لاأذكر هذه الحادثة حتى يضيع رشادى

— لقد أصبت فلا أبكى على السارق من أن يسرق

— وأنت الى أين تذهب الآن

— انى ذاهب بهذين الولدين ليناما

— أين

— فى قصرى

— أبات لك غرفة الآن تبيت فيها

— هو ذاك

— أين

— فى جوف الفيل

— فى جوف الفيل ؟

— نعم وعلى ما الاندهال

— لقد ذكرت الآن فهل أنت مرتاح بالاقامة فيه

— دون شك اذ لا أنهب على تلك الرياح الباردة التى كانت ترهقنى حين أبيت تحت الجسر

— كيف تدخل اليه

— أدخل

— ألعل فيه ثقباً تدخل منه

— بل أنا ثقبته بين ساقيه ثقباً خفى عن الجواسيس فلا تذكر ذلك امام أحد من أصحابنا

— ولكن من أين أتيت بهذين الطفلين

— أنهما هدية أهداها الى أحد الحلاقين

فأطرق اللص مفكراً وقطع كاروش خيط تصوره فقال له والآن استودعك الله فانى ذاهب الى الفيل فاذا احتجت الى فى الليل فانك تعلم أين أقيم . واعلم أنه لايوجد بواب هناك وانى أقيم فى الدور الاسفل فما عليك الا أن تناديني باسمى

وقد افترقا فذهب اللص في سبيله وسار كاروش مع الولدين فى الطريق المؤدية الى الفيل

كان هذا الفيل تمثالا عظيما بنى فى عهد نابليون من الحجارة فصار أثراً تاريخياً ولم يعرف قصد نابليون من بناء هذا الاثر على هذا الشكل

فكان يبلغ ارتفاعه أربعين قدما وعلى ظهره برج يشبه المنازل وقد كان لونه حين بنائه أخضر فأصبح اليوم أسود من المطر وتقادم العهد وهو كائن تجاه الباستيل كانه يراد به تمثيل قوة الشعب

وكان السياح يزورونه من قبل ثم انقطعوا عنه لعدم العناية به فبات مأوى لامثال كاروش

وقد وصل كاروش اليه وكان يوجد على الارض سلم يستخدمه العمال فى معمل مجاور فوضعه عند الثقب ثم أشار إلى الغلامين أن يصعدا فصعدا وصعد فى أثرهما ودخلوا جميعهم من الثقب وعند ذلك أخذ قطعة كبيرة من الخشب كان جاء بها من الخارج يوم اكتشف هذا المأوى فسد بها الثقب من الداخل

وكان الظلام حالكا لخاف الغلامان فانتهرهما كافروش وقال لهما أتحسبان إني مقيم فى قصر التويلرى وأية حاجة لكما بالنور وانتما عازمان على الرقاد

وقد رأى الغلام الكبير شباكا مسدودا بشريط من الحديد فسأله قائلا ماهذا

قال هذا للجرذان

وكان قد لف كل منهما بحصير وقاية لهما من البرد وبعد هنيهة جزع الصغير لما سمعه من صوت الجرذان فقال ياسيدى

قال ماذ

قال ماهذا الصوت

قال لاتخف فهو صوت الجرذان

— لماذا لاتضع عندك هرة

— لقد كان عندى هرة ولكنها أكلتها

فاشتد خوف الصغير وسكت ولكنه عاد الى الحديث فقال ياسيدى

— ماذا

— من الذى كان مأكولا

— الهرة

— من الذى أكلها

— الجرذان

— ألا تأكلنا هذه الجرذان

— لا تخف فانها لا تستطيع الدخول اليكما وبعد فاني هنا فامسك يدي ونم

فاطمأن الولد وغفل ونام كاموروش نوماً هادئاً الى الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل

وعند ذلك سمع صوتاً يناديه من بين أرجل الفيل فصحا وعلم أنه صوت مونتتارناس ففتح باب الثقب وناداه فقال له اللص تعال فاننا في حاجة اليك

قال اني قادم

وقد أسرع من فوره بالنزول اليه وسار الاثنان في شارع سانت انطوان

***

وكان الغرض من الاستعانة بكاموروش ان تيناردييه ورجال عصابته قد وجدوا طريقة للفرار كانوا يستعدون لها منذ شهر

وهي أن أحد زملائهم الذي كان خارج السجن تمكن من أن يأتيهم ببعض زجاجات من الخمر دس فيها مادة مخدرة بحبل طويل

وكانت خطتهم أن يسقوا الحراس من تلك الخمر ثم يصعدو الى سطح السجن فيعلقون الحبل وينزلون منه بينما يكون زملاؤهم واقفين تحت بالمرصاد تماما يخدرون الحارس الذي يروح حول السجن

واما يقبضون عليه ويأمنون صياحه

وقد نجحت خطتهم فانهم كانوا مسجونين في قاعة متسعة لانوافذ فيها ولا سبيل لهم الى الخروج من باب السجن لوجود الحراس فتمكنوا من تخدير حارس الغرفة وصعدوا جميعهم الى السطح فربطوا الحبل بحجر بارز عند حافته وجعلوا ينزلون عليه الواحد بعد الآخر ومورنتبارناس واقف تحت موقف الرقيب يصحبه كافروش وسواه من رجال العصابة

وكانوا قد اقترعوا على من يكون الاسبق في النزول فكان دور تارديه آخر الكل

وقد اتفق أن الحبل انقطع باللص الذي كان دوره قبل دور تارديه فسقط الى الارض مهشما لانه انقطع به على ارتفاع عشرة أمتار

وعند ذلك صاح تارديه صيحة يأس ووقف اللصوص حائرين لا يعلمون ما يصنعون

الى أن خطر لكافروش خاطر فقال لهم

ان الحبل قد انقطع ولكن ربطه ميسور

قالوا كيف ذلك

قال ألا ترون هذا الميزاب الممتد من الارض الى السطح

قالوا بلى

قال وان الحبل لايبعد عنه أكثر من دراع

قالوا ماذا تعنى

قال أعني أن أتسلق هذا الميزاب وبيدى قطعة الحبل فاربطها بالطرف الآخر

قالوا انها خير طريقة ولكن هل تستطيع التسلق على هذا الميزاب

قال سوف ترون

ثم خلع نعليه وأخذ طرف الحبل الذى سقط على الارض باسنانه وتسلق على الميزاب غير مكترث للاخطار الى أن وصل الى حيث انقطع الحبل فربط الطرفين ربطا محكما ونزل

وبعد ذلك تدلى تارديه وكان كافروش قد رآه وهو على السطح وعرف أنه أبوه فلم يثنه حقده عليه عن انقاذه

وبعد هنيهة كان تارديه بين رفاقه فقال واحد منهم

لنقل كلمتنا الاخيرة قبل أن نفترق فقد اكتشفنا على منزل منزل فى شارع بليميت ليس فيه غير النساء

فقال تارديه أنذهب اليه الليلة

قالوا كلا غداً

أما كافروش فقد كان مشتغلا عنهم بلبس نعليه ووقف هنيهة على رجاء أن ينظر أبوه اليه

ولكنه لم يفعل فقال لمونتبارناس

انه لم يبق لكم حاجة بى وأنا عائد لايقاظ الولدين

ثم ودعه وانصرف

فلما توارى عن انظار العصابة قال أحد رجالها لتارديه

أعرفت هذا الغلام

قال أى غلام

قال الذى انقذك وربط الحبل

قال لم أره جلياً

قال انه ولدك

فضحك تارديه وقال ان هذا الشبل من ذاك الاسد

***

كان ماريوس يأتى فى كل ليلة الى الحديقة فيجلس مع غوسيت على ذلك المقعد

وقد باتت تحبه حتى لا تصبر ساعة على فراقه وبات يحبها حتى أصبحت حياته موصولة بها فكان حبهما طاهراً شريفاً خاليا من كل وصمة ولم يرجوا فيه مزيداً لانه لم يكن يقبل المزيد

وقد اتفق ليلة أن إيبونين ابنة تارديه تبعته حتى رأته دخل الى الحديقة فوقفت فى الشارع وهى لاتعلم لماذا تبعته بل لا تعلم أى غرض لها من الوقوف

وقد رأته كيف دخل فانه فرق بين القضبان الحديدية وهو نحيل الجسم فدخل من منفرجاتها

فلما دخل نظرت إلى ذلك الحديد فرأت فيه أثر الالتواء

فخشيت أن يمر والد الفتاة فيرى ذلك الأثر فاصلحته

ثم عادت الى الوقوف وهي لا تدري ماذا تصنع

وفيما هي على ذلك رأت ستة رجال قادمين وهم يسيرون مفترقين يبتعد كل منهم بضع خطوات عن رفيقه

فلما وصل الاول الى الحديقة وقف ثم جاء الثاني فوقف بجانبه وهلم جرا إلى أن اجتمع الستة عند الحديقة وجعلوا يتحدثون باصوات منخفضة

فقال أحدهم

أيوجد كلب في الحديقة

فأجابه رفيق له

لا أعلم ولكني أحضرت لقمة له من قبيل الاحتياط

— هل أتيتم بآلة لكسر الزجاج دون احداث صوت

— نعم

— وكيف تريدون أن نصنع أنتسلق سور الحديقة أم نكسر قفل الباب

— بل نكسر القفل كي يسهل علينا الخروج حين الاقتضاء

وعند ذلك التفت واحد منهم فرأى ايبونين وقال

بل يوجد كلبة هنا

فقال تناردييه أين هي

فأجابه واحد منهم قائلا

هذه هي ابنتك ايسونين

فدنا منها أبوها وقال لها بلهجة الساخط

ماذا تصنعين هنا وماذا تريدين منا .. أأتيت لتحولي بيننا وبين أشغالنا

فضحكت الفتاة وطوقت عنقه بذر عيها وهي تقول

إني هنا لاني خطر لي أن أجيء الى هنا ألا يحق لي أن أجلس الآن على الحجارة

ولكن أنت أي شأن لك هنا وما أتيت تعمل في منزل أفرغ من فؤاد أم موسى . ألا تعانقني وقد مضى أربعة أشهر دون أن تراني

أخرجت من السجن

فتخلص تناردييه منها وقال لها

لقد عانقتني وكفى ... واني خرجت من السجن كما ترين فاذهبي

قالت ولكن كيف تمكنت من الخروج ياأبي من سجنك .. لاشك لانك من عظماء العقول فاخبرني ياأبي كيف كان ذلك وقل لي ما تعلمه عن أمي

قال انها بخير ولا أعلم أين هي فدعيني الآن واذهبي

فلم تمتثل وعادت الى معانقته وتململ رجال العصابة فقال واحد منهم

أسرعوا قبل أن يمر رجال الدرك

فالتفتت الي اللصوص وجعلت تنادي كلا منهم باسمه وتحييه فسأم مونتبارناس وقال

هذا وقت الثعالب وقد وجدت الدجاج

وقال سواه أنك ترين باسا قادمون لعمل فدعينا في شأننا

فقالت لهم أنكم تعلمون جميعكم باني لست من أهل البلاهة فقد خدمتكم خدمات جليلة كما تذكرون والآن فاعلموا اني أعرف من هذا المنزل مالا تعرفونه فقد بحثت عنه أدق الابحاث واني أقسم لكم أنه لا يوجد فيه شيء من المغانم

فاجابها واحد منهم قائلا

لا يوجد فيه غير نساء كما علمنا

قالت بل لا يوجد فيه أحد فقد غادروه

— إذن ما هذه الانوار التي تنبعث من النافذة

— لا تقل أنواراً فانه نور ضئيل وان الذين يقيمون في هذا المنزل ليس لهم ما يأكلون

فانتهرها أبوها قائلا

لقد أمرتك أن تذهبي فما بقاؤك الآن

فنظرت الى مونتبارناس وقالت له بلهجة المتوسل

أنك اكرمهم أخلاقاً فارجوك أن لا تدعهم يدخلون الى هذا المنزل

فانتهرها اللص وقال لها

اذهبي فى شأنك ودعى الرجال يهتمون فى شؤونهم

— إذن أنتم تريدون الدخول إلى المنزل

— هذا أمر لاريب فيه

فذهبت الى باب الحديقة فاستندت اليه غير مكترثة لهؤلاء اللصوص المدججين بالسلاح وقالت لهم

أما أنا فلا أريد أن تدخلوا

فوقف الجميع منذهلين لجرأتها وعادت الى الحديث فقالت

اصغوا الي أيها الاصحاب واعلموا يقيناً أنه إذا لمس أحدكم باب هذه الحديقة ملأت الدنيا صياحاً حتى يأتى رجال البوليس ويعودوا بكم الى السجن الذى خرجتم منه

فقال تناردييه لاحد رفاقه

أنها تفعل ماتقول

ومضت فى حديثها فقالت وانى أبدأ بابى فلا تحسبوا ان وجوده بينكم يثنيى عن تنفيذ هذا الوعيد

فدنا أبوها منها فصاحت به قائلة

ارجع أو ابدأ الصياح

فرجع وهو يحرق اسنانه من القهر وجعل يشتمها أقبح شتم فجعلت تضحك من شتائمه وتقول

قل ما تشاء ولكنكم لا تدخلون وما أنا بكلبة كما لقبتمونى

من قبل بل انى ذئبه وابنة دئب ولا أبالى بجمعكم فانتم ستةوأنا واحدة وانتم رجال وانا امرأة ولـكن دلك لا يخيفى

وقد قلت لـكم انى لا أريد أن تدخلوا الى هذا المنزل فاذا حاولتم الدخول اليه عويت كما تعوى الذئاب فاذهبوا في شؤونكم اذا أردتم السلامة فادا كان لـكم سلاح فان سلاحى أفضل من هذا السلاح

ثم ضحكت ضحكا عالياً وقالت

انى عانيت فى الصيف ألم الجوع وكابدت في الشتاء ألم البرد فما أخاف أم تحسبرن اني مثل حليلاتكم اللواتي اذا غضبتم اختبأن تحت الاسرة

كلا انى لا أخافكم

وقد نظرت الى أبيها محدقةوقالت

وأنت أيضاً لا أخافك فلا تنظر الى هـذه النظرات وماعلى لو وجدوني غداً قتيلة خنجرك فى هدا الشارع أو انتشلوني جثة هامدة عند ضفاف النهر

ولـكنكم قبل ان تدخلوا الى هذا المنزل تدخل القيود فى أيديكم فانتم ستة أما أنا فاني العالم باسره

فهم أبوها أن يدنو منها فصاحت بهقائلة بصوت مرتفع

احذر ان تدنو مني او اصيح

قال كلا لا أدنو منك ولـكن لا تتكلمي بصوت مرتفع . وبعد

فلماذا تريدين منعنا عن الارتزاق وانت تعلمين ما نحن عليه من الفقر ألا تحبين أباك يا أيسونين

قالت انك ترهقني فكني

— ولكن لا بد لنا ان نأكل او نموت جوعاً

— مت كما تشاء

وقد جلست على حجر عال فوضعت احدى رجليها على الاخرى وجعلت تهزها دون اكتراث

فوقف الستة وعلائم اليأس بادية في وجوههم وقد هالهم عناد هذه الفتاه فقال واحد منهم

لابد أن يكون لها عشيق في هذا المنزل تدافع عنه هذا الدفاع . وبعد أليس من الغبن أن تفوتنا هذه الغنيمة فلا يوجد في هذا المنزل غير فتاة وخادمة ورجل شيخ يقال أنه من أغنياء اليهود

فقال مونتبارناس اذا أردتم فادخلوا وأنا أبقى هنا معها

وقد جرد خنجره متأهباً لقتلها

فلم يعترض أبوها كأنه كان راضياً عن هذا الاقتراح

وكان بريجون أعقل رجال العصابة وهم يهتدون برأيه عند الشدائد

فسأله واحد منهم قائلا

ماذا ترتاى يا بريجون فانك لم تقل كلمة بعد

فهز بريجون رأسه وقال

لقد كان أول ما رأيته فى هذا الصباح عصفوران يتخاصمان وفى هذا المساء نكسنا بامرأة تخاصمنا وكل ذلك شؤم علينا فهلموا بنا نعد وسنرى بعد ذلك ما يكون

فامتثلوا لرأيه وانصرفوا

أما أيسونين فانها اقتفت أثرهم دون أن يروها فما زالت تتبعهم حتى رأتهم قد تفرقوا وتواروا فى تلك الظلمات التى خرجوا منها

* **

بينما كان هذا الحادث الذى بسطناه يجرى خارج الحديقة كانت غوسيت قد أقبلت للقاء ماريوس

وكانت عيناها محمرتين مما يدل على انها كانت تبكي

وقد أجفل ماريوس حين رآها وقال لها

مالك ماذا حدث وما هذا البكاء الذى أرى أثره فى عينيك فما الذى سطره لنا النكد فى لوح المقدور

فجلست بجانبه وقالت

لقد قال لي أبى فى هذا الصباح أن أتأهب فانه ينوي السفر

فارتعد ماريوس كأنما هزته الكهرباء فان من يبلغ آخر مدى من الحياة يعد موته سفراً ومن كان فى أولها يعد سفره موتاً

وقد وقع هذا النبأ عليه وقع الصاعقة فلم يجد كلمة يقولها

وأخذت غوسيت بيده فوجدتها باردة فقالت له

ماذا أصابك

فقال لها بصوت يشبه الهمس

انى لم أفهم ماقلته

قالت أن أبى أمرنى اليوم أن أتأهب للسفر وأن أضم ثيابه فى حقائبها

— الى أين

— لاأدرى وأظن أننا نسافر الى لندرا

— ولكنه عمل فظيع

وانما قال هذا القول لاعتقاده انه افظع من ان يأخذ الرجل بنته الى انكلترا لقضاء اعماله الخاصة

ثم قال لها بصوت خافت ضعيف

متى يكون السفر

— لم يعين موعده

— ومتى تعودان

— لا ادرى

— غوسيت أتسافرين

— الى أين

— الى لندرا

— رباه ماذا أصنع

— اذن ستسافرين

— اذا كان أبى يسافر فهل أستطيع البقاء

— حسناً وأنا أسافر أيضاً

فاصفر وجهها اذ أدركت قصده من لهجة يأسه وقالت

ماذا تعني

فنظر ماريوس الى السماء ثم قال لاشيء

وبعد ماخفض عينيه رأى غوسيت تبتسم فقال لها

ماذا

قالت لقد خطر لي خاطر ياماريوس

— ماهو

— هو اني سأخبرك متى نسافر فتتبعنا

فاهتز لهـذا الاقتراح وقال لها بصوت يتهـدج من اليأس ألعلك جننت ياغوسيت وكيف أسافر الى انكلترا وليس لي درهم وقد بلغ ماأستدنته من أحد أصدقائي الى الآن عشرة دنانير انظري الى قبعتي فقد أخنى عليها القدم والى ثوبي فليس فيه ازرار والى قميصي فانه ممزق والى نعلي فان الماء يدخـل اليها فاني منذ ستة أسابيع لا أفتكر بشيء من أمري . . غوسيت انك لاترينني الا في الليل ولو رأيتني في النهار لتصدقت علي فكيف أسافر الى انكلترا وأنا لا أملك رسم التصديق على جواز السفر

وقد وضع يديه على رأسه وأسـند جبهته الى شجرة ولبث على هـذه الحالة من اليأس الى أن سمع صوت بكاء من ورائه فالتفت ورأى غوسيت تشهق بالبكاء

وقد ركع أمامها فقبل ركبتها وجعل يقول

بالله لاتبكي أيتها الحبيبة فان بكائك يقطع قلبي

قالت كيف لا أبكي وأنا مسافرة وأنت لاتستطيع اللحاق بي

قال أتحبيني ياغوسيت

فأجابته بصوت يتهدج من تأثير البكاء

بل انى أعبدك

قال ادن لاتبكي فانى لا أطيق أن أرى دموعك

قالت وأنت أتحبني

فأخذ بيدها وقال

غوسيت اني لم أقسم بشرفي الى الآن فاذهذا القسم يخيفني

ولكني أقسم لك بشرفي انك اذا سافرت أموت

فانقطعت عن البكاء وسكت الاثنان هنيهة ثم عاد ماريوس

الى الحديث فقال

لاتنتظريني غداً ياغوسيت

— لماذا

— لانى لا أحضر وسأحضر بعدغد

— ولكن لماذا

— سوف ترين

— هذا محال فانى لاأطيق الصبر عنك

— لابد لنا من تضحية يوم فقد نضمن به كل الحياة

ثم قال كأنه يخاطب نفسه

انه رجل لا يغير شيئاً من عاداته ولا يستقبل زائراً الا في المساء

— من هذا الرجل الذي تعنيه يامايوس

— أنا . . . لم أقل شيئاً

— اذن ما الذي ترجوه

— أصبري الى بعد غد

— أهذا الذي تريده

— نعم

— سيكون ماتريد

— والآن لابد أن تعرفي عنواني فمن يعلم مايكون فاني أقيم عند صديق لي يدعى كور فراك في شارع الزجاج نمرة ١٦ وقد كتب هذا العنوان على الجدار بسكينه فقالت له

— انك تفكر في أمر خطير يامايوس فقل لي ماذا تفتكر أولا أستطيع أن أنام هذه الليلة

— هذا هو فكري أيتها الحبيبة وهو ان الله يستحيل أن يأذن بتفريقنا فاصبري الى بعد غد

— وماذا أصنع في خلال ذلك فانك تخرج من منزلك فتفرج همك بالاختلاط مع الناس وأما أنا فسأقيم وحدي حزينة كئيبة فقل لي

ماذا تريد أن تصنع مساء غد

— سأحاول قضاء أمر أرجو أن يكون لنافيه الخير

— وأنا سأصلي وأدعو لك الله في تحقيق أمانيك ولا أسألك شيئاً بعد الآن مادمت مصرا على الكتمان

أما بعد غد فاني أنتظرك هنا فى الساعة التاسعة . لاتنس انى فى الساعة التاسعة أكون في الحديقة

— وأنا أيضاً

وقد أقام معها ساعة ثم انصرف وكان انصرافه حين كانت أيبونين تقفو أثر اللصوص

***

كان جيلنورماند جد ماريوس قد بلغ فى ذلك العهد الحادية والتسعين من عمره وهو لايزال مقيما مع بنته فى ذلك المنزل الذى ربي ماريوس فيه

وكان جسمه قد أخذ بالانحطاط وانكسرت شوكة حدته فانه منذ أربعة أعوام ينتظر فى كل يوم أن يعود اليه ماريوس فلم يكن الموت يخيفه بل كان يخاف أن يدركه الموت قبل أن يرى حفيده الذى لم يكن يحب سواه فى الوجود

وقد طال هذا الفراق حتى أوشك أن يقنط من اللقاء فلم يكن هذا البعد الا ليزيده تعلقاً به فان المرء أكثر ما يكون اشتياقه إلى حرارة الشمس في ليالى كانون (يناير) الباردة المظلمة

على انه كان شديد الكبرياء فكان يؤثر أن يقتله الهم على أن يكون البادىء بمصالحة ماريوس

ومع ذلك فقد بلغ حبه لحفيده حد الشغف وكان قد وضع صورة أم ماريوس فى مكان يراها فيه كل حين ولم يكن ينقطع من النظر اليها لانها كانت تشبه ماريوس

وقد اتفق يوماً انه كان جالساً يفتكر وهو مغمض العينين وابنته بجانبه فسألته قائلة

ألا تزال يا أبى حاقداً عليه

قال على من

— على ماريوس المسكين

فاهتز اهتزازاً عنيفاً وقال

أتقولين انه مسكين عن هذا العبيد المتكبر الناكر الجميل وهو من غير قلب

وقد أدار وجهه كى يخفى عن ابنته دمعة سقطت من عينه

ولزم الصمت بعد ذلك أربعة أيام لم يفه بكلمة فكان أول ما قاله حين عاد إلى الكلام انه سأل ابنته أن لا تذكر أمامه اسم حفيده بعد الآن

فبينما هو جالس يوماً فى غرفته وقد قنط من عودة حفيده دخل اليه خادمه وقال له

هل يريد سيدى أن يستقبل الموسيو ماريوس

فوق . الشيخ كأن لولباً كهربائياً أوقفه وصبغ وجهه بصفرة الموت وقال

ماريوس ماذا

قال لا أعلم فانى لم أره ولكن الخادمة قالت لى انه جاء فتى يدعى ماريوس وانه يريد أن يراك

قال قل له يدخل

وبعد هنيهة فتح الباب ودخل ذلك الفتى فكان حفيده ماريوس

وقد وقف ماريوس على عتبة الباب كأنه ينتظر أن يدعوه جده الى الدخول وهو دري الملابس وعلائم الكآبة ظاهرة فى عينيه

أما الشيخ فقد كان اضطرابه عظيما فانه بعد أن قنط من لقائه وبعد فراق أربعة أعوام لم ينقطع فى خلالها ساعة عن التفكير به دخل اليه فجأة ورأى شبابه قد تكامل وزاد وجهه جمالا وخطر له أن يبسط ذراعيه لعناقه وان يقول له أرق الالفاظ

ولكنه حين فتح فمه لم يخرج منه غير القول الغليظ اذ بادره بقوله ماذا أتيت تعمل هنا

فتلعثم ماريوس وقال له سيدى . .

وكان يود لو أن ماريوس أقبل عليه فعانقه بدلا من أن يقول له ياسيدى فبات مستاء منه ومن نفسه فقال له

إذن لماذا أتيت

فكأنه أراد بقوله « اذا » ادا لم تعانقنى

وقد استاء ماريوس أيضاً للهجة حده فقال له حده

ألعلك أتيت تسألنى العفو واعترفت بخطائك

وكان الشيخ يتوهم انه عهد لحفيده سبيل الصلح عاقاله ولكن ماريوس رأى ان اعترافه بخطائه يكون بمثابة موافقته على مطاعن حده بحق أبيه فشمخ بانفه مستكبراً وقال

كلا ياسيدى

قال إدن مادا تريد منى

فضم ماريوس يديه شأن المتوسل ودنا منه فقال له بصوت خافت

سيدى اشفق علىّ

ولو بدأ ماريوس كلامه بهذه الجملة لوجد مجالا فسيحاً لحنو جده ولكنه قالها بعد فوت الاوان فوقف الشيخ متوكأً على عصاه بيديه وقال

أتسأل عجوزاً بلغ التسعين أن يشفق على فتى لم يتجاوز العشرين انك داخل فى باب الحياة وأنا خارج من تلك المراقص والملاعب والقهاوى والمنتديات أما أنا فلم يبق لى من ذلك حتى التذكار وانت لك كل غنى الشباب وأنا لى كل فقر الهرم وانت لك القوة وأنا لى الضعف ثم تسألنى بعد هذا أن اشفق عليك فهل ورد فى

حكايات الهازلين أضحك من هذا . وبعد فقل لى الآن ما الذى تريده منى

قال انى أعلم ياسيدي بان منظرى يدؤك ولكنى أتيت لاسألك أمراً ثم انصرف

قال بل انك من البلهاء فمن الذى قال لك انصرف

وقد أراد بقوله هذا أن يفتح باب المسالمة فكانه كان يقول له تعال إليَّ وعانقنى

ولكن ماريوس لم يفهم شيئاً من قصده فمضى الشيخ فى حديثه فقال

ألا ترى كيف كانت اساءتك الى حدك فقد برحت منزلى الى حيث لاأعلم وأفرغت اليأس على قلب خالتك وغبت عني أربعة أعوام دون أن تخبرني بشىء من أمرك واستدنت المال من اصحابك دون أن تخبرنى فأفيه عنك ثم تأتيني بعد ذلك فلا تقول غير ماقلته

وكان الغرض من قوله واضحاً وهو أن يدفع ماريوس الى المسالمة ولكنه لبث صامتاً فقال له

قل الآن فقد أتيت تسألنى أمراً فماذا تريد . قل تكلم

فنظر ماريوس اليه نظرة رجل سيسقط في هاوية وقال له لقد أتيت ألتمس منك الاذن بالزواج

فنادى الشيخ بنته وجعل يتمشى فى الغرفة حتى أتت بنته فقال لها

. منك سعيد

لاشيء سوى ان الموسيو قد حضر فسلمي عليه واعلمى انه يريد أن يتزوج ... هذا كل ماأريد أن أقوله لك فاذهبي

ثم مشى الى المستوقد فاستند عليه وعاد الى محادثة حفيده فقال

أتتزوج وليس لك من العمر غير عشرين عاماً وقد أعددت كل معدات الزواج فلم يبق الا أن أسمح لك به

تفضل بالجلوس ياموسيو ماريوس . . انه منذ حرمت التشرف بلقائك حدثت ثورة كان الفوز فيها لليعقوبيين[1] ولا شك انك سررت بهذا الفوز لانك اصبحت جمهوريا منذ صرت بارونا فهل نلت وساماً فى ثورة تموز (يوليو) وهل تمكنت من اسقاط اللوفر . ولعلك انك تريد ان تتزوج فمن هى تلك الفتاة اتأذن لى بسؤالك عنها

ولم يدع وقتاً لماريوس كى يجيبه بل مضى فى حديثه فقال

هل أصبحت من الاغنياء . . هل بحثت فى مهمتك نجاحا مضمونا يميلك على الزواج فانك أصبحت من المحامين فكم تكسب من هذه المهنة

قال لا أكسب شيئاً

قال لا تكسب شيئاً ؟ اذن لامورد لك الا من الراتب الذى عينته لك . .

لقد فهمت الآن فان الفتاة غنية كما يظهر

— بل هي مثلى

(١) جمعية ثوار كانوا يجتمعون فى دار يعقوب ا اليه

— كيف ذلك أليس لها مهر

— كلا

— ألا ترجو أن ترث

— لا أظن

— ماذا يشتغل أبوها

— لا أعلم

— وهي ماذا تدعى

— مدموازيل فوشلفان

— فوش ماذا

— فوشلفان

— إذن هي من غير مال وأنت ليس لك غير الراتب الذي تقبضه مني وهو لا يتجاوز ستين ليرا في العام وكيف تعيش سيدتي البارونة امرأة البارون مونتمرسي أتذهب بنفسها الى بائع الخضر فتشتري استيم باقة بقدوس

— أرجوك ياسيدي بل أتوسل اليك جاثيا على ركبتي أن تأذن لي بزواجها

فقهقه الشيخ ضاحكا وقال

لقد قلت في نفسك إني أذهب الى هذا الشيخ الثقيل «وحبذا لو كان لي خمسة وعشرون عاماً فاستغني عنه» بل اذهب اليه فأقول له إني جعلتك سعيداً برؤياي وقد خطر لي أن أتزوج فتاة لا أعرف

من هي وليس لى حذاء وليس لها قيص وأن ألقى فى المياه مستقبلى وشبابي وأزج بنفسى الى هاوية الشقاء . وهذا الذى خطر فلا بد لك من موافقتى عليه فلا يجد الشيخ بدا من الموافقة .. كلا يابنى ان هذا لايكون وما انت الا فى ضلال مبين

— أبى

— أبداً

فلما سمع ماريوس هذا الاباء المحض أيقن أن لا رجاء له فمشى الى الباب ببطيء وهو مطرق الرأس مشى القانطين

حتى اذا بلغ الباب وأراد الخروج قبض الشيخ على ثوبه وأرجعه بعنف فأجلسه على الكرسى وقال له

قص على هذه الحكاية فلا فرق بينها وبين الحكايات

ولم يحدث هذا الانقلاب الفجائى فى الشيخ الا تلك الكلمة التى سمعها منه وهي « أبى » فقال له

قص على حكاية غرامك فانى أحب حكايات الغرام

—أبي

فأشرق وجه الشيخ بارق السرور وقال

نعم هكذا . ادعى دائما أبيك وسترى

— كما تشاء يا أبي فاعلم...

فقاطعه قائلا

ماهذه الثياب التى تلبسها فان ذلك يدل على انك لاتملك درهما

وعند ذلك فتح درجاً فأخرج كيساً حشوه الدنانير ووضعه على المائده وقال له

ان هذا الكيس يحتوى على مائة دينار فاشتر بها ما تحتاج اليه وقل لى كيف كان غرامك بهده الفتاة

قال لقد صدقت يا أبى فان حكايتى تشبه الحكايات الموضوعة فانى أحببت الفتاة لاول نظرة وذلك في حديقة ليكسمبرج التى كانت تذهب اليها فلم أكترث فى البدء ولا أعلم كيف أصبحت بها من الهائمين

والآن فانى اجتمع بها فى حديقة منزلها كل ليلة وأبوها لا يعلم شيئاً من أمرنا

وقد علمت أمس انه يريد الذهاب بها الى لندرا فقلت فى نفسى اني اذهب الى جدى واقص عليه أمرى فانها ادا فارقتنى أجن أو انتحر أو أمرض أى أنى أموت لا محالة ادا لم أتزوجها

وهــذه هى جملة حكايتى قصصتها لك والفتاة تقيم فى شارع بليميت قرب الانفاليد

— مادا تقول شارع بليميت .. ألا يوجد ثكنة هناك ..

نعم فان قريبك تيوديل الضابط فى فرقة الرماحة يمر كل يوم بذلك المنزل وقد أخبرنى انه يرى فتاة في الحديقة واطنب فى وصف جمالها فاهنئك بسلامة ذوقك وأوثر الف مرة أن أراك عاشقاً مفتونا على أن تكون جمهورياً من اليعقوبيين

وانى لا ألومك لغرامك فاني اذا كنت قدتجاوزت عهد الصبى فلا أنساه .. وقد اتفق لى كثير من الحوادث التى تشبه هذه الحادثة أتعلم ماذا يصنعون فى هذه الشؤون .. انهم لا يندفعون مع تباريحهم ولا يسترسلون الى عواطفهم حتى يلجأوا الى الزواج ومايمنعك أن تأتى الى جدك وتسأله ما تشاء من المال أتحسب أنه يبخل عليك .. كلا يابنى فان للشباب ميدانا لا بد من الجري فيه فتمتع بملذات الصبي فقد خلقت لك هذه الملذات .. وحب هذه الفتاة كما تشاء دون أن تتزوجها فان ذلك لايمنع أن ... أفهمت

قال كلا لم أفهم

قال ان ذلك لا يمنع أن تجعلها خليلة لك بدلا من حليلة

فاصفر وجه ماريوس ونفذت هذه الجملة الاخيرة الى قلبه نفاذ خنجر فنهض عن كرسيه وأخذ قبعته التى كانت على الارض ومشى الى الباب وهناك التفت الى جده وقال له

انك منذ خمسة أعوام أهنت أبي وأنت اليوم تهين امرأتى ... انى لا أسألك شيئاً بعد الآن فاستودعك الله

ثم أقفل الباب بعنف وانصرف فلبث الشيخ فى مجلسه مذعوراً لايستطيع الكلام ولا القيام كمن أصيب بكابوس ثم تمكن من النهوض فجعل يركض كما يركض ابن تسعين عاما حتى وصل الى الباب ففتحه وجعل يصيح قائلا

الى الي

فأسرعت بنته اليه وجاء الخدم فقال لهم

اسرعوا وائتونى به . . لا تدعوه يذهب . ماذا صنعت له . . نه مجنون . . أنه ذهب . رباه رباه .. أنه لن يعود فى هذه المرة

وقد عاد الى غرفته ففتح النافذة المطلة على الشارع وجعل يناديه باعلى صوته

ولكن ماريوس كان قد عطف من ذلك الشارع الى سواه فلم يسمع نداء جده فسقط الشيخ على كرسيه فاتر القوي وعاد اليه يأسه القديم

***

فى الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم كان جان فالجان وحده فى احدى الحدائق وهو مرتدي بملابس العمال وعلى رأسه قبعة كبيرة تستر وجهه

وكانت علائم الاضطراب بادية عليه فانه كان قد اطمأن قلبه على غوسيت بعد اكتشافه أمر الخيال

ولكنه بينما كان يتنزه منذ يومين رأى تناردييه والمهذبه أنه سجين ولم يكن تناردييه قد عرفه بفضل تنكره ولكن جان رآه مرتين أيضاً فايقن أنه يرود فى الشارع

وفوق ذلك فان القلاقل السياسية كانت شديدة فى باريس فكان البوليس دائباً فى القبض على أصحاب الشبهات ومتى قبضوا على أمثال تناردييه امكنهم الاهتداء الى مثل جان فالجان

ثم أنه حدث فى صباح ذلك اليوم حادث اضطرب له أشد

الاضطراب فانه نزل الى حديقة منزله في الصباح وبينما هو يتنزه فيها مر بالجدار الكائن قرب المقعد الحجرى الذى تقيم عليه غوسيت ورأى عليه كتابة كانها كتبت بمسمار فدنا منها وقرأ هذا العنوان

« شارع الزجاج نمرة١٦ »

وهذا العنوان الذى كتبه ماريوس كما تقدم فاضطرب جان فى أمره وجعل يقول فى نفسه

ترى ما هذا العنوان ومن الذي كتبه وما الغرض من كتابته أهناك خير فيرجى أم شر فيخشى

وفى كل حال فانه يدل على دخول رجل الى الحديقة وعند ذلك ذكر مخاوف غوسيت السابقة وما كانت تسمعه من وقع الخطوات فى الليل فعاد الى المنزل ولم يخبرها بشىء من ذلك حذرا من ان يروعها

على أنه عزم عزماً أكيداً على الرحيل من باريس الى انكلترا واخبر غوسيت كى تتأهب للرحيل

ثم ذهب الى الحديقة العمومية واقام هناك يفتكر بتنارديه والبوليس والكتابة التى رآها والسفر وصعوبة الحصول على جواز

وفيما هو على ذلك سمع وقع خطوات من فوق رابية فوق المكان الذى كان جالساً فيه فهم ان يلتفت

ولكنه قبل أن يفعل رأى ورقة مطوية سقطت عند رجله فالتقطها وفتحها فقرأ فيها كلمتين

ترك منزلك

فوقب والتفت إلى الجهة التى سقطت منها الورقةفلم يرَ احداً فمشى الي تلك الرابية فرأى شخصاً اكبر من غلام واصغر من رجل قد هبط الى اسفل الرابية وجعل يرقص فعاد جان الى منزله وهو مطرق يفكر اطراق الحزين

***

أما ماريوس فانه برح منزل جده وهو شبه مجنون فقددخل اليه برجاء ضعيف وخرج منه بيأس عظيم

وقد جعل يتجول في الشوارع وهي ملجأ الساقطين الى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل فذهب الى منزل صديقه الذي كان يبيت عنده وانطرح على سريره بثيابه

فلما صحا من رقاده وجده مع أربعة من الاصدقاء فقالوا له ألا تأتي معنا

قال الى أين

قالوا لنحضر جنازة الجنرال لامارك

فخيل له انهم يكلمونهم باللغة الصينية

وبعدا نصرافهم خرج من المنزل بعدان وضع فى جيبه الغدارتين اللتين أخذهما من جافرت كما يذكر القراء

وكانت الغدارتان محشوتين فلا ندري اي قنوط دفعه الى التسلح بهما

فجعل كل يومه ينتقل من مكان الى مكان وهو لا يعلم أين يسير وقد اشترى مطيرة لغدائه فدفعها في جيبه ونسيها وكان المطر ينهمر عليه وهو غير مكترث كأن تلك المياه كانت تطفىء ما فى قلبه من اللهيب

ولم يكن يطمع لشيء ولا يخاف شيئاً بل كان كل ما يرجوه أن تسرع الارض فى دورانها وان تأذن الشمس بالغيبه اذ لم يكن يفتكر الا بأمر واحد وهو

ان يرى غوسيت فى الساعة التاسعة

غير أنه حين كان يتجول فى الشوارع المقفرة كان يسمع لغطاً غريباً فى باريس فثاب الى رشده وقال

ترى لعلهم يتقاتلون

ثم حانت الساعة التاسعة بعد ان فقد صبره أو كاد فأسرع الى شارع بليميت

ولما وصل الى الحديقة نسى كل شيء فى الوجود فقد مر به أربع وعشرون ساعة دون ان يرى غوسيت

وقد دخل من بين القضبان الحديديه على عادته الى الحديقة وذهب الى المقعد الذى تعودت أن تجلس عليه فلم يجدها

فذهب الى مكان آخر فى الحديقة تكتنفه الاشجار كانا يجلسان فيه أحيانا فلم يرها

فرفع عينيه الى نوافذ غرفتها فوجدها مقفلة على غير عادتها

فقصد الى المنزل وقد تيمه الحب وأسكره اليأس دون أن يكترث كأنه صاحب المنزل يدخل الى منزله فقرع الباب فلم يجبه أحد فطرق النوافذ وهو يتوقع أن يخرج اليه أبوها ويقول له ماذا تريد فلم يتهيب ولكن لم يخرج اليه أحد

وقد اضطرب عقله حتى لم يعد يدرى مايصنع فجعل ينادى بأعلى صوته غوسيت . . غوسيت فلا يجيبه غير الصدى فأيقن أنه لايوجد أحد لافى الحديقة ولا فى المنزل

وبعد ذلك نظر الى ذلك المنزل والى ذلك المقعد الحجرى نظرة المودع وقال فى نفسه

لاشك أنها سافرت فلم يبق لى الا أن أموت

وبعد ذلك سمع صوتاً من الخارج يناديه باسمه

فالتفت منذهلا وقال

من هذا

فقال الصوت أأنت هنا ياسيدى ماريوس

قال نعم

قال ان أصحابك ينتظرونك فى المتاريس فى شارع شانفريرى

وكان قد سمع هذا الصوت من قبل وعرف أنه صوت أيبونين ابنة تناردييه فخرج من الحديقة فرأى شبحاً يركض الى جهة المتاريس ولكنه لم يكن يلبس ملابس الفتيات بل ملابس الرجال

***

ان الشيخ ملبوف لم يستفد من ذلك الكيس الذى سرقه كافروش من جيب اللص وألقاه اليه من فوق سور الحديقة وهو الكيس الذى تبرع به جان فالجان على مونتبارناس

وذلك أن مالبوف أبى أن يقبل هذه الهدية التى هبطت اليه من السماء اذ لم يكن له أصدقاء فى النجوم

وأين له ان يعلم كيف كان أصل وصول هذا الكيس اليه فاعتبره كيساً مفقوداً وذهب به الى قومسيير البوليس فدفعه اليه فما أفاد أحدا به ولم يستفد منه اذ لم يطلبه أحد

وقد أخذ يتواصل هبوط ذلك المنكود فقد كان مديناً لخادمته فأصبح مدينا لصاحب منزله

وكان قد رهن كل ماعنده فى بنك الرهونات فاستحق الدين ولم يستطع الوفاء فباعوا كل مارهنه بالمزاد العلنى

وكان عنده مجموعة تامة من الكتب الزراعية فباعها بابخس ثمن وجعل يقتصد فى أكله فقد كان يأكل كل يوم بيضتين ولحما فبات يقتصر على الخبز والبطاطا

ثم باع كل أثاث منزله فأنفقه فاحتفظ بثوب وباع كل ثيابه وأغطيته

ولم يبق له غير بقية من كتب نادرة الوجود كان مولعاً بها أشد الولوع فاحتفظ بها

غير أن الخادمة جاءته يوما فقالت له

ليس لي ما أشترى به طعام الغداء

ولم يكن طعام الغداء غير الخبز والبطاطا كما قدمناه فقال لها خذي بالدين

قالت ألا تعلم أنهم لايبيعونتنا الا بالنقد

فقام الى كتبه وجعل ينظر اليها كما ينظر الاب الى أولاده ويفحصها

ثم تنهد تنهداً عميقاً وأخذ واحداً منها فوضعه تحت ابطه وخرج به فعاد بعد ساعة وأعطى الخادمة ثلاثة فرنكات ثمن الكتاب وقال لها

هو ذا ثمن الطعام

ومن ذلك اليوم جعل يأخذ كل يوم كتابا فيشعر كان مفاصله تنتزع من جسمه حتى لم يبق لديه كتاب

وكان يقول فى نفسه

لقد بلغت الثمانين من العمر وكنت أرجو ان تذهب أيامى قبل ذهاب كتبي

وكان عضواً فى الجمعية الزراعية فعرف بعض الاعضاء ما ألمَّ به من الفقر وزاره رئيس الجمعية فوعده ان يذكره بالخير لدى وزير الزراعه والتجاره

وقد فعل فمحص الوزير وقال

ايكون هذا الرجل من كبار علماء الزراعة فيبلغ حد الهرم

فندعه بهذا الضيق . كلا فسننظر فى أمره

وفى اليوم التالى دعاه الوزير الى العشاء عنده فاطلع الخادمة على كتاب الوزير فصفقت بيديها طربا وقالت لقد نجونا والحمد لله

وقد اجاب الدعوة ولكنه كان دري الملابس فلم يكلمه احد حتى ان امرأة الوزير سألت احد المدعوين مشيرة الى الشيخ فقالت من هذا الرجل المسكين

فقام من فوره فخرج من منزل الوزير وعاد إلى منزله ماشيا تحت الامطار

وفى الصباح خرج الى الحديقة وجلس قانطا فى مجلسه العادى فسمع دوي البنادق من جهات مختلفة

وقد مر به فى تلك الساعة بستانى يعرفه فاستوقفه وسأله قائلا ما هذا

قال لقد نشبت الثورة

— أين

— فى باريس وهم الآن يتقاتلون

— لماذا

— ألا تعلم

— أين يتقاتلون

— فى جهة الثكنة

فدخل ملبوف الى منزله فأخذ قبعته وبحث عن كتاب

يبيعه حسب عادته فى كل يوم فلم يجد نفرج من منزله هائما على وجهه خروج القانطين

* *

من أى شيء تتألف الثورد .. انها تتألف من لا شيء ومن كل شيء .. انها تتألف من شرارة كهربائية تمتد تماما ومن لهب يتأجج شعلة ومن قوة تسير هائمة ومن نفحة تهب فتلتقي برؤوس تفكر ونفوس تشقى فتندفع اندفاع التيار يجرف كل ما يعترضه من الشرائع الجائرة

ففي سنة ١٨٣٢ كانت باريس تشبه مدفعاً محشوا إذا أصابته شرارة يطلق وقد أصابته فكانت تلك الشرارة وفاة الجنرال لامارك

كان الجنرال لا مارك من مشاهير رجال ذلك العصر خدم الامبراطورية والجمهورية بسيفه وبعقله فقد كان من أهل البيان كما كان من رجال السيف

وكان الشعب يحبه لانه حدم الامبراطور وحدم وطنه فان نابليون مات وهو يقول الجيش ومات لامارك وهو يقول الوطن

وكان الناس يتوقعون موته ويخافونه لانه كان خسارة عظيمة لاتعوض فكان الحزن عليه عظيما ثم تحول ذلك الحزن الى ثورة

وقد كان صباح اليوم الخامس من شهر حزيران (يونيو) وهو اليوم

المعين لدفن الجنرال يوماً تناوب فيه الصحو والمطر وبزغت أشعة الشمس من خلال الغيوم فكانت تارة تقشع الضباب فتتألق فى كبد السماء وتارة يتلبد الغمام فينهمر المطر كافواه القرب

وقد مشت جنازة الجنرال لامارك بابهة نادرة المثال فمشت معها فرقتان تحمل البنادق منكسة وعشرة آلاف من الحرس الوطنى المسلحين بالسيوف وفرقة من المدفعية فكانوا يخفرون مركبة النعش التى كان يجرها فريق من الفتيان

وكان يسير وراءهم الضباط يحملون أغصان الغار والغار يومئذ من شعارات المجد

ثم يجىء بعدهم جماهير لا يحصيها العد من طلاب الحقوق وتلامذة الطب واللاجئين إلى البلاد الافرنسية من الاسبانيين والايطاليين والالمانيين والبولونيين وكلهم يحملون رايات بلادهم وجمهور عظيم من الغلمان يحملون أغصانا مورقة خضراء

ثم فريق العمال الذين أضربوا يومئذ عن العمل وكلهم يحملون العصى وبعضهم يتقلدون السيوف ويسيرون من غير نظام والناس قد تكدسوا فى المشارف والنوافذ والسطوح

وكانت الحكومة ساهرة تراقب بحذر شديد فقد فرقت الجنود فى كثير من الاماكن

وقد كثرت الاشاعات بين مشيعي الجنازة فكان بعضهم يقولون ان الدوق دى رشستاد سيكون أمبراطوراً وبعضهم يدعون ان

اثنين من كبار المأمورين سيفتحون مستودعات الاسلحة ويفرقونها على الناس

وقد سارت الجنازة من منزل الفقيد الى الباستيل وجرى أثناء تشييعها بعض حوادث فانها حين وصولها الى عمود فاندوم ظهر الدوق دي فيتزجمس في مشرف منزله وقبعته في يده فرماه الناس بالحجارة وانتزعوا راية من رايات البوربون فرقوها وألقوها في الوحول وجرح أحد الضباط بضربة سيف الى غير ذلك من الحوادث التي كانت تشير الى قرب الانفجار

حتى اذا وصلت الى المدفن وقف الجنرال لافاييت فأبن الفقيد وودعه بكلمات مؤثرة فكشف الجميع قبعاتهم احتراماً

ولم يكد ينتهي من تأبينه حتى ظهر رجل يمتطي جواداً وهو يلبس ثوباً أسود ويحمل راية حمراء فكان ظهور هذه الراية بدء الثورة فان الشعب هاجوا لظهورها وغلت الدماء في عروقهم كما تغلي المياه في المراجل

ولم يكونوا يعلمون ماحدث ولكن أذيع بينهم أن الجنود في جهة الثكنة ضربوا الطبول اشارة الى الهجوم وان غلاماً طعن ضابطاً بخنجره فقتله

والحقيقة انه سمع في تلك الساعة دوي ثلاث طلقات فقتل الطلق الاول قائد فرقة وقتل الثاني امرأة عجوزاً كانت تقفل

نافذتها وجرح الثالث أحد الضباط فهجمت فرقة من الفرسان في شارع بوردون وهي مشهرة السيوف

وبعد ذلك ثارت العاصمة وانقضت الصاعقة وبدأت الثورة الهائلة فاندفع الناس يصيحون الجمهورية أو الموت وظهرت الرايات المختلفة وفتحت مخازن الاسلحة فاختطف الثائرون ما كان فيها وكانوا يسيرون عصابات على اختلاف درجاتهم فبعضهم ينهبون وبعضهم يقتلون وانبثت الجنود في جميع الشوارع فلما اقبل الليل كانوا قد قبضوا على ثمانمائة رجل من الثائرين

وفي الليل عادت الى شدتها وعادت العصابات الى الظهور فكان احرأهم يتولي قيادتهم حتى لقد شوهد كافروش يحمل غدارة ويسير بالثائرين وهو ينشد الاناشيد الحماسية

وكان قد طاف في الصباح سراح الطفلين فاخرجهما من جوف النيل وقال لهما

اذهبا فابحثا عن أبويكما فاذا لم تجداهما عودا الى هذا المكان فاني أجيئكما بالطعام وتبيتان فيه

وفي المساء لم يجدهما فلا يعلم ألقيا والديهما أم أخذهما رجال البوليس الى أحد ملاجيء الاطفال أم داستهما الاقدام في ذلك المعترك فعاد مغضباً لاحقاً الى حيث كان الثائرون ومشى في طليعتهم حتى مر بدكان ذلك الحلاق لذى طرد الطفلين فهاجت براكين حقده عليه ورمي دكانه بالحجارة فكسر زجاجها وشفي غليله من الانتقام

وما زال يسير بعصابته في الشوارع حتى التقى بعصابة كان يتولى زعامتها أنجولراس وكور فراك وكومبفير أصحاب ماريوس فانضم اليها وسألهم الى أين نذهب

قالوا اتبعنا

ثم التقوا بعصابة أخرى وجدوا بين رجالها شيخاً يناهز الثمانين من العمر فعرفه كور بفراك اذ رآه مراراً مع ماريوس ودنا منه فقال له

عد الى منزلك يا مسيو مالبوف

قال لماذا

— لان المعركة حي وشك النشوب

— حسناً

— انهم سيطلقون البنادق ويتقارعون بالسيوف يا مسيو مالبوف

— حسناً

— وستنفجر كرات المدافع

— حسناً قال الى أين أنتم ذاهبون

— اننا ذاهبون لقلب هذه الحكومة الجائرة

— حسناً

وقد سار معهم بقدم ثابتة ولم يعد ينطق بكلمة فكان بعض العمال يحاولون أن يتأبطوا ذراعه ويعاونوه على السير فيتمنع بالاشاره

ويمشي معهم وهو يتحمس لاناشيد كافروش كما يتحمس الفتيان

***

وكانت تلك العصابات تتكاثر فكل مااحتازت شارعا انضمت اليها عصابة حتى وصلوا الى شارع الزجاج ومروا بمنزل كوديفراك فقال كوديفراك لاحد أصحابه

لقد أضعت قبعتي وأنا صاعد الى منزلي لاجيء بغيرها

وقد صعد السلم وثما وصل ملقيته بوابة المنزل واستوقفته فقال لها من أنت

قلت أنا بوابة المنزل ألا تعرفني

— ماذا تريدين

-- يوجد فتى يريد أن يراك

— من هو

— لاأعلم

- أين يقيم

— في غرفتي عند الباب

-- ليس لي وقت لمقابلة الناس

--ولكنه ينتظرك منذ ساعة

وبعد ذلك خرج الفتى من غرفة البوابة وكان بملابس الفتيان ولكن هيأته تدل على أنه من النساء فدنا من كوديفراك وقال له

أريد ياسيدى ان أرى الموسيو ماريوس

قال ماهو هنا الآن

— أيعود فى هذه الليلة

— لا أعلم اما أنا فلا أعود

فنظر اليه الفتى محدقا وقال لماذا والى أين أنتم ذاهبون

— ماذا يهمك أمرنا

— أتريد أن أحمل لك حقيبتك

— ليس لى حقيبة وما أنا مسافر بل اني ذاهب الى المتاريس

— أريد أن أذهب معك

— ان الشوارع لجميع الناس فاذهب الى حيث تشاء

ثم تركه وجعل ينهب الارض ركضاً كى يلحق بأصحابه وهناك رأى ان تلك الفتاة المتنكرة علابس الغلمان قد تبعته

وقد ساروا يتقدمهم كورنفراك الى خمارة يدعونها خمارة كورنت كان أصحاب ماريوس يختلفون اليها جعلوها مركزاً لهم وبنوا المتاريس فى موضعين بجانبها فكانت المتاريس ملاصقة للخمارة فكان أحد المتاريس ينتهى عند شارع شانفريرى والآخر ينتهى عند شارع مونويتور والمتاريس مبنية بالبراميل وبلاط الشوارع

وكان قد اشترك فى بنائها فريق كبير من العمال فكان كورنفراك يراقب اثنين من أولئك العمال فيجدهما يشتغلان فى بناء المتاريس بغيرة صادقة وهمة لاتعرف الملل أحدهما رجل

طويل القامة عريض الكتفين لم يعرفه والآخر غلام صغير عرفه اذ بات من المشاهير فى هـذه الثورة فانه كافروش أما تلك الفتاة التى سألتـه عن ماريوس وتبعته الى المتاريس فقد بحث عنها فلم يجدها

وقد سدوا بالمتاريس الشارعين ولم يبقوا غير متنفذ واحد من شارع موندیتور وعند انتهاء بنائهما صعد كافروش بامر كوربفراك الى سطح الحمارة ونصب هناك علم الثورة ثم ورعت الاسلحة على الثائرين فاصاب كل واحد من الذخيرة ثلاثين رصاصة وبندقية

واقام الجميع داخـل المتاريس وكانوا خمسين رجـلا وحملوا ينتظرون أن تهاجمهم الجنود فطال انتظارهم حتى كادوا يسأمون فان الحكومة كانت تتأهب لهذا القتال ولم يتم تأهبها بعد

وكان كافروش يحمس العمال حين بناء المتاريس بأقواله وأناشيده وهو يباسط هذا ويمازح ذاك

فلما دخلوا الى المتاريس بعـد أن تم بناؤها نظر انفاقا نظرة الفاحص الى أولئك الجموع فكانت منه التفاتة الى ذلك الرجـل الطويل العريض الكتفين الذى كان يشتغل بملء الغيرة فى بناء المتاريس

ولم يكد يراه حتى انتفض وجعل يتمعن به والرجـل مطرق لا ينظر اليه

وعند ذلك دنا كوربفراك من كافروش وقال له

لقد سئمنا الانتظار فاذهب يا كافروش الى الشوارع فتجسس الاخبار وعد الينا

قال اني ذاهب وسأعود بالخبر اليقين ولكن لابد لي أن أرشدك الى أمر قبل ذهابي أترى هذا الرجل الطويل الواقف هناك

قال نعم

قال احذره كل الحذر فهو من دهاة الجواسيس

قال أأنت واثق مما تقول

قال كل الثقة فهو من رجال الحكومة وقد أرسلني منذ أسبوعين بمهمة فتركه كوريفراك ومشى الى ذلك الرجل وعيناه تتوهجان من الغضب فقال له

من أنت أيها الرجل

فاهتز الرجل لهذه المفاجأة ونظر محدقا الى كوريفراك فعلم كل مايجول في فكره فابتسم ابتسام المحتقر وقال له بلهجة ملؤها العظمة

لقد عرفت ماأردت أن أعرفه

قال أأنت من الجواسيس

قال بل أنا من عمال الحكومة

— ماذا تدعى

— جافرت

فاشار كوريفراك الى أربعة من الرجال كانوا محدقين به فهجموا

عليه وقيدوه قبل أن يتمكن من الدفاع

وقد فتشوه فوجدوا معه ساعة وكيساً من النقود تركوهما له ثم وجدوا في جيبه ورقة تتضمن صدور الامر اليه من مدير البوليس وهذا نصها

«على المفتش خوفرت بعد أن يقضي مهمته السياسية أن يراقب الشاطىء الايمن من نهر السين مراقبة خاصة قرب جسر بينا ويأتينا بالخبر اليقين»

وبعد أن قيدوه وفتشوه حملوه الى قاعة في الحارة وحبسوه هناك فقال له كورنفراك

انا سنقتلك رمياً بالرصاص قبل أن تؤخذ المتاريس بدقيقتين

قال لماذا لا تقتلوني الآن

— لنقتصد في البارود

— فاقتلوني بطعنة خنجر

— ما نحن من السفاكين أيها الجاسوس بل نحن من القضاة

ثم نادى كافروش وقال له

اذهب الآن في المهمة التي عهدت بك اليها

قال اني ذاهب ولكني ألتمس أن تعطوني بندقية الجاسوس فقد بت أحق بها من دونه

قال هي لك

فأخذها وأطلق ساقيه للريح فخرج من المتاريس ليتحسس الاخبار ويعود الى رفاقه

*

كان بين عصابة كوريفراك رجل لا يعرفه أحد قد انضم اليها يدعى كابيك

وكان سكران أو انه كان يتظاهر بالسكر لغرض من الاغراض فلما قبضوا على جافرت وذهب كافروش قال هذا الرجل لبعض رفاقه وقد دلهم على منزل داخل منطقة المتاريس يشرف على الشارع

ألا ترون هذا المنزل أيها الرفاق فانه خير مكان لاطلاق النار فاذا وقفنا فى مشرفة نطلق بنادقنا منه فلا يجسر أحد على مهاجمتنا من الشارع

قالوا نعم ولكن بابه مقفل

— نطرقه

— لا يفتحون

— إذن نكسر الباب

وقد مشى الى الباب وجعل يطرقه فلم يجبه أحد

ثم خصه وحده متيناً مصفحاً بالحديد فعاد الى قرعه

وما زال يطرقه الى أن أطل رجل شيخ يحمل شمعة وسألهم قائلا

ماذا تريدون أيها الاسياد

فقال كابيك نريد أن تفتح لنا الباب

— لاأستطيع فتحه

— قلت لك افتح

— ان هذا محال

فصوب اليه بندقيته وقال له

قل الآن ألا تريد أن تفتح

قال كلا

فلم يكد يتم كلمته حتى دوت البندقية فوقعت رصاصتها بذقن ذلك المنكود وخرجت من قذاله فانقلب يهوى إلى الشارع

وقد سمع أصحاب ماريوس دوى البندقية فلما علموا بما كان دنا الجولراس من كاديك فقبض على كتفه وقال له

اركع أيها الشقى

وقد اضطره إلى الركوع بالقوة واخرج ساعته من جيبه فقال له

انى أمهلك دقيقة واحدة لتفتكر أو تصلى

فجعل الرجل يتوسل اليه ويلتمس العفو والجولراس ينظر فى ساعته حتى اذا انقضى الاجل المضروب اطلق غدارته على رأسه فسقط من فوره قتيلا بالقوة خارج المتاريس

ووقف بين المحيطين به فقال

أيها الاخوان ان مافعله ذلك الرجل فظيع منكر وأنا أيضاً أقدمت على أمر هائل ولكنه قتل من غير حق فقتلته بحق فان

الثائرين يجب أن يكونوا كالجنود المنظمة وان يكون شعارهم الطاعة

انا لم نعمد إلى الثورة للقتل وسفك الدماء بل لندعو الى الجمهورية ونذود عن حماها فنحن عبيد الواجب فلا ينبغى أن ندع مجالا للمآثم أما أنا فقد حكمت على هذا الرجل بالاعدام بصفتى أحد زعمائكم وقتلته مرغماً مضطراً وسترون كيف احكم على نفسى أيضاً

فاجاب كوريفرك قائلا

انا معك

قال ليكن ماتريدون

وعاد إلى مخاطبة الثائرين فقال

أيها الاخوان ان ماعملته شر ممقوت اضطررت اليه مكرها فانتقمت للشر بالشر وسيأتى يوم تزول فيه هذه الضرورات ويسود الاخاء بين الناس وتبقى السيادة والمستقبل للحب والاخاء والمساواة وهذا الذى نثور من أجله الآن

أيها الاخوان ان المستقبل لنا وسنخرج من هذا المعترك ظافرين فتنجاب الظلمات وينقلب الظالمون وتسود المساواة ويتسلط الحب . نعم سيأتي هذا اليوم وهو قريب فاذا متنا فى سبيله عاش بموتنا الناس

فصفق الجميع له وأمنوا على قوله

أما كابيك الذى قتله فقد اتضح بعد أن خمدت الثورة انه كان من شر الجواسيس فلم يأسف لموته أحد

وبينما الناس يصفقون رأى كوديفراك تلك الفتاة المرتدية بملابس الغلمان والتي سألت عن ماريوس قد دخلت الى المتاريس وانضمت إلى الثائرين .

***

يذكر القراء ذلك الصوت الذى نادى ماريوس حين كان فى حديقة غوسيت وقال له أن أصحابك ينتظرونك في الميادين

وقد كانت هذه الدعوة كأنها دعوة القدر فانه خرج من الحديقة واليأس ملء قلبه اذ بات واثقا ان غوسيت قد سافرت وهو أقسم لها بشرفه أن يموت إذا تخلت عنه فلم يبق له بد من الموت

وكان معه غدارة حافرت فحاول أن ينتحر من فوره ولكنه ذكر فى تلك الساعة أعمال أبيه وذكر أنه هو كان منتظما فى سلك الجمعية الثورية وان هذه الثورة التى يتأهبون لها من عهد بعيد قد نشبت الآن واندلع لسان لهيبها فبات الواجب يقضى عليه بمعاونة اخوانه فيها لا سيما وقد دعوه الى المتاريس للاشتراك معهم فى القتال فقال فى نفسه

إنى اقسمت على أن أموت وأى فرق اذا مت منتحراً أو مت فى ساحة القتال وخير لى أن أموت بين اخوانى فأكون قد بررت بقسمين وحفظت عهدين

وقد ذهب من فوره لا يلوى على شيء وسار في طريق المتاريس حتى وصل الى شارع شوفريرى ولم يبق له غير خطوة البلوغ الى المتاريس فجلس هناك على حجر وجعل يفتكر بابيه ذلك الكولونيل مونتمرسى الذي حافظ فى عهد الجمهورية على حدود فرنسا وبلغ فى عهد الامبراطورية الى حدود آسيا والذى دخل دخول الفاتحين الى جنوا واسكندرية وميلان وتورين ومدريد وفينا ودرسد وبرلين وموسكو . ذلك البطل الذى سقى كل تلك الربوع بدمه وان هذا الدم نفسه هو الذى يجول الآن فى عروق ولده ماريوس فقال فى نفسه

لقد دنت ساعة الاقتداء بأبى حيث اكشف صدرى لرصاص البنادق واسفك دمى فى سبيل وطنى

ولم يكن يهوله غير هذه الحرب الاهلية اذ كانت تتمثل له بشكل هوة هائلة سيلقى نفسه فيها فيرتعد ويذكر سيف أبيه الذى باعه جده كي لا يبقى عنده مثل هذا الاثر وأسف يومئذ عليه ماريوس أسفاً عظيما ولكنه الآن لم يعد يأسف عليه بل قال فى نفسه

لقد أحسن بيعه هذا السيف الشريف بانفلاته وهيامه فى الظلمات كانه كان يتوقع هذه الحرب الجائرة التى يصبح فيها الوطنى عدوا لابن وطنه وكره بعد عودته من مارنجو مصبوغاً بدم اعداء البلاد أن يعود الى شوارع باريس فيصبغ بدماء ابنائها وقد شرف

وعز بيد الاب فلا يجمل به أن يذل ويهان بيد الابن فان هـذا السيف لو بقي موجودا في منزل جده لاخذه وقاتل به الفرنساويين في حين أن أباه كان يقاتل به عن الفرنساويين وخير له الف مرة أن تحطمه مطرقة الحداد من أن تصبغه الحرب الاهلية بدماء أبناء البلاد ولما انتهى بتصوره عند هذا الحد جعل يبكى ويقول في نفسه

رباه ماذا اصنع انى لا استطيع أن أعيش يوما من غير غوسيت وما زالت قد سافرت فلم يبق بد من الموت ألم أقسم لها بشرفي اني أموت

وقد اقسمت لها هذا القسم أمامها فسافرت وهي تعلم انى أموت فكانها تريد لى الموت

واذا كان ذلك فاية فائدة بقيت من الحياة

ثم انه لم يبق شك انها لا تحبنى بدليل انها سافرت دون أن تكتب لى كلمة وهي تعرف عنوانى

فما حياتى بعد الآن وما هذا التردد الذى يتولانى فأصل الى باب الموت ثم أرجع عنه ... أأنتهى الى المتاريس ثم أهرب من الخطر .. أيدعونى اخوانى ويستنجدون بى ثم اتخلى عنهم .. انكث في حين واحد عهد الحب وعهد الاخاء ويمين الشرف .. كلا ولو لقيني أبى أتردد في هذا المجال لصفعني وهو يقول الى الامام الى الامام أيها الجبان

وبعد فما هذا الخوف من الحرب الاهلية فان فرنسا تقطر فيها دما ولـكن الحرية تبتسم وستنسى فرنسا جرحها بما تراه من هذا الابتسام

وأى فرق بين الحرب الاهلية وسائر الحروب مازال الرجال يتقاتلون في الحربين أليس الرجال اخوانا فى كل مكان ..

ان الحرب لاتوصف الا بغاياتها فلا يجب أن يقال حرب اجنبية وحرب أهلية بل يقال حرب عادلة وحرب جائرة الى أن يعقد الوفاق الانسانى العظيم وتبطل تلك الحروب الجائرة فلا تكون عارا على البشر الاحين يستحيل السيف الى خنجر لقتل الظلام والمدنية والحق فان هذه الحروب سواء كانت اجنبية أو أهلية لا تعد جريمة ..

ان استبداد الحاكم الظالم يغتصب الحدود الادبية كما يغتصب الفاتح الحدود الجغرافيـه فاذا طردت الظالم أوطردت الفاتح كان عملك واحداً فى الحالتـين أي انك طردت المغتصب من أرضك

وقد تأتي ساعة لا ينفع فيها الاحتجاج الفلسفى بل يجب فيها العمل وان تتم القوة ما بدأ به الفكر وان الجمـع يحتشد فيجب ارهاق نفوس الرجال بالخير وجرح عيونهم بالحق ورض جسومهم لشفاء نفوسهم وابهار عيونهم ليستفيقوا

ومن هنا تتولد الحروب فلا بد من نهوض كبار المحاربين

وانارة الشعوب مجراءتهم وهر هذه الانسانية الحزينة المنزوية فى ظل الشرائع الروحية والمجد القيصرى والتعصب الشائن والسلطة المطلقة التى لاقيد فيها فليسقط الظالمون

ولكن أى ظلام أعنى أكان لويس الرابع عشر ولويس الثامن عشر من الظلام . . كلا فقد كانا من أقطاب الملوك وأثرأمهم ولكن المبادىء لاتتجزأ والعسف لايطبق على الحقوق فقدكانت السيادة لرجال الدين فى عهد لويس الرابع عشر وكانت السيادة للأثرة فى عهد لويس الثامن عشر فضيق ميدان المدآ على حقوق البشر وكان ما كان

أجل يجب أن تكون فرنسا البادئة فى سقط الظالم فيها سقط الظلم فى كل مكان

وعلى الجملة يجب أن يرد للحرية عرشها وان يكون الحكم للشعب لا للافراد فيرد الشعب للشعب

ان مثل هذه الحروب تؤيد السلام وأن يوحد حصن منيع هائل مبنى على دعائم الاثرة والاستبداد والامتيازات والنفاق فيجب دك هذا الحصن فان الانتصار فى أوسترلتيز عمل عظيم ولكن هدم الباستيل عمل أعظم

وبينما كان ماريوس يناجى نفسه بهذه الافكار كان ينظر الى داخل المتاريس فيرى الثائرين يتحدثون بأصوات منخفضة وقد بدت عليهم علائم نفاد الصبر

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة دون أن يأتي أحد

وكان كوربفراك وأصحاب ماريوس الاربعة جالسين وبنادقهم على ركبهم لا يتكلمون بل يصغون

وفيما هم على ذلك سمعوا صوت غلام ينشد نشيداً حماسياً خارج المتاريس فما تشككوا أنه صوت كافروش

وقال أنجولراس

ودخل في وقت دخول كافروش اثنان من الحراس فصاح كومفيريك برجال العصابة أن يتأهبوا وكانوا ثلاثة وأربعين رجلا بينهم كافروش فأخذ كل منهم بندقيته ووقف في موقفه وراء المتاريس

وبعد هنيهة سمعوا من الداخل صوت خطوات موزونة فكان هذا الصوت في البدء ضعيفا ثم جعل يزداد جلاء باقتراب القادمين من المتاريس حتى انجلى تماما فأيقنوا أن الجنود القادمين كثيرون

ثم وقف الجنود على مقربة من المتاريس فكان الذين داخلها يسمعون ركضاً منهم لكثرة عددهم اذ كانوا يبلغون فرقة

ولكنهم لم يروهم لاشتداد الظلام بل كانوا يرون بريق حرابهم المعلقة في رؤوس البنادق

وبعد هنيهة صرخ واحد من جهة الجيش بصوت جهوري قائلا

من هنا

فأجابه أنجولراس من الداخل بنفس لهجته قائلا

ثورة فرنساوية

فصاح الصوت قائلا

أطلقوا النار

فدوت البنادق بطلق واحد خرج كهزيم الرعد وسقطت الراية الحمراء عن المتاريس ودخل الرصاص من خلال المتاريس فجرح كثيرين حتى هلعت قلوب الثائرين وأيقنوا مما سمعوه ان عدد الجنود لايقل عن ألف جندى وامر كوربفراك الثائرين أن يقتصدوا فى البارود الى أن يقرب الجند أو الى أن يهجموا

وقال انجولراس يجب قبل كل شيء ان نعيد الراية الى موضعها

ثم صاح برفاقه قائلا

من منكم ينشط لارجاع هذه الراية الى موضعها

فلم يجبه أحد فان من يصعد الى المتاريس فى هذه الساعة كان شأنه شأن المنتحر اذ يجد ألف بندقية مصوبة اليه

فعاد انجولرس الى المناداة قائلا

أليس فيكم من يجسر على الصعود

انه منذ دخول الثائرين الى المتاريس لم ينتبه أحد الى الشيخ مالبوف مع انه لم يبرح ذلك المكان

وكان قد دخل الى الخمارة وجلس وراء إحدى الموائد لا يكلم أحداً ولا ينظر الى أحد

وكان كورنفراك لقيه مرتين وسأله أن يعود الى منزله وأن يجتنب الخطر المحدق به فلم يكن يجيبه ولا ينظر اليه ·

وقد مر به ساعتان قبل أن تصل الجنود وهو جالس في مجلسه لا يتحرك ولا يتكلم ولا ينظر الى شيء

ولكنه حين سمع دوي البارود ارتعش ارتعاشا عنيفاً وصحا من ذهوله فنهض مسرعا ودخل الى حيث كان الثائرون بينما كان انجولراس يصيح قائلا

أليس بينكم من يجسر على الصعود الى المتاريس ووضع الراية·

ولم يكن قد تقدم أحد ورأوا هذا الشيخ قادما من الخمارة فأيقنوا أنه جاء لتلبية النداء

وقد كان دهشهم عظيما من جرأة هذا الشيخ فصاح واحد منهم قائلا

هذا هو ممثل الشعب

أما الشيخ فانه مشى الى انجولراس فكانت الرؤس تنحني له اجلالا ثم انتزع الراية من يده فتراجع انجولراس مذعوراً

ومشى الشيخ والراية تهتز في يده فلم يجسر أحد على ردعه ولا على مجاراته وأخذ يتسلق المتاريس والثائرون ينظرون اليه وهم ساكتون واجمون كأن على رؤوسهم الطير

أما الشيخ فانه حين وصل الى أعلا المتاريس وقف وأمسك بيده العلم الاحمر فهزه بيده المرتجفة وصاح قائلا

لتحيي الثورة . لتحيي الجمهورية . . أخاء ومساواة وموت

وعند ذلك سمعوا من داخل المتاريس ذلك الصوت الذي قال لهم من قبل « من هنا » يقول له

ارجع أيها الشيخ من حيث أتيت

فرفع مالبون الراية بيده وصاح قائلا

لتحيى الجمهورية

فأمر صاحب الصوت باطلاق النار

وقد دوى صوت النار كما دوى أول مرة فسقط الشيخ على ركبه ثم سقطت الراية من يده ثم سقط على قفاه وانقلب الى الارض ويداه مصدرمتان الى صدره

فأسرع الثائرون اليه ووقفوا حوله باحترام فقال لهم انجولراس

أيها الاخوان ان هذا الشيخ كان خير مثال للفتيان فبينما كنا نتردد أسرع وبينما كنا نحجم أقدم وان الذين يضطربون من الشيخوخة اعظم من الذين يضطربون من الخوف

ان هذا الشيخ الذي مات شهيد الراية عاش عمراً طويلا ومات أشرف موت فلنودع روحه الكريمة ولنبق بيننا يدافع كل منا عن جثته كما يدافع عن أبيه فتصبح متاريسنا أمنع من العقاب

وقد ركع انجولراس فقبل جبهة الشيخ ثم كشف عن جرحه والدم لا يزال يسيل منه فقال للثائرين

هذه هي رايتنا الآن

***

وقد غطوا الشيخ بوشاح اسود واطلقوا حوله البنادق يحيونه تحية الوداع وحملوه بملء الاحترام فوضعوه على مائدة كبيرة في القاعة

ولما مروا به حيث كان جافرت مقيداً قال له انجولراس

سيأتي دورك قريباً أيها الجاسوس

وكان كافروش مقيما في مكان يشرف على الطريق للمراقبة فلم يبرح مكانه لحظة

وفيما هو على ذلك رأى كثيراً من الجنود يمشون متلصصين الى جهة المتاريس فصاح برفاقه قائلا

احذروا

فخرجوا جميعهم من قاعة الخمارة فرأوا بريق حراب الجنود ثم رأوا بعضهم قد دخلوا من مواقع مختلفة

وقد هجم باهوريل أحد الثائرين على جندي فقتله لغدارته ولكنه لم يلبث أن أصيب بغدارة جندي آخر فقتل

وهجم ثلاثة على كورفيراك فجعل يدافع عن نفسه وهو يصيح مستنجداً برفاقه

ومشى جندى يشبه العمالقة الى كافروش فصوب كافروش اليه بندقيته وأطلقها ولكنها لم تنطلق فان جافرت لم يكن قد حشاها أما الجندي فانه ضحك من اندهال الغلام وهجم عليه يحاول طعنه بالحربة

ولكنه قبل أن تبلغ حربته الى صدر كافروش سقطت من يده وهوى مستقلماً الى الارض اذ صابته رصاصة فى جبهته اردته قتيلا

وفي الوقت نفسه اصابت رصاصته افري الذى كان يهاجم كوريفراك فسقط يتخبط بدمه

اما صاحب الطلقين فقد كان ماريوس

***

كان ماريوس جالساً قرب المتاريس يناجي نفسه كما ذكرناه وهو متردد فى أمره لا يعلم ما يصنع

ولبث على تردده الى أن سمع دوى البارود فشي الى المتاريس ثم سمع صوت صديقه كوريفراك يستنجد فركض الى المتاريس ولو تأخر لحظة لقضى على صديقه وعلى كافروش

وكان الجنود قد زحفوا وتسلقوا على المتاريس فبات معظمهم فوقها ولكن لم ينزل أحد منهم الى داخلها اذ كانوا لا يزالون مترددين لخوفهم من أن يؤخذوا اغتيالا بمكيدة

وقد وقفوا ينظرون الى داخل المتاريس دون أن يروا شيئاً لشدة الظلام

أما ماريوس فكان قد أطلق غدارتيه ولم يبق له سلاح فرمى بهما الى الارض

ولكن كان قد رأى رميلا من البارود قرب باب القاعة السفلى من الخمارة

وقد التفت عند ذلك اتفاقا الى ورائه فرأى جنديا قد صوب اليه بندقيته ولكنه رأى فى الوقت نفسه ان يداً قد وضعت على فم تلك البندقية وسدتها فانطلقت الرصاصة وأصابت تلك اليد

أما صاحب تلك اليد فقد كانت تلك الفتاة المتنكرة بثياب الغلمان وقد تكون الرصاصة نفذت من يدها الى صدرها بدليل انها سقطت الى الارض اما ماريوس فلم يصب بشيء

وكان الموقف صعباً فرأى ماريوس كل ماجرى وسار مسرعا إلى جهة البرميل كأنما خطر له خاطر بشأنه لم يجد بداً من الاسراع بانفاذه

اما الثائرون فانهم توقفوا ولكنهم لم يبدعروا وكان الحولراس يصيح بهم قائلا

تمهلوا ولا تطلقوا النار

ذلك لانه كان يخشى أن يصيب بعضهم بعضاً

وقد صعد معظمهم الى الخمارة بحيث باتوا يشرفون على المهاجين

من الوافد حلافا لكودفراك وأصحابه فقد لبثوا في مواقعهم داخل المتاريس

وكان الفريقان متقاربين بحيث يستطيعان ان يتحادثا

وعند ذلك دعاهم أحد القواد إلى التسليم

فاجابه انجولراس انه أمر باطلاق النار

فدوت البنادق من الجانبين فلما انجلى الدخان رأينا كثيرين من الجرحى

وعاد الفريقان الى حشو البنادق وهم لا يزالون في مواقفهم

وعند ذلك سمع صوت من فوق المتاريس يقول

حذوا لقد سقطت لكم المتاريس

فالتفت الجميع جميعهم الى مصدر الصوت

وكان ماريوس قد رأى الجنود يتسلقون المتاريس ورأى رميل البارود عند باب الحانة فخطر له ذلك الخاطر فحمل البرميل الى أعلى المتاريس وجاء بمشعل فادناه من ذلك البرميل وصاح بالجنود قائلا ارجعوا أو أنسف لكم المتاريس

فصاح أحد الضباط قائلا

انك إذا نسفتها نسفت نفسك

قال هو ذلك فاني أريد أن أفتدي بنفسي

وقد أدرك الشعب من ذلك التهديد فذعر الجنود ورجعوا مرتدين

عن المتاريس تاركين فوقها جرحاهم وقتلاهم ولجأ المحصورون من موقفهم الرهيب

***

وقد فرح اصدقاء ماريوس به وجعلوا يعانقونه ويقولون لقد انقذتنا من موت كان محتما

وقال له تراك أما أنا فقد نجوت مرتين

وقال كورفراك لولاك لكانت روحي الآن في وادي بيرشلاز

وقال لهم ماريوس

أين الزعيم

فقال انجولراس من ورائه

وقد طاش صواب ماريوس لهذا الحادث فانه بعد أن كان مدة شهرين يحلم بالسعادة في كوزيت أصبح الآن على قيد شبر من الهاوية الهائلة

فان فقد كوزيت وهذه المتاريس والانتحار مالوف وسبيل الجمهورية والآن رغما للثائرين كل ذلك كان يبدو كحلم حالم وان كان يبذل جهداً عنيفاً ليتأكد أن كل ما يراه حقيقة وان لم يكن من الحالمين

ولم يكن قد رأى جافرت الذي كان لا يزال مقيداً في موقعه ينظر الى كل ما يرى بتسليم الشهداء وجلال الملوك

أما الجنود فانهم لم يعودوا الى الهجوم ولا ندرى أ كانت

احجامهم لانهم كانوا ينظرون أمراً بالهجوم أم انهم كانوا ينتظرون مدداً فأقام الثوار حراساً يراقبون الجنود وأخذ تلميذ طب من الثائرين يعالج الجرحى ويضمد جراحهم بما فيه

وقد احذوا الموائد من القاعة فأضافوها الى المتاريس وجاؤوا بدلا منها بفراش صاحبة الفندق وماوجدوه من الافرشة فوضعوا عليها الجرحى

وعند ذلك استعرفو الثائرين فلم يجدوا بينهم فان روفير وهو صديق حميم لرؤساء العصابة فايقنوا انه أسير وقال كودفراك لاكوفراس

انهم أسروا صديقنا ونحن أسرنا عاملهم حافرت عندى انه يجب علينا انقاده من الاسر

قال كيف سنقده

قال احمل راية بيضاء واخرج الى الجنود فأخابرهم بشأن استبدال أسيرهم بأسيرنا

فوضع يده على كتفه وقال له بلهجة ملؤها الحزن

اسمع

فسمع صوت صديقهم يقول

ليحيى المستقبل . لتحيى فرنسا

وتلا هذا الصوت دوى بندقية

فصاح كودفراك قائلا لقد قتلوه قاتلهم الله

أما انجولراس فقد التفت الى جافرت وقال له

أن اصحابك قد حكموا عليك بالاعدام

***

بعد ان تم الاستعراض خرج ماريوس من القاعة فسمع صوتاً يناديه باسمه وذكر ذلك الصوت الذى ناداه منذ ساعتين حين كان فى الحديقة يبحث عن غوسيت

غير ان هذا الصوت كان الان ضعيفاً خافتاً فالتفت إلى ما حوليه فلم ير أحداً ولكن الصوت تكرر مرتين واقترب منه فنظر فاذا بشبح لم يتبينه وانه يزحف زحفاً اليه كانه لا يستطيع المشى

وكان المشعل بعيداً عنه فرأى على نوره الضعيف غلاماً يلبس بنطلوناً من المخمل وهو ممزق الثياب عارى القدمين

ثم رأى وجهاً أصفر ينظر اليه ويقول له

أما عرفتنى

قال كلا

قالت أنا ايبونين

فانحنى ماريوس وتبين وجه تلك المنكودة فأيقن أنها ايبونين كانت مرتدية بملابس الغلمان وقال لها

ماذا تصنعين هنا

قالت انى أموت

فذعر ماريوس وقال لها

ألملك جرحها . . اصبرى وسأحملك إلى القاعة فيضمدون جرحك. أنها بسيط .. انى لا أرى وكيف أحملك دون أن تتألمى من أين تتألمين . ومن أتيت تحملين هذا

وقد حاول أن يحملها فأصاب يده يدها وصاحت متألمة فقال لها أألمى آلمتك

قالت قليلا

قال ولكنى لم ألمس غير يدك

ورفعت يده، فرأى فى كمها ثقباً أسود فقال لها

ماهذا الذى بيدك

— انها محترقة

— كيف حرقت

— من رصاصة نفذت اليها

كيف كان ذلك

— ألا تذكر انك رأيت بندقية مصوبة اليك

— نعم واذكر أن يداً سدتها

— ان هذه اليد كانت يدى

فارتعد مما سمع وقال لها

ماهذا لجنون . ولكنى أرجو أن يكون الامر بسيطا فان جرح اليد لايقتل وسأضمد جرحك

أن الرصاصة اخترقت يدى ونفذت من ظهرى فلا فائدة من

نقلى من هنا ومن صمد جراحي وسأقول لك كيف تفلح بضمد جرحى أكثر مما يفلح الطبيب فاجلس بجانبي على هذ الحجر

فامتثل فوضعت رأسها على ركبته وقالت له دون أن تنظر اليه

يا لله ما اسعدنى فاني لا اشعر الآن بشيء من الالم

ثم نظرت اليه وقالت

أتعلم يا موسيو ماريوس ان قلبي كان ينتظر حين كنت اراك تدخل الى تلك الحديقة مع إنى ارشدتك اليها وهذا من غرائب القلب فى اسراره

وبعد فلا بد لى أن اقول لنفسي فان كان فتى جميلا مثلك .

ثم ابتسمت ابتسامة حزن لا يوصف وقالت

الا ترى قبيحة شمطاء أليس كذلك .. وبعد فان هنالك لامحالة امرا لا يستطيع أحد الخروج من هذه المتاريس .. وأنا التي دعوتك الى الحضور الى هنا . انى اعتقد انك ستموت هنا ومع ذلك فأنى حين رأيت البندقية مصوبة اليك سددت فمها بيدى فهل وجدت أغرب من هذا

وما ذلك الا لأني أردت أن أموت قبلك فلما اصبت بهذه الرصاصة جررت نفسي الى هنا فلم يرونى حين نقلوا الجرحى . وكنت انتظر ان تمر بى فرأيتك أما وقد رأيتك فقد اصبحت بخير وزالت آلامى .. أتذكر ذلك اليوم الذى دخلت فيه الى غرفتك ونظرت وجهي في مرآتك ثم اتذكر حين لقيتك فى الشارع

واعطيتنى ريالا فقلت لك انى لا أريد مالك . فهل أخذت الريال عن الارض لست غبياً ولم أقل لك انى تركته على الارض

لقد كانت الشمس يومئذ ساطعة ولم يكن الطقس باردا أتذكر ذلك يامسيو ماريوس . . . أواه كم أنا سعيدة فان جميع الناس سيموتون

وكانت تتكلم وهى واضعة يدها على صدرها موضع الرصاص والدم يسيل من جرحها وكان ينظر اليها بملء الاشفاق

وقد اشتد بها الالم فأخذت يدها وعضتها وعند ذلك سمعت صوت كافروش يغنى نشيداً حماسياً فقالت

هذا هو .. هذا أخي . لا أحب أن يراني فانه يوبخني

فذكر ماريوس وصية أبيه بشأن تنارديه وقال لها

من هو أخوك

قالت هذا الغلام

— الذى يغنى

— هو بعينه

فحاول النهوض فاستوقفته قائلة

ربك لا تذهب فقد دنت الساعة اصغي الي فان لك رسالة محفوظة في جيبي منذ أمس وقد قيل لى أن أضعها في صندوق البريد ولكنى لم أفعل لانى لم أكن أريد ان تصل اليك فلا تحقد على وخذ رسالتك . . .

ولكني لا أستطيع مد يدي . . فمد يدك وخدها من جيبي

فمد يده وأخرج الرسالة فقالت

والآن لم يبق لي الا أن تعدني وعداً

— مادا تريدين أن أعدك

— قل أتعدني

— نعم

— عدني أن تقبل جبهتي حين أموت فاني أشعر بقبلتك ولو كنت ميتة

وقد تدحرج صدرها عند ذلك عن ركبته وانطبقت عيناها فحسب ماريوس أنها أسلمت الروح ولكنها عادت ففتحت عينيها ببطء وقالت له بصوت لم يكد يسمعه

لا تنس

ثم أطبقتهما وهي تبتسم ولفظت النفس الاخير

***

وقد وفى ماريوس بوعده وقبل جبين تلك المنكودة وذكر عند ذلك الرسالة التي أعطته اياها فلم يصبر على قراءتها فذهب الى المشعل فرأى عنوانها كما يأتي

الى الموسيو ماريوس مونمارسي في شارع الزجاج نمرة ١٦

ثم فض الختم ولم يكن يعرف خط غوسيت بعد فقرأ هـذه السطور

« حبيبي ماريوس

« وا أسفاه ان أبي حكم بان نسافر في الحال وسنكون هذه الليلة في شارع الرجل المسلح نمرة ٧ وفي خلال ثمانية أيام نكون في

« لندرا . في ٤ حزيران

غوسيت

وتفصيل الذي جرى أن أيبونين كانت السبب في كل ماحدث فقد كان لها غرضان أحدهما أن تمنع أباها وعصابته عن الدخول الى منزل غوسيت في شارع بليميت

والثاني أن تفصل ماريوس عن غوسيت فتنكرت بملابس الغلمان وهي التي أعطت جان فالجان حين كان في احدى الحدائق العمومية تلك الورقة التي تقول له فيها « أخرج من منزلك »

فعاد جان من فوره الى منزله وقال لغوسيت

اننا نبرح الليلة هـذا المنزل الى شارع الرجل المسلح تصحبنا الخادمة وفي الاسبوع القادم نكون في لندرا

فاضطربت غوسيت لهذه السرعة التي لم تكن تتوقعها وكتبت على عجل تلك الرسالة الى ماريوس

ولكنها لم تجد طريقة لارسالها الى البريد فانها لم تكن تخرج

وحـدها وهي تخشى اذا عهدت بايصالها الى الخادمـة أن تطلع أباها عليهـا

وفيما هى مترددة لاتعلم ماتفعل رأت أبونين بملابس الغلمان ترود حول الحديقة فحسبته غـلاما فنادته وأعطته ريالا وأعطته الرسالة على أن يوصلها الى مركز البريد

فوضعت أبونين الرسالة فى جيبها وذهبت فى اليوم التالى الى منزل كوديفراك فسألت عن ماريوس ليس لتعطيه الرسالة فقد حالت الغيرة بينها وبين هذا القصد بل انها كانت تريد أن تراه

ولما علمت من كوديفراك انهم داهبون الى المتاريس اقتفت أثره اذ خطر لها خاطر حتى علمت موضع المتاريس

وكانت واثقة أن ماريوس لا بد له أن يذهب في الليـل الى شارع بليميت لانه لم يأخـذ رسالة غوسيت فذهبت الى ذلك الشارع وانتظرت ماريوس حتى اذا رأته فى الحديقة قالت له ان أصحابك ينتظرونك فى المتاريس اذ كانت تعتمد على يأسه وانه حين لايجد غوسيت لا بد له من موافاة أصحابه

وقد عرف القراء ما كان منها فقد كان كل مرادها ان تدفعه الى الموت وان تموت بين يديه

أما ماريوس فانه قبل رسالة غوسيت وخطر له عند ذلك أنها تحبه فلماذا يموت

ولكن هذا الخاطر كان كلمع القبس ولم يدم الا كما يدوم رجع النفس اذ قال في نفسه

ان أباها مسافر بها الى انكلترا وان جدي يأبى أن يأذن لي بزواجها وان الشرائع تمنعني عن الزواج بها دون مصادقة جدي قبل أن أبلغ خمسة وعشرين عاما من العمر اذن لم يبق بد من الموت

وقد رأى أنه بقي عليه واجبان لابد من قضائهما أحدهما أن يكتب الى غوسيت يخبرها بموته ويودعها الوداع الاخير

والثاني ان ينقذ كاروش من خطر المتاريس بعد ان علم من أخته أن ابن تارديه

وكان يوجد معه دفتر في جيبه فانتزع منه ورقة وكتب عليها بالقلم الرصاص ما يأتي

« ان قرانا محال فقد التمست من جدي الاذن بزواجنا فأبى وقد ذهبت اليك فلم أجدك

« وأنت تعلمين اليمين التي اقسمتها فاعلمي إني أموت وأنا أحبك

« وبعد ما تقرأين هذه السطور تكون نفسي تنظر اليك من عالم الارواح وهي تبتسم لك »

ولم يكن لديه شيء يختم به الرسالة فطواها وكتب عليها هذا العنوان

« الى المدموازيل غوسيت فوشلفان شارع الرجل المسلح نمرة ٧ »

وبعد ان كتب العنوان فتح دفتره وكتب على أول ورقة منه

— « إني ادعى ماريوس مونتمرسي خذوا جثتي إلى جدي المسيو جلنورماند في شارع كالفير نمرة ٦ »

وقد أعاد الدفتر الى جيبه ونادى كافروش فأسرع الى تلبيته فقال له اني محتاج اليك في أمر فهل تريد قضاءه

قال بل أسفك دمي في سبيلك فاني مدين لك بالحياة

قال أترى هذه الرسالة التي في يدي

قال نعم

قال خذها واخرج في الحال من المتاريس وعند الصباح تدفعها الى صاحبتها المقيمة في شارع الرجل المسلح نمرة ٧ واسمها غوسيت فوشلفان

قال ولكنهم يأخذون المتاريس في خلال ذلك ولا أكون موجوداً

قال انهم لا يعودون إلى مهاجمة المتاريس قبل الصباح ولا يمكن أن يستولوا عليها قبل الظهر

قال إذن اذهب في الصباح وأوصل الرسالة

قال كلا اذ أخشى أن يموت الاوان فانهم قد يطوقون

المتاريس الليلة فلا يبقى سبيل الى الخروج منها فاذهب الآن

فلم يستطع كاموش دفع حجته ووقف وقفة المتردد وهو يحك أذنه

ثم أخذ الرسالة فجأة

حسناً سأمتثل لما تريد

وقد كان خطر له خاطر تحاشى أن يذكره لماريوس حذراً من أن يعترضه

وهذا الخاطر هو أن يذهب فى تلك الساعة فان الليل لم ينتصف بعد فيوصل الرسالة ثم يعود الى المتاريس

***

كان جان فالجان فى تلك الساعة على أشد حالات الاضطراب

وكان قد ذهب بغوسيت والخادمة الى شارع الرجل المسلح بعد أن حاولت غوسيت مراراً أن تثنيه عن عزمه فلم تفلح

وكان جان شديد الاضطراب فلم ينتبه لكآبة غوسيت وكانت غوسيت شديدة الحزن فلم تنتبه لاضطراب جان

وكان قد صحب معه الخادمة وهو ما لم يكن يفعله من قبل مما يدل على انه قد لا يعود الى شارع بيلميت

وفي اليوم التالي ادعت غوسيت انها مصابة بصداع فلم تبرح غرفتها وأقبلت الخادمة بعد أن جاءت بحاجات المنزل من السوق فقالت

يظهر ان الثورة ناشبة فى باريس وانهم يتقاتلون

فاضطرب جان لهذا النبأ وجعل يمشى من النافذة الى الباب ومن الباب الى النافذة وهو مشتت البال ساهي الطرف فقد كان يفكر فى أمره فيرى تارة أن العناية قد راقبته عيونها فأصبحت كل مخاوفة أمانا وتارة يرى انها تخلفت عنه فيرى الدنياقد اظلمت فى عينيه وتبدل أمانها خوفاً فيطمئن حين يفتكر انه سيذهب الى لوندرا ويقول فى نفسه

أى فرق عندى بين أن أكون فى فرنسا أو فى انكلترا ما زالت غوسيت معي فقد كانت غوسيت كل وطنه وكل حياته

وكان يمشي وهو يهيء فى فكره معدات السفر

وبينما كان يمشى على هذا الشكل نظر اتفاقاً الى مرآة فوقف هنيهة منذهلاثم تحول انذهاله الى ذعر فأنه رأى في تلك المرآة هذه الكتابة منعكسة فيها وهى

« أيها الحبيب

« وا أسفاه أن أبي يريد أن نسافر فى الحال وسنكون هذه

« الليلة فى شارع الرحل المسلح نمرة ٧ وبعد ثمانية أيام نكون

« في لوندرا . فى ٤ حزيران

« غوسيت »

والسبب فى انعكاس هذه الرسالة التى كتبتها غوسيت الى ماريوس على وجه المرآة هو أنها حين كتبت تلك الرسالة نشفتها

بورقة من الورق النشاف فانطبعت صورتها منعكسة على الورقة

وقد نسيت تلك الورقة على منضدة تجاه المرآة فانطبعت صورتها فى المرآة منعكسة عن الحروف المنعكسة بحيث بانت فى المرآة مستقيمة

وقد حار في البدء كيف وجدت هذه السطور على المرآة الى أن علم بعد البحث انها من النشافة فاخذ تلك الورقة وجعل يتمعن فيها فعرف أن الخط خط غوسيت

فلما تيقن من ذلك سقطت الورقة من يده وسقط هو خائر القوى على الكرسي وجعل يئن أنين الموجع

ومن الغريب أن ماريوس لم يكن قد اطلع بعد على هذه الرسالة المرسلة اليه فوقف عليها جان فالجان قبله

وكان هذا الرجل لقي فى حياته كل أنواع الشقاء على اختلافها . فكان يحتملها بالصبر والسكينة ولم يكن يكترث لها . ولكن من يبحث فى أعماق نفسه هذه الساعة لوجد أن هذه الرسالة قد اثرت فيها اضعاف ما اثرت به مصائبه فى كل ما مر به من أدوار الحياة

فان جان فالجان لم يكن يحب غوسيت إلا كما يحب الأب بنته كما سطناه فى غير هذا الموضع ولكنها كانت كل حياته ولم يكن يعرف قلبه الحب قبل أن احبها فكان يعبدها عبادة وكل مكان يقيم معها فيه يكون عنده بمثابة جنة الفردوس

وهى الآن تحب سواه وستفارقه فتعيش مع من تحب وتفرغ

من قلبها مكان الأب ليحل فيه العاشق فشعر أن الارض تميل به وجعل يتنهد تنهداً يخرج من صدره زفرات متقطعة تشبه الأنين

وفيما هو على ذلك دخلت الخادمة فسألها قائلا

أتعلمين فى أي مكان

فذهلت الخادمة وقالت

ماذا تقول يا سيدى

قال ألم تقولى منذ هنيهة انهم يتقاتلون

قالت نعم وذلك في جهة سانت مارى

فتركها وبعد هنيهة كان جان عند باب منزله يفتكر وهو حاسر الرأس وقد ساد الظلام

***

ولم يدر كم أقام وهو على هذه الحالة ولم يستفق من ذهوله إلا حين سمع وقع خطوات تقربه فالتفت فرأى غلاماً يسير فى تلك الجهة وهو ينظر الى ابواب المنازل باحثاً عن نمرها

وكان هذا الغلام كافروش جاء الى هذا الشارع ليوصل الرسالة الى غوسيت بأمر ماريوس كما تقدم

فاستوقفه جان فالجان وقال له

ما شأنك أيها الصغير وماذا تريد

قال شأنى انى جائع ولا أجد طعاماً وبعد فأنت الصغير

فمد يده الى جيبه فأخرج ريالا ودفعه اليه

أما كافروش فأنه التقط حجراً عن الارض إذ وجد مصباحاً منيراً معلقاً في الجدار وقال

ألا تزال مصابيحك منيرة ونحن نسفك دماءنا في الظلام ثم رمى المصباح بالحجر فحطمه وقال

هذا هو الثاني والتسعون

فقال جان كأنه يخاطب نفسه

مسكين انه جائع

ثم ناوله الريال

فأخذه كافروش وجعل ينظر الى ذلك الريال بملء الاعجاب اذ لم يكن رآه قبل الآن الا بعين السمع

ثم رده اليه وهو يقول

اذا كنت أعطيتني الريال كي لا أكسر المصابيح فخذ ريالك بارك الله لك فيه فما أنا من الذين يرتشون

قال أليس لك أم

قال نعم

قال اذن خذ الريال لامك

وقد رآه كافروش دون قبعة فوثق به بعض الثقة وقال له أحق أنك لا تريد بهبتك أن تمنعني عن كسر المصابيح قال فاكسر ماتشاء

قال اذن أنك رجل كريم الاخلاق

وقد زادت ثقته به فسأله قائلا

هل أنت من أهل هذا الشارع

قال نعم لماذا

— هل لك أن ترشدني الى المنزل السابع في هـذا الشارع

ماذا تريد منه

فتوقف متردداً ورأى جان تردده فقال له

ترى هل هو أنت القادم الي برسالة أنتظرها

— أنت . . كلا فاني قادم برسالة الى امرأة وما أنت من النساء

— ولكن الرسالة للمدام مواريل غوسيت أليس كذلك

— غوسيت . . نعم أظن أن هذا هو اسمها

— حسنا فهات الرسالة فانا الذي ينتظر قدومك بها لاعطيها اياها

— اذا كان ذلك فانت تعلم اني قادم من جهة المتاريس

— دون شك

فأخرج كافروش الرسالة من جيبه ورفع قبعته فانحنى وقال

يجب احترام هذه الرسالة فانها واردة من الحكومة الموقتة

— هاتها

— ولا تظن ياسيدى أنها رسالة غرام فانها وان تكن مرسلة الى امرأة لكنها لخدمة الشعب

— هاتها

— الحق انك كريم الاخلاق

— اسرع وهات الرسالة

— خذها واسرع ياسيدى بايصالها فان مدموازيل غوسيت

تنتظرها بفارغ الصبر

— الى أين نرسل الجواب ألى سانت مارى

— اذا كان لها جواب فاحمله أنت فاني مستعجل وقد أتيت بها من المتاريس فى شارع شفريرى وأنا عائد اليها

ثم تركه وأنطلق يركض عائداً الى المتاريس

كان انجولراس قد خرج للاستطلاع فى شارع مونديتور . وكان رجاء الثائرين وطيداً بالخروج فائزين من هـذا المعترك فان صدهم هجوم الجنود أحيي في قلوبهم هذا الرجاء

ثم انهم كانوا ينتظرون المدد ويعتمدون عليـه كل الاعتماد ويتوهمون أن يصدواق الصباح كل هجوم وان يهب الباريسيون بجملتهم عند الظهر وان تنشب الثورة بكل معانيها فى المساء

على أن انجولراس لم ير شيئاً من هذا فى استطلاعه فعاد الى المتاريس حيث كان رفاقه وقال

ان جميع جيش باريس قداشترك فى القتال وان ثلث هذا الجيش خصص لهدم المتاريس التي أنشأناها وان الحرس الوطنى قد اتحد أيضاً مع الجيش علينا وسيهاجموننا بعد ساعة

أما الشعب فقد هاج أمس ولـكنه عاد اليوم الى السكينه فلم يبق لنا رجاء بأحد

فوقع هذا الكلام وقع الصاعقه على الثائرين واشتدت الحماسة بواحد منهم فقال

لنرفع المتاريس عشرين قدما أيضا ولنبق فيها ولنظهر للعالم أجمع انه اذا كان الشعب قد تخلى عن الجمهوريين فان الجمهوريين لا يتخلون عن الشعب

فكان لهذا الكلام الحماسي تأثير عظيم على الثائرين ولم يكن أحد منهم يعرف قائله فصاح كثيرون منهم قائلين

ليحيي الموت .. لتحيي الجمهورية .. لنبق كلنا هنا

فاعترضهم أنجولراس قائلا

لماذا كلنا

— كلنا . . كلنا

— ان المتاريس منيعة والذخيرة كافيـة وان ثلاثين رجلا يكفون لمهمتنا فلماذا نضحي أربعين

— لانه لا يوجد بيننا من يريد الذهاب

— أيها المواطنون الاخوان أن الجمهورية الآن فقيرة بالرجال فلا يسعها أن تجازف بهم مجازفة لا فائدة منها فاذا كان لبعضنا واجبات تقضي عليه بالذهاب فلا بد من اتمام هذا الواجب كسواه من الواجبات

فجعلوا يتململون واستاء أنجولراس مما رآه منهم فقال ان من كان يخاف منكم ان يبقى ثلاثين فليقل

فكثر اللغط ومع ذلك فقد قال واحد منهم ان ما تقوله لسهل ولكن تنفيذه صعب فان المتاريس مطوقة

— انها مطوقة من كل جهة ماخلا جهة سوق الخضر

— وان من يخرج من هـذه الجهة المطلقة لا يأمن الوصول الى حيث يريد فانه لا يسير بضع خطوات حتى يقبضوا عليه ويسألوه من أين أتى ويعلموا أنه قادم من المتاريس فيحكمون عليه بالاعدام

فلم يجبه انجولراس بل انه لمس كتف كوديفراك ودخل واياه إلى قاعة الخمارة

وبعد هنيهة عاد انجولراس يحمل أربع بدلات فالقاها على الارض وقال ان اربعة منا يستطيعون الخروج آمنين اذا لبسوا هذه البدلات واعلموا ان الشفقة لابد منها وان من كان له امرأة أو أم أو أخوات أو بنون لا يحق له أن يعرض نفسه للموت فانه بموته يميت سواه فافتكروا بشعور أولادكم الشقراء وشعور أمهاتكم البيضاء

وقال ماريوس لقد أحسن انجولراس بما قاله واني أوافق على ماارتآه واطلب سرعة الاجراء فمن كان منكم له أم أو أخت أو امرأة أو بنون فليخرج من صفنا فان بقاءه بيننا حرام

فلم يخرج أحد

فعاد ماريوس فقال

ليخرج من الصف كل متزوج وكل معين لعيلته

وقال انجولراس اني آمركم

وقال ماريوس وأنا أرجوكم

فتأثروا من كلام الاثنين وجعل كل منهم يكشف أمر رفيقه فيقول انك رب عيلة فاذهب فيجيبه بل انت لك احتان تعولها فاذهب واشتد المرج بينهم فقال انجولراس

عينوا أنتم بانفسكم من يجب عليه الانصراف

وبعد هنيهة وقع الاختيار على خمسة فخرجوا من الصف وقال ماريوس انهم خمسة وليس لنا غير اربع بدلات فماذا نصنع

فقالوا هو ذاك إذن يجب على واحد منا أن يبقى

وهنا عادوا إلى المناقشة والجدال وماريوس يحثهم على الاسراع فلم يقع اختيارهم على واحد

حتى اذا عجزوا قالوا لماريوس

لم يبق الا اننا نعهد اليك باختيار واحد منا

وأية مهمة أصعب من هذه المهمة على ماريوس فانه كان واثقاً ان لانجاة لاحد من المتاريس وان من يختاره للبقاء فيها يكون قد حكم عليه بالموت

وقد وقف ينظر اليهم وهم يبتسمون له وكل منهم يقول أنا وهو لايعلم ماذا يصنع

الى ان صاح بغتة صيحة دهش وقال

هوذا ثوب قد هبط علينا من السماء فصار عدد الاثواب خمسة ولم يبق حاجة للنزاع

ذلك انه رأى ثوبا من ملابس الحرس الوطني قد سقط عند

قدميه فالتفت الى راميه فوجد انه فوشلفان والد غوسيت

وكان جان فالجان قد دخل الى المتاريس وهو يلبس ملابس الحرس الوطني التي سهلت له المرور فلما سمع ما كان من حداثهم وعلم انه يقصهم ثوب خلع ثوبه ورماه عند قدمي ماريوس

ودهل المحصور مما رأوه فقال الجولراس من هذا

فاجابه كمفر انه رجل ينقذ الناس

وقال ماريوس لا خوف منه فاني أعرفه

فكانت شهادة ماريوس كافية فاستقبله الجولراس مرحباً به ثم قال له أتعلم أيها المواطن انما سموت هنا

فلم يجبه جان فالجان وشغل عن الجواب باعانة الرجل على لبس ثوبه

***

وخرج الخمسة من المتاريس بملابس الحرس الوطني وهم يبكون وجعل ماريوس يفكر بجان فالجان وهو لا يعلم كيف اتفق وجوده هنا ولماذا أتى

أما جان فانه لم يكلمه كلمة حتى انه لم ينظر اليه حين قال انه يعرفه

وبعد خروج الخمسة من المتاريس افتكر الجولراس بجافرت الاسير فدخل اليه وسأله قائلا

هل انت محتاج الى شيء

فاجابه حافرت قائلا

متى تقتلوننى

قال انما لانزال الآن فى حاجة الى الرصاص

قال إذن اغثنى بشربة الماء

فجاءه بكاس ماء و طانه على شربها فقال له

لو كنتم من أهل الرفق لما تركتمونى ملقياً على هذا البلاط فقيدونى كما تشاؤن ولكن ضعونى فوق المائدة على الاقل كما وصعتم هذا مشيراً الى مالسوف

فأمر انحولراس بعض الرفاق فحملوه الى المائدة وربطوه فوقها وبينما هم يقلونه رأى جان فالجان واقفاً في الباب ينظر اليه فلم يخف ولم يضطرب بل قال

هذا عدل فلكل دوره في هذا الوجود

* *

ولنعد الآن إلى كافروش فانه بعد أن أعطى الرسالة الى جان فالجان وهو يحسب انه اعطاها الى بواب منزل ذوميت خرج من ذلك الشارع وهو يغنى

وفيما هو ذلك توقف هنيهة عن الغناء اذ رأى في الطريق مركبة من مركبات النقل التى تجر بالايدى ورأى فيها رجلا نائما عرف من غلظته انه سكران

فقال فى نفسه لقد لاحت لى فرصة لابد من اغتنامها فان هذه المركبة تنفعنا فى المتاريس فلنأخذ المركبة للجمهورية ولندع السكران للملكية

وقد أخذ بعد ذلك يدفع الرجل من رجليه ويزيح المركبة فرأى انه لايستفيق من سكره ولو اطلقت بقربه المدافع فحمله وألقاه على البلاط

وقبل أن يذهب بالمركبة أخذ من جيبه ورقة فكتب عليها بالقلم الرصاص مايأتى

« الجمهورية الفرنساوية
هذا وصول بمركبتك »

« كافروش »

ثم وضع هذه الورقة فى جيب السكران وأوكر ساعدى المركبة بين يديه ومشى بها عائداً الى المتاريس

وكان فى ذلك خطر عليه فان صوت العجلات على البلاط ينبه الحراس اليه ولكن لم يبال بل أخذ يتذكر الى أين وصل بنشيده الذى كان ينشده قبل أن يلتقي المركبة فتذكر وعاد إلى الانشاد بملء صوته

وكان هناك حارساً مقيما فى كوخه فسمع النشيد فخيل له أن عصابة تسير بهمائها الخرسة

ومع ذلك فقد تشجع وخرج من كوخه كي يستطلع حلية

الامر فلم ير غير كافروش يجر تلك المركبة!

أما كافروش فانه حين رأى ذلك الرجل علابس الجنود وحربته تلمع فى رأس بندقيته توقف مكرها عن اتمام نشيده وحياه التحية العسكرية وقال السلام على حارس الامن العام

فقال له الجندى الى أين أنت ذاهب أيها الوقح

قال إني لم اهنك بعد فلماذا تهينني

— إلى أين أيها الخبيث

— الحق يا سيدى انك كنت أمس من أهل العقل ولكن العقل انكرك اليوم

— إنى اسألك إلى أين تذهب أيها الجرو

— انك تسمني بالجرو وأنا لا أسألك عن عمرك وعندى أنه خير لك لو بعت كل شعرة من شعرك بمائة فرنك لكان لك خمسمائة فرنك

— إلى أين . . إلى أين تذهب أيها اللص

— أن القيء لا يزال يخرج من فمك فأمسحه

فصوب الجندى بندقيته اليه وقال له

أجبنى إلى ما أسألك عنه أيها الشقى أو أقتلك

قال إنى ذاهب ياسيدى الجنرال الى الطبيب كى أعود به الى زوجتى فانها تلد

فهجم عليه الجندي ونظر كافروش الى موقفه بسرعة التصور

فخطر له أن ينجو بتلك المركبة التي كانت السبب في اهلاكه فرجع بها خطوتين كي يتحفز للوثوب ودفعها بملء قوته الى الجندي فاصابت بطنه وانقلب الى الارض وهي فوقه فلم يكد ينهض من تحتها حتى كان كافروش قد نهب الارض وتوارى عن الانظار

ولما وصل الى المتاريس كانت المعركة في أبان احتدامها وكان الجنود يطلقون المدافع عليها بدلا من البنادق والثائرون في اشد اهتمامهم فلم ينتبه أحد الى دخوله ماخلا ماريوس

***

وسر ماريوس الى أن لاحت له فرصة فدعاه اليه وقال له بلهجة المعنف لماذا اتيت الى هنا

قال لعمري السبب الذي اتيت أنت من اجله

قال هل أوصلت الرسالة الى الأهل

قال ان الصبية كانت نائمة فاعطيتها الى البواب ليعطيها أياها في الصباح

وكان غرض ماريوس من ارساله لايصال الرسالة الى غوسيت ابعاده عن الخطر

... أن يرسل الرسالة اليها وحده. أما ... في المتاريس شغل باله ... ماريوس ... وقال له اتعرف هذا الرجل

... كان

... كافروش ... ماله لم ... إلا في الليل فلم ...

وهنا انقطع الحديث بينهما لاضطراب الثائرين فان الذخائر كادت تنفد والمدافع أوشكت أن تهدم المتاريس

وكان من حين الى حين يتسلق أحد الجنود المتاريس كي يستطلع ما في داخلها فيصوب جان فالجان بندقيته اليه فلا يصيب إلا قبعته فينزل الجندي هاربا

وقد تكرر ذلك مراراً فكان جان فالجان يطلق النار على الجندي ولا يصيب غير قبعته حتى انتبه الثائرون وأيقنوا ان هذا الرجل يفعل ذلك حصيصاً وسأله أنجولراس قائلا

لماذا تعف عنهم ولا تقتلهم

فما أجابه وانصرف الى الدفاع فكان الجميع معجبين به غاية الاعجاب فانه أبلى خير بلاء في هذه الحرب وعرض نفسه مراراً لخطر الموت في سبيل افتداء الثائرين

أما كافروش فانه حين رأى اضطراب الثائرين من نفاد الذخيرة دخل الى الخمارة وعاد بسلة فارغة فسار بها مسرعاً الى باب المتاريس فخرج منه فاسرع اليه ماريوس وقال له ماذا تصنع

قال لا شيء سوى انى أملأ هذه السلة

قال ويحك ارجع ألا ترى الرصاص

قال انى أراه ينهمر كالمطر وبعد ذلك

قال ارجع

قال اني راجع في الحال

وكان قد ملأ سلته من رصاص الجنود القتلى وعاد بها جميعه الى المتاريس

ثم رجع الى ما كان عليه غير مكترث لنداء ماريوس فانصب عليه الرصاص فكان يراه يتساقط على القتلى فيقول ياويحهم انهم يقتلون مولاى

وأخذ يجمع الرصاص فيضعه فى السلة والجنود لا يفتأون يطلقون عليه النار فيخطؤنه وهو غير مكترث لهم يفى الى أن أصابته رصاصة فسقط على الارض وسقطت السلة من يده فصاح جميع من فى المتاريس صيحة واحدة ورأوا الدم على وجهه ثم رأوه استوى جالساً وعاد الى العمل فأصابته رصاصة أخرى قضت عليه القضاء المبرم فانقطع صوته ووقع قتيلا فذهبت نفسه الصغيرة الكبيرة إلى مبدأها

***

أما ماريوس فانه اسرع راكضاً اليه يتبعه كوديفراك ولكنهما وصلا بعد فوت الاوان فعاد كوديفراك بالسلة وعاد ماريوس بالغلام وقد حمله على كتفه كما فعل أبوه بأبيه

غير أن الفرق بينهما أن تناردييه حمل أباه فى واترلو واخرجه من المعركة حياً وهو حمل ولده في حرب المتاريس وأخرجه ميتاً ولما عاد ماريوس الى المتاريس كان وجهه مصبوغاً بالدم فانه

أصيب برصاصة في جبهته وهو يحمل العلام فاسرع كوديفراك فانتزع رباط رقبته وعصب بها جبهة ماريوس .

أما كافروش فقد وضعوه على المائدة بجانب مالبوف فقد كانت كبيرة تتسع لاثنين ووزع كوديفراك الرصاص على الثائرين فنال كل منهم خمس عشرة رصاصة

وبعد ذلك قال لماريوس اننا نقسم الزعامة بيننا فابق انت في المرتفعات فتأمر باطلاق النار حين الاقتضاء وانا اتولى هنا التنفيذ

والتفت لجافرت فقال له

لا تحسب إني أنساك

ثم وضع بجانبه على المائدة غدارة وقال لرفاقه

على آخر من يخرج من هنا أن يقتل هذا الجاسوس

فقال واحد منهم أنقتله هنا

قال كلا فلا نضمه مع قتلانا ولا ندنس دماءهم بدمه بل نحمله الى الزقاق وعلو المتاريس هناك لا يزيد على أربع اقدام فنعدمه هناك وبعد ذلك دنا جان فالجان من الجاسوس وقال له

أأنت الزعيم

قال نعم

قال أتذكر انك شكرتني مرتين

قال نعم إني شكرتك ولا أزال اشكرك باسم الجمهورية فانك منقذنا أنت وماريوس

— أتحسب إني أستحق مكافأة

— دون شك .

— إذن أرجوك أن تكافأني

— بماذا

— بأن تدعني أقتل هذا الرجل بيدي

فنظر جافرت اليه نظرة لا تدل على شيء من الحمد وقال

هذا حق

أما أنجولراس فانه قال له

إذا كان هذا كل ماتطلبه لا تكون قد كافأناك بل تكون قد زدت جميلك علينا

قال لا أطلب غير أن أتولى بيدي قتل هذا الجاسوس

قال هو لك وحده

وعند ذلك صاح ماريوس من موقفه قائلا

اسرعوا

فأمر انجولراس الجميع أن يخرجوا

فقال لهم جافرت الى اللقاء

ثم التفت إلى جان فالجان وقال له على السكينة

لا تحسب أن موقفك يفضل موقفي

***

وقد خرج الجميع من القاعة ماخلا جان فالجان فلما خلا فيها بجافرت حل قيده الذى كان يربطه الى المائدة وقال له قم

فامتثل جافرت وهو يبتسم ومشي جان فالجان به وهو يقوده كما يقودون الحيوان للذبح فخرج به من القاعة الى السور المشرف على الزقاق

وهناك جاء بمائدة فوضعها تحت الجدار واصعده عليها ثم صعد فى أثره فحمله وألقاه من فوق الجدار ووثب بعده

وبعد ذلك وضع جان غدارته تحت ابطه ونظر الى جافرت محدقاً فقال له جافرت جافرت هذا أنا

فأجابه قائلا

لم يبق عليك إلا أن تأخذ بثارك

فأخرج سكينا من جيبه ودنا منه فقال له جافرت

لقد احسنت فأن الذبح أولى بي وأشفى لغلك

أما جان فأنه قطع بالسكين قيود يديه ورجليه وقال له إذهب فأنت حر طليق

ولم يكن جافرت من الذين يندهلون لأمر من الامور ولكن حين سمع قول جان فالجان لم يصدق ما سمعه وحسب نفسه حالما فلبث جامداً فى مكانه دون حراك

أما جان فأنه مضى في حديثه فقال

لا أظن إنى أخرج حياً من هذه المتاريس ولكن إذا قدر لى النجاة منها فاعلم انى اقيم فى شارع الرجل المسلح نمرة ٧ وانى انتحلت لنفسي اسم فوشلفان

فقطب جافرت حاجبيه وحرق اسنانه وقال

إحذر

— إذهب

— أقلت فوشلفان شارع الرجل المسلح

نمرة ٧

فتردى ثوبه ومشى خطوتين الى جهة سوق الخضر ثم عاد الى جان فالجان

وقال له

أنك أرهقتنى فأقتلنى

قال إذهب وكفى

فمشى جافرت مشياً بطيئاً حتى اذا توارى عن انظار جان احذ غدارته فأطلقها فى الهواء

ثم دخل الى المتاريس وهو يقول لقد قضى الامر

ولقد كان ماريوس واقفاً فى المرتفعات كما قدمناه ولم يكن قد رأى وجه جافرت فى الليل فلما رآه فى النهار مع جان فالجان وهو ذاهب للموت عرفه وذكر انه هو الذي اعطاه الغدارتين فى حادثه تنارديه ولكنه كان مضطرب البال غير واثق كل الثقة

من هذه الذكرى وقد خطر له أن يتداخل فى امره وينقذه ولكن يجب قبل ذلك ان يثق انه هو نفس جافرت مفتش البوليس فنادى انجولراس وسأله قائلا

من هذا الرجل الذى ستقتلونه

قال هو مفتش البوليس السرى

— أتعرف اسمه

— دون شك فانه يدعى جافرت

وعند ذلك دوت غدارة جان فالجان فى الزقاق ثم دخل وقال لقد قضى الامر فاضطرب ماريوس ولم ينبس بكلمة

***

وحمى وطيس القتال فقتل كثيرون من الفريقين ولم يبق فى المتاريس سوى سبعة رجال بينهم ماريوس وانجولراس وجان فالجان وخربت قنابل المدافع المتاريس ودخل الجنود اليها يتقدمهم أحد الضباط فقتله انجولراس ودخل مع رفاقه الى الخمارة واقفل بابها

وبقى ماريوس في الخارج فأصيب برصاصة كسرت ترقوته وقد شعر انه أغمي عليه وان يداً قوية حملته ولم يعد يعى على شيء

أما الجنود فأنهم كسروا باب الخمارة وقتلوا انجولراس وكل من كان فيها

أما ماريوس فقد كان أسير جان فالجان الذى لم يشترك فى هذه المعركة إلا بأنقاذه الجرحى الذين لم يفتكر بهم أحد سواه

وبتعريضه نفسه للموت فى كل حين فداء عن الآخرين كأنه كان يود الانتحار فلم يفلح إذ لم تصبه رصاصة على شدة تعرضه

ولكن لا نظن أنه كان يريد الانتحار لانه مغاير للدين

وكان لا يغفل طرفة عين عن ماريوس فلما رآه أصيب وسقط صريعاً وثب اليه بخفة النمر وانقض عليه انقضاض العقاب فحمله

وكان الجنود فى تلك الساعة منهمكين بكسر باب الخمارة فلم ينتبه أحد اليه وقد حمل ماريوس بين يديه وخرج به من المتاريس الى ما وراء الخماره بحيث بات وأياه فى مأمن

وهناك وضعه على الارض ونظر الى ما حواليه نظر القانطين فأن هذا الجدار الذى احتمى وراءه لا يحميه غير هنيهة يسيرة فأن الجنود سيصلون اليه ويخترقونه ولم يدر كيف ينجو بماريوس من هذه الحزرة الهائلة فأنه هرب منذ اعوام من سجن طولون وكان فراره صعبا اما الآن فأن فراره مستحيل

وقد كان أمامه منزل كبير ذو ستة أدوار يظهر أنه لم يكن يقيم فيه غير ذلك البواب الذى قتلوه فالاسبيل الى ولوجه وعلى يمينه متاريس يمكن تسلقها ولكنه رأى من ورائها حراب الجنود فمن تجاوزها عرض نفسه لموت محتم

وهو لا بد له من الاسراع لان الجنود كانوا منهمكين بالالتجئين الى الخمارة ولكن لو خطر لواحد منهم أن يأتي الى ما وراء المنزل لقضي عليه اذ يراه هناك

وقد وقف مجيل نظره بين البيت الشاهق والمتاريس التي يحميها الجنود ثم ينظر الى الارض محدقاً قانطاً كأنه يريد أن يخترق الارض بنظراته ويفتح منفذاً فيها

وما زال على ذلك حتى رأى حلقة من الحديد ظاهرة بين البلاط الذي قتلعوه من الشارع

فأسرع اليها وقد برقت عيناه بأشعة الرجاء إذ أيقن أن هذه الحلقة معلقة ببلاطة وأن هذه البلاطة باب المجاري الكائنة تحت الارض ففتحها فانكشفت عن رواق يبلغ عمقه نحو ثلاثة أمتار فلم يكترث لهذا العمق وحمل ماريوس وسقط به الى تلك المجاري وجعل يسير مسرعة تحت الارض الى أن اجتاز مسافة عظيمة فتنهد تنهداً طويلاً وقد أمن مطاردة الجنود ولم يبق عليه إلا غير الخروج من هذه المجاري التي كان يعلم أين تنتهي ولكن أين له أن يعلم أين أبوابها وهو يسير تحت الارض ويغوص بالمياه القذرة الى الركب

وقد سار ثلاث ساعات وماريوس محمول على كتفيه وكان يضطر أحياناً إلى أن يطأطئ رأسه كي لا يصطدم بسقف المجاري

وما زال سائراً الى أن رأى نوراً كنور النهار ينبعث من منفذ أيقن أنه أحد أبواب المجاري

ولما وصل اليه وجد أن الباب مقفل وأنه كان مرتفعاً

عن سطح الارض التى كان فيهـا ولا سبيل الى فتح أبوابه من الداخل

وفيما هو على ذلك سمع صوتاً يناديه فيقول

لي النصف ولك النصف إذا أردت

فنظر إلى الرجل الذى يحدثه فعرف أنه تارديه أما تارديه فانه لم يعرفه إذ كان وجهه مصبوغاً بدم ماريوس ودخان البارود

وانما عرض عليه القسمة لاعتقاده أنه من زملائه اللصوص وأنه قتل هذا الرجل الذى يحمله وسلبه ما معه

وكان السبب فى وجود تارديه أنه رأى هناك رجلا يقفوا أثره منذ حين فهرب منه الى هذا المكان لوثوقه أنه من رجال البوليس

وقد وثق جان أن تارديه لم يعرفه ولكنه كان يعلم أن خلاصه قد يكون على يده فانه يستطيع أن يفتح باب المجارى ويعاونه على الخروج منها

أما تارديه فانه عاد الى محادثته فقال له

إنك ترى أن خروجك من هنا محال ومع ذلك فلابد لك من الخروج

قال هو ذاك

— إذن لنقتسم

— ماذا نقتسم

— أعنى أنك قتلت الرجل وسلبته ولكنك لا تستطيع الخروج إلا إذا ساعدتك وإذا رضيت مساعدتك لانك من أهل المهنة كما أرى وقد وجب علينا التعاون

والآن فاسمع أيها الرفيق أنك لم تقتل هذا الرجل إلا طمعاً بما معه فاعطنى نصف ما سلبته أفتح لك الباب وفوق ذلك فانى أعطيك حبلا

— ماذا أصنع بالحبل

— وانك ستحتاج إلى حجر ولكنك ستجده عند خروجك

— ماذا أصنع بالحبل والحجر

— لتربط بهذا القتيل أيها الابله قبل أن تلقيه إلى المياه أو يطفو فوق المياه

والآن فلنقتسم فان البوليس يطاردنى ولا أستطيع البقاء طويلا فى هذا المكان

فبحث جان فالجان فى جيوبه اذ كان من عادته أن يملأها دائما لمساعدة الفقراء ولكنه لم يجد غير ثلاثين فرنكا

فقلب تارديه شفته السفلى وقال

أتقتله من أجل هذا المبلغ الزهيد ولكن لا بأس فقد تكون خدعتك ظواهره وياطالما خدعت مثلك فهات

فأعطاه جان الثلاثين فرنكا فوضعها فى جيبه وقد نسى وتناسى أنه يجب اقتسامها بينهما

ثم فتح باب المجرى وأعانه على الصعود وبعد هنيهة كان فوق الارض وعلى ظهره ماريوس

أما تناردييه فانه مالبث ان فتح له الباب حتى جد مسرعا خوفا من أن يطالبه ببعض المال وتوارى عن الانظار

***

وكان جان فالجان قد تعب تعبا عظيما فألقى ماريوس على الارض وجلس بجانبه فاستراح هنيهة

ثم نهض فحمله وسار به فلم يمش بضع خطوات حتى شعر برجل يسير من خلفه ورأى المفتش جافير

وكان جافير يطارد تناردييه فى تلك الساعة فلم يعرف جان حين التفت اليه فدنا منه وقال له

من أنت

قال أنا

— من هو أنت

— جان فالجان

فوضع يده على كتفه ونظر اليه نظرات هائلة

أما جان فانه نظر اليه مبتسما وقال

لا تحسب يا سيدى انى كنت أريد الهرب منك فقد قلت لك

فى صباح اليوم انى أسيرك وأرشدتك الى منزلى فانا لست أسيرك

ولكنى لست الا أسيرا

وقد رأى ماريوس معه فقال له

من هذا الرجل الذى تحمله

قال ان ملتمسى يتعلق به فأصنع بى ماأنت صانع ولكنى أرجوك قبل ذلك أن تعينى على ايصاله الى منزله

ففحص ماريوس وقال

لقد كان هذا الفتى فى المتاريس وهو يدعى ماريوس

— هو ذاك وانه جريح

— بل هو ميت

— كلا انه لم يمت بعد

— أجئت به من المتاريس الى هنا

فلم يجبه فقال

أنه يقيم فى شارع كالفير عند جده ولا أعرف اسم جده

ففتش جان فالجان فى جيوب ماريوس وأخرج منه دفتراً ففتحه وقرأ عنوانه في أول صفحة منه ودفعه الى جافرت

فلما قرأه جافرت قال اصبر قليلا

ثم أخذ صفارة من جيبه فصفر بها فلم تكن غير هنيهة حتى أقبلت مركبة كانت تنتظر جافرت فنقلا ماريوس اليها وصعدا ثم أمر جافرت السائق ان يذهب الى شارع كالفير نمره ٦

***

ووصلت المركبـة الى ذلك المنزل فخرج جافرت منها وطرق الباب فجاء البواب يحمل شمعة بيده

وقد تعاون السائق وجان فالجان فأخرجا ماريوس من المركبة وقال جافرت للبواب

أيوجد هنا من يدعى جلنورماند

قال نعم أنه يقيم هنا فماذا تريدون منه

قال لقد جئناه بولده

فدهش البواب وقال ولده

قال نعم فانه مات

فأشار جان من ورائه اشارة سلبية

أما البواب فانه لم يفهـم كلام جافرت ولا اشارة جان فقال له جافرت

انه ذهب الى المتاريس وهذا هو

— الى المتاريس

— نعم وقد قتل فيها فاذهب وأيقظ أباه

وبعد هنيهة أقبل الخدم وحملوا ماريوس الى المنزل وعاد جافرت وجان فالجان الى المركبة فقال جان

انى ألتمس منك ملتمساً آخر أيها المفتش

— ماهو

— هو ان تدعنى أعود هنيهة الى منزلى وبعد ذلك تصنع بى

ماتشاءفأطرق هنيهة مفكراً ثم نادى السائق وقال له سر الى شارع الرجل المسلح نمرة ٧

***

ولقد كان غرض جان فالجان من عودته الى منزله أن يتم مابدأ به وان يخبر غوسيت أين يقيم ماريوس ويوصيها التوصية الاخيرة

أما هو فقد انتهى أمره بعد ان قبض عليه جافرت ولم يبق له مطمع فى الحياة

ووصلت المركبة الى مدخل شارع الرجل المسلح فوقفت لضيق الطريق عن دخول المركبات فخرج جافرت وجان منها وقال السائق للمفتش

أن مقاعد المركبة المخملية قد تلوثت بالدم فلابد من تعويض

قال هو ذاك وأخرج من جيبه ثمانين درنكا فأعطاه أياها وأطلق سراحه

فخطر لجان انه يريد أن يذهب به ماشياً الى اقرب مركز للبوليس

ولما وصلا الى منزل جان قال له المفتش

اصعد وأنا انتظرك هنا

فعجب جان من كرم أخلاقه ومن ثقته به وصعد الى منزله

وقد دخل الى غرفته وفيها مشرف يطل على باب المنزل الخارجى فأطل منه دون قصد فبهت وأصيب بذهول عظيم إذ لم يجد احداً

عند الباب فان جافرت كان قد انصرف

***

كان أول من استقبل ماريوس حين ادخلوه الى المنزل خالته فكادت تجن من رعبها حين رأته مصبوغاً بالدماء وعلائم الموت ظاهرة عليه فأسرعت باستدعاء طبيب وسارت تمشى فى الغرفة من غير رشد وهي لا تصدق ما تراه

ثم زال الرعب الأول فجعلت تهز رأسها وتقول

هذا الذى كنت اتوقعه واخشاه فلا حول ولا قوة إلا بالله

وقد جاء الطبيب وفحصه فوجد به كثيراً من الجراح وأنه لم يمت بل كان مغمياً عليه لكثرة ما نزف من دمائه فغسل الجراح وضمدها

وبعد ذلك دخل جد ماريوس ورأى حفيده ملقى على السرير ولا فرق بينه وبين الاموات وهو مغمض العينين مفتوح الفم اصفر الشفتين عارى الصدر كثير الجراح فارتعد ارتعاداً عنيفا وصاح قائلا

ماريوس

فقال له أحد الخدم أنه كان يا سيدى فى المتاريس فجاؤا به منها و . . .

— وأنه مات أليس كذلك

ثم نتصبت قامته كأنما عاد اليه شبابه والتفت الى الطبيب فقال له

انك الطبيب يا سيدى فقل لى . . أنه ميت أليس كذلك
فاضطرب الطبيب لما رآه من ظواهر يأسه ولم يجب
وضحك الشيخ ضحكا عصبياً وقال
أجل أنه مات . . أنه انتحر فى المتاريس وهو حاقد على . .
اهكذا يعود إلىّ .. ويح لنفسي ما اشقاها . . أنه مات...مات
ثم فتح نافذة كأنه شعر باختناق فأطل منها يلتمس الهواء
ويقول
أنه مجروح مثقوب ممزق مقطع . . وهو يعلم اني كنت
انتظره وانى أعددت له غرفته وإنى وضعت فى سريرى صورته
حين كان صغيراً . . نعم أنه كان يعلم بانى انتظره كل ليلة وانى القى
يدى على ركبتى فلا أفكر إلا به ولا أعلم ما أصنع .اجل يا ماريوس
انك كنت تعلم انك اذا دخلت الى منزلى كنت فيه السيد المطلق
وإني أطيعك وأمتثل لك في كل ما تريد امتثال الاطفال
ولكنك كنت تقول أن جدي من حزب الملكية فلا أذهب
اليه . . بل ذهبت الى المتاريس وعرضت نفسك للموت . . أتموت
ياماريوس وأنا حي
أما الطبيب فأنه ترك ماريوس هنيهة لخوفه على الشيخ فدنا
منه وأمسك بيده فالتفت اليه الشيخ وقال له
أشكرك يا سيدى الطبيب فانى ساكن هادىء ولا خوف علىّ
فقد شهدت موت لويس الرابع عشر وانا أعرف كيف احتمل المصائب

على أن هناك أمراً هائلا يروعني كل ما فكرت به وهو أن جرائدكم كانت السبب فى كل هذه النكبات وأن فيكم الكتاب والمحامين والخطباء ولكم المجالس والحقوق والمناظرات وحرية الاقلام فأنظر ما انتجته هذه الحرية وكيف ردت الينا أبناءنا

أواه يا ماريوس أتموت قبل أن أموت . أيها الطبيب انى حين ربيت هذا الغلام كنت فى عداد الشيوخ فكان الناس يدهشون من جماله

وكنت اذا انتهرته أو هددته بعصاى لا يكترث لى فيضحك لى ويعانقنى لاعتقاده انى أمازحه

على انى لا أبالى مانى سأقفو أثره فى اقرب حين ولكن ألم يكن الاولى به أن يلهو ويجرى فى مضمار الصبى بدلا من أن يذهب الى المتاريس ويعرض نفسه للقنابل

ويح لكن ايتها الامهات ويا ويحكم أيها الاباء مما تلدون . أيموت وهو لم يتجاوز العشرين دون أن يلتفت الى الوراء فيرى الذين تخلف عنهم . .

اذهب بأمن الله ودع ذلك الشيخ المنكود يموت وحده بعد أن مات فى قلبه الرجاء

اذهب فانى بلغت المائة مائة عام وحق لى أن أموت اما الآن فقد بلغت مائة الف عام

وأنت لماذا تشممه الامونياك وتسقيه هذا الشراب . . فانه مات كما مت أنا

وأنت أيها الراقد إذهب بسلام واعلم اني لا أحزن عليك فانك لم تشفق على أيها القاتل السفاك

وعند ذلك فتح ماريوس عينيه ببطىء وكان أول من رآه بهما جده

فصاح الشيخ قائلا

ماريوس . . بنيّ . . افتحت عينيك . . أنظر الى . . إذن أنت حى

وقد سقط عند ذلك مغمياً عليه لفرط ما أثر به السرور فانه يفعل في هذه المواقف ما تفعله الاحزان

***

ولنعد الآن الى جاوبرت فانه برح شارع الرجل المسلح وجعل يمشي مطرق الراس وهي أول مرة مشى بها على هذا الشكل

وقد جعل يديه وراء ظهره على طريقة نابليون وهو منذ نشأ لم يكن يضع يديه إلا على صدره اشارة إلى صدق العزيمة أما وضعه يديه وراء ظهره فكان اشارة الي ما يخالج قلبه من التردد والقلق

وقد كان يجول فى الشوارع صامتا مطرقا وهو يسير الى جهة السين حتى وصل جسر مشرف عليه فاسند كوعيه اليه واسند رأسه الى يديه وجعل ينظر الى أمواجه السوداء فى ذلك الظلام

وقد تاه فى مهامه التفكير فانه حين رأى جان فالجان شعر بعاطفتين متناقضتين احداهما عاطفة الذئب يرى فريسته والثانية عاطفة الكلب يرى صاحبه

ومن ذلك الحين انفتح أمامه طريقان وهو ما تعود أن يرى فى حياته غير طريق واحد مستقيم فلم يعلم أي طريق يسلك

فقد كان يرى فى الطريق الاول انه مدين لرجل مجرم وانه لابد له من وفاء الدين فقد قال له جان فالجان اذهب وهو سيقول له انك مطلق السراح فيكون بذلك قد وفى دينه وأراح ضميره من التبكيت ولكنه يكون قد اساء الى المجتمع الانسانى فى سبيل لاحسان الى نفسه وضحى النفع المشترك فى سبيل المنفعة الذاتية

وكان قد ادهله أن يعفو عن جان فالجان وارعبه أن يعفو هو عن جان فالجان فما عساه أن يصنع الآن

أيقبض على جان فالجان فيكون قد جازاه عن الخير بالشر أم يدعه وشأنه فيكون قد أساء الى المجتمع

أن رجل السلطة فى الحالة الاولى يسقط الى الدرك الاسفل وينحط عن رجل الجنايات واما فى الحالة الثانية فان رجل الجرائم والسجون يرتفع حتى يدوس بقدميه على النظامات والقوانين

وفى الحالتين فان شرف جافرت يتدنس ويسقط الى حضيض الهاوية وما الحياة غير شقاء هاوية كان جافرت مشرفا عليها الآن

وكان يفتكر فى ما صنعه فيرتعد لانه سيخالف الشرائع وقوانين البوليس ولا يجد حلا لهـذه المشكلة الا ان يعود الى شارع الرجل المسلح ويقبض عليه ولكنه كان يشعر أن يداً خفية تصده وتقيده فلا يستطيع الذهاب وما هذه اليد غير ضميره

غير أنه يكاد يجن من يأسه حين يفتكر أن اللص قد تقدس وأن المجرم يرتع فى بحبوحة الامن وأن كل ذلك من صنع جافرت وكيف يطيق أن يضع جان فالجان فوق الشرائع وهو جافرت يأكل خبز الحكومة التى عهدت اليه مطاردة هؤلاء الاشقياء فيطيش صوابه إلى أن يتمثل له جان فالجان يقول له « إذهب » ولا يقتله بعد كل اسائته اليه فيجد نفسه مقيداً باحسانه ولا سبيل الى الخلاص من هذا القيد الا بالاغضاء عنه ولا سبيل الى هذا الاغضاء الا بمخالفة الشرائع ولا سبيل الى مخالفتها وهو فى قيد الحياة

اذن لا بد له من الموت فهو وحده الذي يحل كل هذه العقد

وقد صحت عزيمته على الا نتحار فترك موقفه وسار الى أقرب مركز للبوليس فدخل اليـه وجلس وراء منضدة فكتب ما يأتي

ملاحظات نافعة

«أولا التمس من مدير البوليس ان يعيرا نتباهه هذه الملاحظات
« التى أكتبها بعد الاختبار

« ان المتهمين حين يأتون بهم للاستنطاق يخلعون نعالهم لتفتيشها

« ويلبثون حفاة على البلاط فيعودون الى السجن بزكام يقتضى المعالجة وفي ذلك من النفقات ما يمكن الاستغناء عنه

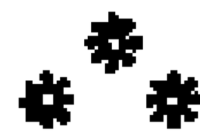
« ثالثاً ان طريقة مراقبة البوليس صالحة وهى وقوفهم على ابعاد متباينة غير أنه يجب فى المواقف الخطيرة ان يكون فى كل موقف اثنان بدلا من واحد فان رشوة الاثنين أصعب من رشوة الواحد

« رابعاً لا أعلم لماذا لا يأذنون للسجنية من النساء ان تجلس على كرسي ولو دفعت أجرتها

« خامسا ان المجرمين المعينين لمناداة المجرمين الى القاعة الكبرى يقبضون من كل سجين يدعونه سنتمين وهذه سرقة واضحة

وقد كتب غير ذلك من الوصايا والملاحظات حتى اذا أتمها وقع عليها بتوقيعه وعنونها بعنوان مدير البوليس وتركها على المائدة

ثم خرج من مركز البوليس وعاد الى النهر وصعد الى سور الجسر وألقى بنفسه دون أن يتردد لحظة فابتلعته المياه



يذكر القراء انه كان يوجد فى غابة مونتفرميل رجل يكسر الحصى ويصلح الطرقات ويسلب المارة كل ما سنحت له فرصة مأمونة العاقبة

وكان قد انتظم فى سلك عصابة تنارديه ثم رأى أن الخطر مع تلك العصابة كثير والربح قليل فاعتزلها وعاد الى تلك الغابة

وقد اتفق له فى صباح يوم انه بينما كان يجتاز الغابة ذاهباً الى عمله وذلك عند الفجر رأى رجلا يسير بين الاشجار

ولم يكن قد رأى غير ظهره ولكن خيل له انه رأى هذا الرجل فى نفس هذه الغابة مرة من قبل

وقد أيقن أنه ليس من أهل القرية وانه جاء اليها ماشياً اذ لم ير مركبة وانه مشي كل ليلته ولم يكن يحمل لا كيساً ولا صرة فهو قادم دون شك من باريس

ولكن ما شأنه فى هذه الغابة وما قدومه اليها فى هذه الساعة

وقد خطر له عند ذلك الكنز الذي كان يعتقد أهل القرية انه مخبوء فى الغابة وذكر أنه رأى رجلا منذ بضعة أعوام أتي الى هذه الغابة وانه قد يكون نفس الرجل

وكان يتأمل وهو مطرق الرأس فلما رفع رأسه لم ير أحداً اذ كان الرجل قد توغل فى الغابة فقال فى نفسه

لابد لى من ايجاده مهما توارى عنى فلا يكون سر فى هذه الغابة دون أن اطلع عليه

وقد أخذ معوله ومشى فى الجهة التى كان الرجل يسير فيها فيهتدى اليه من آثار قدميه فوق الاعشاب الطرية

ثم فقد ذلك الاثر فخطر له أن يتسلق احدي الشجر علّه يراه

فلما صعد الى أعلى الشجرة رآه ولكنه لم يلبث ان اختفى لتوغله بين ادغال تكتنفها شجرات باسقة فتحجبها عن الانظار

وكان يعرف هذا الموضع ويعلم أن وراءه حجارة مكدسة منذ ثلاثين عاما لايعلمون من وضعها

غير أنه لايمكن الوصول الى هذه الحجارة الا بعد العناء العظيم اذلابد من اجتياز الادغال

وقد نزل من فوره وذهب الى تلك الادغال فتهشم جسمه وتمزقت ثيابه حين اجتيازها

وبعد أن اجتازها ذهب الى تلك الحجارة المكدسة وكان يوجد وراءها شجرة طوقت بالزنك فوجد عند أسفلها معولا وثقباً فنظر الى الثقب فوجده فارغا فتوهجت عيناه من الغضب وقال تباً لك من سارق

ثم مشى وهو يتهدد السماء بقبضته

* * *

لقد بقي ماريوس مدة طويلة وهو بين الحياة والموت وأصيب مدة بضعة أسابيع بحمى يصحبها هذيان

وكان لاينقطع خلال هذيانه عن ذكر غوسيت فكان فى كل يوم يأتى رجل أبيض الشعر فيسأل عنه وأحياناً يأتى مرتين فى اليوم

وفي اليوم السابع من ايلول (سبتمبر) أى بعد أربعة اشهر من مرضه

قال الطبيب ان الخطر قد زال وان دور النقاهة قد بدأ فاقام بعد ذلك شهرين ممدداً على كرسى طويل

وكان طول مدة مرضه ونقاهته قد تمماه وأنقذاه من المحاكمة فان فى خلال هذه المدة صدر العفو عن الجرحى

أما جده فقد كان يقيم عنده فى كل الليل على كرسى طويل بجانب سريره فلما قال الطبيب انه لم يبق خطر عليه وزع فى ذلك اليوم كثيراً من المال على الفقراء وركع مصلياً وهو لم يعرف الصلاة منذ نشأ

وأما ماريوس فانه لم يكن يفتكر الا بكوسيت فانه بعد ان كان يذكرها بلسانه مدة هذيانه جعل يذكرها بقلبه حين نقاهته

ولم يكن يعلم شيئاً مما جرى لها ولا يدرى كيف نجا من المتاريس اذ لم يذكر الا أنه شعر حين أغمى عليه أن يداً قوية حملته

ثم انه كان يرى جده يتبسم له ويلاطفه ويحن عليه حنو الامهات ولكنه كان يعتقد أنه لا يلاطفه هذه الملاطفة الا لانه مريض فمتى شفى وعاد الي ذكر كوسيت عاد اليه تجهمه

غير أنه أراد أن يمتحن ذلك فاتفق يوماً ان جده كان يلح عليه بالاكل ويقول له بملء الحنو

كل يابنى فان الغذاء يقويك ولا خوف عليك من أكل هذه السمكة . .

اشرب هذا الكاس من الشمبانيا فانها أفضل الخمور لتجديد الدم وتقوية الاجسام

وكان قد عاد اليه نشاطه فاستوى جالساً فى السرير ونظر الى جده نظرة منكرة فقال له

. ان هذا يدفعني الى أن أسألك أمراً

— ماهذا الامر يابنى

— هو اني أريد أن أتزوج

فضحك الشيخ وقال

ان هذا منتظر

— كيف تقول انه منتظر

— نعم لانك ستتزوج التى تحبها

فاضطرب قلب ماريوس وبرقت عيناه بأشعة السرور فمضى جده فى حديثه فقال

نعم انك ستتزوج هذه الفتاة الحسناء فانها تأتى كل يوم متنكرة بملابس رجل شيخ فتسأل عنك وقد سألت عنها فعلمت انها لم تنقطع عن البكاء منذ اصابتك تلك الجراح وهى تقيم فى شارع الرجل المسلح نمرة ٧ أرأيت انى أعرفها

نعم انك ستتزوجها فانها تحبك أصدق حب ولولم يقدر الله لك السلامة لتقدم نعشها نعشى

وقد كان خطر لى أن ادخل بها اليك ولكن ذلك كان متعذراً لانك كنت عاريا من الملابس لجراحك

وقد كنت أرى انك لاتحبنى جعلت أقول فى نفسى ماذا أصنع لهذا الغلام العقوق كى يحبنى كما أحبه . . انى أعطيه غوسيت فلابد له بعد ذلك أن يحبني قليلا

وقد أخذ رأس ماريوس بين دراعيه وجعل الاثنان يبكيان

وبعد هنيهة قال ماريوس

لقد تعافيت الآن الا يمكن أن أراها

قال لقد توقعت ذلك أيضاً وستراها غداً

— أبي

— ماذا

— لماذا لا أراها اليوم

— اذن ستراها اليوم فاطمئن

***

ولقد صدق الشيخ بوعده فجاءت غوسيت ودخلت الى غرفة ماريوس وجميع العائلة فيها حتى الخدم فكانوا ينظرون اليها ويمحون جمالها وهى تكاد تجن من سرورها وتود لو القت نفسها بين يدي دراعيه ولكنها لا تجسر على دلك أمام هؤلاء الجماهير الذين اساؤا أعظم إساءة الى العاشقين بحضورهم هدا اللقاء

وقد دخل فى أثرها رجل ابيض الشعر وهو يبتسم فكان

هذا الرجل الموسيو فوشلفان أى جان فالجان

وعند ذلك تقدم اليه جد ماريوس وقال له

يا موسيو ترانسلفان . . .

ولم يكن حرف اسمه خصيصاً ولكنه كان يغلط دائماً بأسماء الاعلام حتى بأسماء أصحابه الأخصاء

فانحنى جان فالجان أمامه وقال له الشيخ

لي الشرف أن التمس منك الموافقة على زواج بنتك مدموازيل غوسيت من حفيدى البارون ماريوس بونتمرسي

فانحنى جان أيضاً إشارة الى القبول

ومشى الشيخ الى العاشقين فباركهما وقال لهما انكما الآن خطيبان واستصبحان زوجين أمام الله وأمام الناس

ثم تركهما وعاد الى جان فالجان يحدثه بيما كانت غوسيت تحدث ماريوس بصوت منخفض وتقول

رباه أأنا فى يقظة أم فى حلم . . أقدر لي أن أراك ياماريوس . . لماذا ذهبت الى المتاريس وماذا أسأت اليك فقد جعلتنى أربعة أشهر شبه ميتة . .

إني أتمنى لك على أن لا تعود الى مثلها . . والآن حين دعوتنى للحضور اليك خلت نفسى شبه ميتة ولكن ذلك كان من الفرح

وعاد الشيخ اليهما فقال

مابالكما لا تتكلمان وأنت أيها الخبيث أسعد البشر محب هذا الملاك

ولو كنت أصغر مما أنا عليه عشرة أعوام لقاتلتك عليها بالسيف لحبها يا بني وليبارك الله هذا الحب

ولكني لا يسؤني الا انى لا أستطيع أن اتمتع بأموالى الا مدى الحياة ومتى مت لا يبقى لكما شيء بعدى فقد بعت كل ما أمتلكه من احدى الشركات على أن أقبض منها مبلغاً عظيما كل عام ما دمت حيا فاذا مت انقطع الراتب ولا يحق لورثاني مطالبتها لشيء

وانكما ستتمتعان بكل ما اقبضه فما عليكما إلا أن تدعوا لي بطول العمر

وبعد ذلك سمع الجميع جان فالجان يقول

أن مدموازيل أوفرارى فوشلفان لها ستمائة الف فرنك

فنظر الشيخ اليه مندهلا وقال

من هي مدموازيل ايفرازى

فقالت له غوسيت انا هي

قال ستمائة الف فرنك

فقال جان فالجان تنقص نحو خمسة عشر الف فرنك بالتقريب

ثم وضع صرة كان يحملها على منضدة وفتحها فعدها فوجد فيها خمسمائة ورقة من التي قيمتها الف فرنك و١٦٨ ورقة من التي قيمتها خمسمائة فرنك فتكون الجملة ٥٨٤ الف فرنك

وقد دهش الجميع لثروة غوسيت التي كانوا يعتقدون انها فقيرة

أما ماريوس وغوسيت فقد كانا يتحدثان بصوت منخفض وقد شغلا بحديثهما عن كل هذه الامور

***

ولقد عرف القراء دون شك أن جان فالجان بعد حادثة الاب شامباتيو حين كان محافظاً هرب من السجن الى باريس فاخذ ما كان له من المال في مصرف لافيت

وأنه حشي أن يعودوا الى القبض عليه فوضع هذه الاوراق المالية في علبة من الخشب ووضع فيها مواد تمنع عنها الرطوبة ثم ذهب الى غابة مونتفرميل فدفنها هناك

وكان بعد ذلك كل ما احتاج الى المال يأتي الى الغابة فيخرج العلبة من مدفنها فيأخذ ما يحتاج اليه ويعود الي باريس

فلما رأى أن ماريوس دخل في دور النقاهة توقع انه سيحتاج الى كل هذا المال فجاء بالعلبة ووضعها في منزله

ولم يأخذ من هذا المال غير خمسمائة فرنك

أما الفرق بين هذه القيمة وبين القيمة الاصلية التي اخذها من المصرف فقد انفقها في مدة عشرة أعوام فان السنوات الخمس التي أقامها في الدير لم تكلفه غير خمسة آلاف فرنك وهي نفقات تعليم غوسيت

وقد كان اطمأن قلبه إذ قرأ في جريدة المونيتور خبراً مفاده أن أحد مفتشي البوليس المدعو جافرت وجد غريقاً في النهر تحت قارب بين جسر شانج والجسر الجديد

وأنه كتب كتاباً قبل انتحاره الى رئيس البوليس يدل على أنه أصيب بعقله قبل الانتحار

وقد فتحت الجريدة فصلها بالثناء عليه وبينه ثقة لرؤساء

أما جان فالجان فما شكك أنه مات مجنونا بدليل أنه أطلق سراحه ولم يقبض عليه

***

وقد أخذوا يتأهبون لحفلة الزواج وعينوا موعده بعد شهر فكان العاشقان لا يصدقان ما يريان

أما جان فالجان فانه أعد لكوسيت كل ما يضمن هناءها ولا سيما في ما يتعلق بسر مولدها فانه لو ظهر لما تم عقد الزواج

ولذلك قال انها ابنة فوشلفان الذي كان بستانياً في دير بيكبس فسألوا راهبات ذلك الدير عنه فشهدن به خير شهادة

ومما قاله عن مهرها أن سيدة تخلت لها عن ذلك المال وهي صغيرة وأبت تلك السيدة إظهار اسمها فعين هو وصياً عليها ولم ينفق من هذا المال غير عشرة آلاف فرنك انفقت على تعليمها في ذلك الدير الذي نشأت فيه

وأن من شروط هذا المال أن يدفع الى غوسيت حين بلوغها سن الرشد أو حين زواجها

أما غوسيت فانها علمت من كل ذلك الحديث أنها باتت غنية وأن جان فالجان ليس بأبيها كما كانت تتوهم بل هو قريب لها فما انقص ذلك شيئاً من محبتها اياه

ولو عرفت هذه الحقيقة قبل الآن لامتعضت غير أن حبها لماريوس شغلها عن كل ما عداه

ومع ذلك فانها لبثت تدعوه أباها ولبث يدعوها بنته

أما جد ماريوس فانه كان في كل يوم يقدم لها هدية تدهشها وقد اتفقوا على أن يقيم مع امرأته في منزل جده فأعد لهما خير غرف ذلك المنزل وفرشها بأجمل الرياش

وكان الخطيبان يجتمعان كل يوم إذ كانت غوسيت تأتي الى ماريوس كي لا ينزعج بالذهاب اليها

وكانت خالته تدق يداً بيد من دهشها وتقول.

أسمعتم في عصر من العصور أن الخطيبة تأتي الى منزل خطيبها في كل يوم

وكانت تأتي مع جان فالجان فيقيم معها ما دامت مقيمة مع ماريوس فلا يستاء ماريوس لأن هذا الشرط لم يكن بد منه ولم يكن يكلم أحدهما إلا في القليل النادر

الى أن اتفق يوما ان ماريوس كان يتكلم عن وجوب التعليم

الاوامى وان العلم يجب أن يكون كالشمس تشرق أشعتها على الجميع

فخاض جان فالجان فى هذا البحث وسمع ماريوس منه ماأعجبه ولكنه استدل من بعض تعابيره ان هذا الرجل أحط من المتعلمين في شيء وأرفع منهم فى شيء

ولم يكن ماريوس يذكر شيئاً مما مر به بل كانت حوادثه تمر بذاكرته كأنها حلم

من ذلك أنه حين رأى جان فالجان ذكر أنه رآه فى المتاريس ولكنه لم يكن واثقاً من تلك الذكرى

وقد حاول أن يمتحن ذلك فجعل ينتقل من حديث الى حديث الى أن أدخل في معرض حديثه ذكر الشارع الذى بنيت فيه المتاريس فسأله قائلا

أتعرف هذا الشارع ياسيدى

قال أي شارع هذا

قال شارع شانفريرى

قال اني لم أسمع باسمه حتى الآن

وقد أجابه هذا الجواب بملء السكينة وعلائم الصدق بادية فى عينيه فما شكك فى قوله وقال في نفسه

لاشك أنى كنت حالما وان الرجل الذي رأيته فى المتاريس يشبه هذا الرجل أما فوشلفان فانه لم يكن فى المتاريس

***

على أن فرح ماريوس عما صار اليه لم يشغله عن الاهتمام بشؤون أخرى

وذلك أنه بينما كانوا يتأهبون لاعداد معدات الزواج كان هو يبحث كيف يفي دينه ودين أبيه فان أباه كان مدينا لتارديه بانقاذه من الموت وهو مدين لذلك الرجل الذي حمله حين اغمائه في المتاريس وأخرجه منها فجاء به الى جده فكان كل همه قاصرا على ايجاد هذين الرجلين لاعتقاده ان هناءه لا يتم الا حين يفي هذا الدين وانه لا بد له من اقفال باب الماضي قبل ان يدخل الى باب المستقبل

ونعم أن تارديه كان من كبار اللصوص وأشدهم اثما ولكن ذلك لا يمنع أنه أنقذ أباه الكولونيل بونتمرسي فهو لص أثيم في عيون الشرع والناس اما في عينيه فهو منقذ أبيه

وقد أخذ منذ ذلك يبحث عن تارديه وعين الرقباء فلم يهتد أحد اليه وكان مما علمه عن هذه العيلة ان امرأة تارديه ماتت في السجن وان ابنته الكبرى ايبونين وولده كافروش ماتا في المتاريس فلم يبق الا هو وابنته أزلما

وكان قد علم أن تارديه هرب من السجن مع عصابته فحكم غيابياً على رجال العصابة بالسجن المؤبد والاشغال الشاقة وحكم على تارديه بالاعدام

أما الرجل الذي أنقذه من المتاريس فقد بحث عنه بحثاً مستفيضاً ورأى في البدء بارقة رجاء اذ أنه عرف سائق المركبة

الذي جاء به الى منزل جده

ولكن كل ماعرفه من السائق هو أنه في ٦ حزيران وقف بمركبته بأمر أحد مفتشي البوليس عند المجارى قرب الشانزليزه وانه ناداه في الساعة التاسعة من المساء وصعد الى المركبة مع رجل آخر بعد أن حملا اليها فتى جريحاً فجاء به الى شارع كالفير

وهذا كل ماتمكن أن يعرفه من السائق فكانه لم يعلم شيئاً لان ماريوس أغمي عليه في المتاريس فلم يستفق الا في منزل جده ولم يذكر الا أن يداً قوية اختطفته حين أغمي عليه

ولكن كيف اتفق وجوده مع ذلك الرجل عند باب المجارى الكبير قرب الشانزليزه وهي بعيدة جداً عن المتاريس وما هي الطريق المؤدية الى شارع كالفير ومن هو هذا الرجل الذي أحسن اليه هذا الاحسان وكيف السبيل الى ايجاده ومكافأته عن هذا الصنيع

وقد توصل الى أنه عهد الى رجال البوليس في البحث عنه فبحثوا طويلا ولم تسفر ابحاثهم عن شيء فكانوا كالنافخ في رماد وقد احتفظ بملابسه الملوثة بالدماء على رجاء أن تعينه يوماً على ايجاد هذا الرجل وكان ذلك الثوب مقطوع من قطعة لم يعلم كيف قطعت واتفق أنه كان يتكلم مرة عن هذه الحادثة أمام جان فالجان وغوسيت فقال

لاشك أن هذا الرجل من عظماء الناس وأنه لو مثلت المروءة لما مثلت إلا شخصه أتعلمان ما فعل انه اختطفني من المعركة

والرصاص ينصب كالمطر وهرب بي ونزل الى المجارى وهو يحملني على كتفه واجتاز نحو مرحلة بتلك الدهاليز القذرة تحت الارض وفى الظلمات وليس له غرض غير انقاذى

ومما يزيده فضلا فى مروءته انى لم أفرق في شيء عن الاموات فخاطر بنفسه على رجاء أن يكون بقيت لى بقية رمق وهى مروءة خالصة بدليل أنه بقي متكراً كى لا أكافئه عليها ووالله لو كان مهر غوسيت لى . .

فقاطعه جان فالجان قائلا انه لك فماذا تصنع

قال كنت أهبه لذلك الرجل العظيم

فابتسم جان ولم يجبه بشيء

***

ودنا يوم الزفاف وهو اليوم السادس عشر من شهر شباط فكان الطقس مختلفاً تصحو السماء حيناً ثم تعود الى التجهم والمطر

وفى تلك الليلة اعطى جان فالجان المال الذى وهبه لغوسيت دون أن تعلم وهو ٥٨٤ الف فرنك

وكان مما وهبها اياها الخادمة إذ لم يكن محتاجاً اليها فأخذتها غوسيت ورقتها فجعلتها خادمة غرفتها الخاصة

أما جان فالجان فقد عينوا له غرفة فى منزل جد ماريوس وألحوا عليه بوجوب الاقامة بينهم فرضى

وكان قد أصيب بضربة باصبع يده اليمنى قبل الزفاف بيومين

فسحقته كما يقول وربط يده وغلفها بالرباط ولم يدع أحداً يهتم باصبعه ولا يراه حتى ولاغوسيت بحيث لم يعد يستطيع أن يكتب كلمة فأناب عنه جد ماريوس بصفته وصياً على غوسيت .

وجرت حفلة الزواج فذهب الجميع الى دار الحكومة فعقد هناك الزواج المدني وعادوا فى المركبات الى الكنيسة لعقد الزواج الديني .

وكان ذلك اليوم يوم عيد كبير وقد غصت الشوارع بالناس فكان الناس يقفون ليتفرجوا على العروسين

وكان بين المحتفلين بالعيد فتاة أوقفت مركبتها فى الشارع ووقف بجانبها على الارض رجل فجعل يحدث الفتاة بصوت منخفض فيقول

— أترين هذا الرجل

— أى رجل

— هذا الشيخ ذو الشعر الابيض الذي تتلو مركبته مركبة العروسين

وقد أشار الى جان فالجان فقالت له

أهو هذا الذى يعلق يده فى عنقه برباط أسود

— هو بعينه

— ماذا

— أنا واثق بأني أعرفه

— وإذا كنت تعرفه ! فانك تعرف كثيراً من الناس

— لقد كانت احتك أشد ذكاء منك

— كيف ذلك

— لا شيء انظرى هل ترين العروس

— كلا

— والعروسة

— لا يوجد عروسان فى هذه المركبة

— لا أرى شيئاً

— لا يوجد عروسان فى هذه المركبة

— قفى فى المركبة واجتهدى أن تبصري العروس

— لا بأس فاني أعرف هذا الرجل ولا شك أن له شأناً في هذا الزفاف

— أية فائدة لك من ذلك

— لا أعلم الآن ولكن لا بد من الاستفادة

— أما أنا فلا أهتم لحظة بهذا الشيخ

— لقد قلت لك انى أعرفه

— أعرفه كما تشاء

— ولكن كيف اتفق وجوده فى هذا الزفاف

— ألم يتفق وجودنا نحن أيضاً

— اصغي الى ياابنتي

— انى مصغية

— وأنا سأعهد اليك بمهمة

— ما هي

— هي أن تخرجي من هذه المركبة وتتبعي الموكب

— لماذا

— لتعلمي اسم العروسين ومنزلهما . . اسرعي يا ابنتي فانك تستطيعين الركض لانك لا تزالين صغيرة

— ولكني لا أستطيع أن أترك المركبة

— لماذا

— لاني فيها بأمر البوليس فقد استخدمني اليوم للتجسس

— أحق ما تقولين

— نعم فاذا رآني خرجت من المركبة قبض علي في الحال فما أفدتك ولا أفدت نفسي

— كلا فانك تستطيعين الاحتجاب عنه فاسرعي واعلمي أن هذا الشيخ مقيم في مركبة العروسة

— ماذا تعني

— أعني أنه أبوها

— وماذا يفيدك ذلك

— لقد قلت لك أنه أبوها فاصغي الي

— ماذا

— إنك تعلمين أن البوليس يبحث عني فلا أستطيع أن أتبع الموكب حذراً من أن يقبضوا علي أما أنت فانك حرة

- ليس بمقدار ما تتوهم

— لكن الخطر عليك أقل جداً من الخطر على

— حسناً وبعد ذلك

— أريد أن تعلمي الى أين يذهب هذا الموكب

— انه ذاهب الى الكنيسة كما ترى

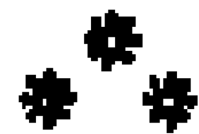
— نعم ولكنه بعد ذلك يذهب الى البيت وأريد أن أعرف المنزل

— أهذا كل ما تريد أن تعرفه

— بل أريد أن أعرف أيضاً اسم العروسين أفهمت يا ارلما

— سأمتثل يا أبي فاطمئن

وهنا انتهى الحديث بينهما فخرجت الفتاة من المركبة واقتفت اثر الموكب



وعقد الزواج وعاد الجميع الى منزل جدماريوس وأقيمت الحفلة الكبرى في المنزل وجلس جان فالجان في القاعة بجانب جدماريوس فجاءته غوسيت وقالت له

هل أنت مسرور يا أبي

قال ليس بعد هذا سرور

قالت إذن اضحك

فقهقه ضاحكا وقبل جبينها فعادت الى موضعها بجانب ماريوس

وبعد ساعة قام الجميع الى المائدة وكانوا قد وضعوا كرسيين على جانبي الزوجين أحدهما لجان فالجان والآخر لجد ماريوس فجلس الجد في كرسيه أما كرسي جان فالجان فبقي خالياً

وقد بحثوا عنه فلم يروه في القاعة فسأل ماريوس احدى الخادمات قائلا

أين هو

قالت لقد فاتني أن أخبرك يا سيدي فقد عهد الي أن أقول لك أن يده تؤلمه فلا يستطيع الجلوس معكم على المائدة وقد خرج من المنزل وسيعود صباح غد

فاستاء الجميع هنيهة من هذا الاتفاق ثم عادوا الى زهوهم وكان أشدهم جد ماريوس

***

أما جان فالجان فانه بعد أن أضحكته غوسيت اغتنم فرصة فدخل من القاعة فأخبر الخادمة بما رووه وخرج من المنزل دون أن يراه أحد فذهب الى منزله في شارع الرجل المسلح

وهناك أنار شمعة وكان المنزل خالياً وجميع الخزائن مفتوحة فدخل الى غرفة غوسيت فلم يجد شيئاً من أدوات زينتها فقد أخذتها بجملتها فجعل ينتقل من غرفة الى غرفة فلا يجد غير الفراغ والخلاء

ثم دخل الى غرفته فوضع الشمعة على المائدة وفك رباط يده

فكان يستعملها كما يشاء إذ لم تكن مصابة بشيء

وقد فتح عند ذلك صندوقاً وأخرج منه تلك الملابس الصغيرة السوداء التي كان قد جاء بها الى غوسيت حين كانت صغيرة في منزل تناردييه فبسطها فوق سريره وجعل يتأمل بها ويبكي

وأقام ليلته لم يغمض له جفن وهو يتنازعه ذانك العاملان اللذان كانا يتنازعانه حين كان يدعى مدلين وحين ضحى نفسه في سبيل ذلك الرجل الذي سموه باسمه وكادوا يحكمون عليه لو لم ينقذه في المحكمة

وفي اليوم التالي ذهب الى منزل ماريوس فدعا الخادمة وسألها قائلا هل صحا سيدك من رقاده

قالت كيف يدك يا سيدي

قال بخير فهل صحا سيدك

— أي سيد تعني القديم أو الجديد

سيدي البارون . . ها أنا ذاهبة اليه فأخبره بقدومك

— كلا لا تقولي له اني أنا القادم بل قولي ان رجلا يريد أن يكلمه في شأن خاص

— كيف ذلك ياسيدي

— اني أريد أن أباغته

فذهبت الخادمة وبقي جان فالجان وحده وبعد هنيهة فتح الباب ودخل ماريوس فذهل حين رآه وقال

أهذا أنت .. ان هذه الخادمة البلهاء لم تذكر لي اسمك...

وبعد فاني أجد ارتياحاً عظيما بقدومك فقد استأنا كثيراً لغيابك أمس فكيف يدك ... انها شفيت أليس كذلك .. لقد كان معظم حديثنا أمس عنك فان عوسيت تحبك كثيراً ولا تريدأن تقيم ساعة فى شارع الرحل المسلح بل تقيم بيننا أى بين ولديك . وستتغدى الآن معنا

قال لى ما أقوله لك ياسيدى البارون هاعلم إنى من سجناء سجن طولون الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة

ولم يكن وقع الصاعقة أشد على ماريوس من وقع هذا الكلام فخيل له انه فى حلم بل شعر انه أصيب بدوار شديد لاسيما وقد نظر الى وجه جان فالجان فرآه يشبه وجوه الموتى باصفراره

أما جان فانه نزع رباط يده وقال له

أنظر فان أصبعى لم يرض ولم يكن مصابا بشىء

فنظر ماريوس فلم ير أثراً للرض ومضى جان فى حديثه فقال لقد احتلقت حادثة أصبعى احتلاقا كى لا أضطر الى التوقيع على صك الزواج بصفتى وصياً على غوسيت

— ماهذا الذى اسمعه وماذا تعنى بما تقول

—أعنى انى كنت فى سجن طولون

فذعر وقال انك تصيح صو ن بما تقول

قال إنى أقمت ياسيدى البارون تسع عشرة سنة فى السجن

لسرقة ثم حكم على بالسجن المؤبد

فارتعد ماريوس مما سمعه وقال له

أتمم حديثك ... قل كل شيء .. إنك والد غوسيت

ثم تراجع خطوتان الى الوراء مذعراً من هـذا الفكر الذى خطر له

فشمخ جان فالجان بانفه مستكبراً وقال له

لابد لك أن تثق بما أقول فانى وان لم أكن من أهل السجون ولكنى لا اكذب

انك تحسبنى والد غوسيت . كلا أيها البارون فانى فلاح من قرية فامرول كنت ارتزق من غرس الاشجار ولست ادعى فوشلفان بل ادعى جان فالجان ولا يوجد ادنى نسب بينى وبين امرأتك غوسيت فاطمئن

— ما هو برهانك

— برهانى انى أنا أقول لك هذا القول

فنظر ماريوس اليه محدقاً فوجد علائم الصدق والاخلاص ظاهرة فى عينيه فقال له

لقد وثقت

فأطرق جان رأسه هنيهة كأنه يتأهب لحديث طويل ثم قال نعم لا يوجد صلة نسب بينى وبين غوسيت ولم أكن أعلم منذ عشرة أعوام انها موجودة فى عالم الوجود

وقد أحببتها لانها صغيرة وكنت شيخا ومن عادة الشيوخ أن يحنو على الصغار

انها كانت يتيمة لا أب لها ولا أم وكانت فى حاجة إلى فكان هـذا من أكثر العوامل التى دعتنى الى حبها فأنفقت بما يجب على نحوها

والآن فانها فارقتني ونهج كل فى سبيله وفوق ذلك فانى لم أعد استطيع فائدتها في شيء بعد أن أصبحت تدعى البارونة مونتمرسى .

أما السمائة ألف فرنك فانك لم تقل لى كلمة عنها ولكى أنوب عنك فى السؤال أجيبك انها وديعة عندى ولا تسل كيف اتصلت الى هذه الامانة فقد رددتها وبهذا كفاية

ثم إنى ذكرت لك حقيقة اسمى لانى أحب أن تعلم من أنا

ولقد كان اندهال ماريوس عظيما مما سمعه ومن هذا الموقف الجديد الذى أوقفه هذا الرجل فيه فقال له

ولكن لماذا تقول لي هذه الاقوال وما الذى الجأك الى قولها وما كان يمنعك عن كتمان سرك فانك آمن لا يطاردك أحد ولم يش بك أحد فلا بد أن يكون هناك سبب خطير دعاك الى أن تعترف لى هـذا الاعتراف .. أمض فى حديثك وقل السبب الذى حملك على مباغتتى بهذه الانباء المفجعه

وأجابه بصوت خافت منخفض كانه يحدث نفسه فقال

لاى سبب . . نعم ان السبب غريب لا يحتمل تصديقه من مجرم مثلى فان السبب الوحيد هو الشرف

إنى أشعر بوجود خيط غليظ فى داخلى ربط به قلبي فلو كنت استطيع قطع هـذا الخيط أو حل عقدته بل لو كنت استطيع الرحيل لسجوت آمناً إذ لم يبق على غير السفر وكل أسبابه ميسورة

نعم اني كنت أسافر آمناً مطمئنا فان غوسيت سعيدة معك ولـكنى حاولت قطع هذا الخيط فوجدت أنه لا ينتزع إلا بانتزاع قلبى من صدرى فقلت فى نفسى انى لا استطيع العيش بعيداً ولا بد لى من البقاء

ولقد تكون مصيبا فى ما قلته لى من أنه ليس ما يحملنى على أن أبوح لك بما بحت به فانك عينت لى غرفة فى منزلك وامرأتك نفسى وجدك يتمنى أن أكون بقربه وأنت تفرغ مجهودك فى سبيل راحتى فلا يقلناغير منزل واحد ولا نأكل الا على مائدة واحدة كاننا عائلة واحدة

وهنا وضع يديه على صدره وشد على الارض برجله كانه يريد أن يحفر بها هوة يسقط الىها وقال بصوت أجش

كلا ليس لى عائلة وما . . . .كم بل ما أنا من البشر بل أنا ذلك الشقى الشريد الطريد الذى لم أخلق من نبت الارض أم كان له أب وام

ولقد انقضى كل شيء عندي منذ تزوجت غوسيت ورأيتها سعيدة مع الرجل الذي تحبه فقلت في نفسي

لا يجب عليّ أن أدخل الى هذا المنزل المقدس

وكان بوسعي ان اكذب وان أخدعكم وان أبقى المسيو فوشلفان لو كان الامر عائداً لخيرها أما وقد بات نفعه لي فلا أقدم عليه

ولقد سألتني ما الذي يحملني على الاقرار فاجيبك أنه لا يحملني عليه غير الذمة والضمير

ولقد تحسب ان الكتمان سهل وهو سهل على من أطاقه غير اني قضيت أمس كل ليلي وانا أحاول اقناعي بالبراهين الدامغة حتى تمكنت من اقناع نفسي فعدت بالخيبة بعد ان بذلت جهد الطاقة ورأيت أن هناك أمرين لا قبل لي بهما وهي قطع هذا الخيط المتين المعلق به قلبي وعجزي عن مقاومة ذلك الضمير الذي يناجيني حين أكون وحدي

ولذلك جئت اليك واعترفت بكل أمري أو ببعضه إذ يوجد أمور أخرى لا علاقة لها باحد سواي فلا فائدة من قولها

أم تحسب اني لم اناجي نفسي بما اعترضت به عليّ وان موقفي الآن لا يشبه موقفي مع شامباتيو واني اذا كتمت امري لا أسيء الى أحد وان اسم فوشلفان قد أعطاني اياه فوشلفان نفسه مقابل احساني اليه بخدمة جليلة واني أبقى على ما أنا فيه وأعيش سعيداً

بيتكم بهذه الغرفة التي عينتها لى

نعم اني ناحيت نفسي بكل ذلك وأيقنت أن كل مابي يكون في غبطة ونعيم ما خلا نفسي فانها تكون في نارأحرنار الجحيم أبردها

وكيف أطيق أن أكون ظلاماً فى بيت ملؤه النور وان اصير منزلكم سجناً لا يقيم فيه غير اللصوص وان اجالسكم على المائدة وأنا أعلم أنكم لو عرفتم حقيقة أمرى لطردتمونى وان خدمى خدمكم وهم لو عرفونى لاتقوا أن ينظروا الىّ وان أجمع بين شعور حدك البيضاء الطاهرة وشعوري التي بيضتها الجرائم والآثام وكيف لا أرتعد ذعراً حين يخطر لى هذا الخاطر فى كل يوم وان أهينكم فى كل يوم وان اكذب على نفسي وعليكم وعلى الله فى كل يوم بل كيف تعتقد ان السكوت بعد هذا سهل ميسور

وهذا الكذب والزور والحطة والخيانة والاثم إني أنتهى كل يوم من ارتكابها عند نصف الليل وأعود الى اقترافها عند الظهر وانا على هذا النفاق ما حييت ولماذا

أكل ذلك لأكون سعيداً . أيحق لى أن اكون سعيداً . كلا ياسيدى فانى شقي منذ خلقت وقد كتب لى الشقاء فى لوح المقدور

وبعد فانك تسألني لماذا أبوح بامرى وما فشى سري أحد ولم يطاردنى أحد . نعم يا سيدى انهم يطاردوننى بل وأنا الذي أطارد نفسي واحاكم نفسى وأحكم على نفسى وكفى بي قاضياً عادلا على نفسى

وان من أراد أن يكون سعيداً يجب أن يعيش من غير ضمير وان لا يفهم معنى الواجب

واني الآن انحط في عينيك ولكي أرتفع واسمو في عيني نفسي وقد اتفق لي مرة مثل هذه الحادثة ولكنها لم تكن فاجعة كهذه

واني أحب أن أكون شريفاً وكيف أكون شريفاً اذا كنت أحملك بكذبي على احترامي أما وانت تحتقرني الآن فقد نلت باحتقارك كل ما اطمع به من الشرف

اني سرقت مرة رغيفاً لاعيش فلا أريد اليوم أن اسرق اسما لاعيش

فقاطعه ماريوس قائلا انك لا تحتاج الى هذا الاسم كي تعيش

بل اني لا أعيش إلا به لاني لا أستطيع العيش بعيداً عن غوسيت ولا سبيل الى البقاء معكم الا بكتمان أمري وفي كل حال فقد وجدت باقراري شيئا من العزاء

ثم نهض يمشي الى آخر الغرفة وعاد فرأى ماريوس ينظر اليه كيف يمشي فقال له

أنك تراني أعرج قليلا فذلك من تأثير القيد

والآن فلنفترض يا سيدي اني بقيت على ما كنت عليه واني أقمت بينكم وجالستكم على المائدة وذهبت معكم الى المتنزهات فبينما أنا متأبط ذراع غوسيت اذا بالبوليس يضع يده على كتفي

ويقول ياجان فالجان اني اقبض عليك باسم الشرع فماذا تقول

فسكت ماريوس ومضى جان في حديثه فقال

ارأيت يا سيدي اني مصيب بما نحت لك به فعش سعيداً مع امرأتك ولا تبال بذلك المنكود الذي شق صدره كي يخرج منه هذا السر الرهيب بل قل أنه رجل شقي يستحق رحمة الله واشفاق الناس

وبعد ذلك مد ماريوس إليه يده فصافحه وهو يقول

أن لحدي كثيراً من الاصدقاء وسيسال لك العفو

قال لا فائدة من ذلك فان رجال البوليس يعتقدون اني ميت والاموات لا يراقبونهم

وبعد فقد قلت لك اني جعلت نفسي قاضياً على نفسي فلا التمس العفو من أحد

وبعد ذلك فتح الباب برفق ودخلت منه غوسيت فدنت منهما وقالت لهما وهي تضحك

أراهن أنكما تتكلمان في السياسة أليس الاجمل بكما أن تتحدثا معي

فارتعش جان وتمتم ماريوس بكلمات لا تفهم كأنهما جانيان بوغتا بالجناية

فجعلت غوسيت تنظر الى كل منهما نظرة الفاحص ثم قالت إني سمعت قبل دخولي صوت أبي يقول الضمير . . الواجب . .

وكل هذا سياسة أما رأيت ياماريوس ما لقيناه من السياسة

قال انك واهمة يا غوسيت فاننا نبحث فى أشغال

—ما هي هذه الاشغال

— اننا نبحث عن محل أمين نضع فيه أموالك

— إذن سأقيم معكما الى أن يحين وقت الغداء وما هو ببعيد فتكلما بما شئتما فلا أزعجكما بشيء

فأخذ ماريوس يدها وقال لها بملء الحنو

أننا نهتم بأشغال خطيرة يا غوسيت فاذهبي أيتها الحبيبة فاننا سنوافيك بعد هنيهة فان حديثنا يضجرك

— ما أجمل رباط رقبتك يا ماريوس . . كلا أيها الحبيب ان حديثكما لا يضجرني على الاطلاق

— ثقي انك تضجرين

— كيف اضجر وأنت تتكلم وأنا أسمع صوتك أن من يحب لا يبالى بفهم حديث من يحبه بل يكتفي بسماع صوته وهذا كل ما أتمناه اذن سأبقى

— هذا محال يا غوسيت

— محال

— نعم وسأوافيك بعد ربع ساعة

— كيف أقيم وحدي وأنت لست معي أرجوك يا ماريوس أن تدعني أجلس معكما

— أقسم لك أنه لابد أن نكون وحدنا

— وأنا أقسم إني إذا كنت معكما لا أزيد عليكما أحداً

ثم التفتت الى جان وقالت له

كيف دلك الا تأخذ بناصري بعد ماسمعته . . مابال وجهك مصفراً ألا تزال تشكو من يدك

— كلا فانها شفيت أتم الشفاء

— ألعلك أرقت فى هذه الليلة

— كلا

— إذن ما بالك لا تعانقى وأنا هنا منذ ربع ساعة

فقبل جبينها فقالت له

إبتسم

فابتسم بالكره عنه فقالت له

والآن دافع عنى أمام زوجى فانى أريد البقاء معكما

فقال لها ماريوس

غوسيت . لقد قلت لك أن هذا محال

قالت لا شك أنك ظالم كأبى وسأشكوكما الى جدك فهو ينتقم لى منكما وها أنا ذاهبة

فصبر ماريوس الى أن خرجت من الغرفة فقال

مسكينة ماذا يكون منها اذا عرفت

فارتعد جان فالجان ارتعاداً عنيفاً ونظر اليه نظرة القانطين

فقال كيف ذلك أتريد اخبارها بما أخبرتك به . . . أرجوك يا سيدى بل أتوسل اليك أن لا تفعل إلا يكفي أن تعرف وحدك حقيقة أمري..اني أبوح بأمري لجميع الناس ما خلاها . . ورباه إني أوثر ألف موت على أن تعلم انى قضيت نصف حياتى فى السجون

قال اطمئن فلا أبوح بسرك لاحد . والآن فلابدلى أن أقول لك كلمة بشأن هذه الامانة التى استودعتها وحفظتها بملء الشرف وهي أن عملك هذا يقتضى المكافأة فعين المبلغ الذى تريده بدفع لك فى الحال ولا تخش أن يكون حسبما فسل ما تشاء

فأجابه بملء الرفق قائلا

أشكرك فلا حاجة بي الى المال ولكنى أريد أن التمس منك قضاء أمر واحد

— ما هو

فتردد هنيهة ثم قال

انك الآن عرفت كل أمرى وقد أصبحت السيد المطلق فهل ترى أنه لا يجب أن أرى غوسيت بعد الآن

فأجابه ببرود قائلا

أظن أن ذلك أوفق

قال إذن لن أراها

ثم مشى الى الباب ففتحه ووقف هنيهة فأقفله وعاد الى ماريوس فقال بملء السكينة

إذا أذنت أن أراها كنت لك من الشاكرين وثق أنه لو خطر لي أني لن أراها لما بحت لك بشيء ولرحلت من البلد

ولكني لا أستطيع فراقها ولذلك بحت لك بأمري كما تقضي على به الواجبات على رجاء أن ذلك لا يمنعني أن أراها

واصغ الي يا سيدي فاني أربيها منذ عشرة أعوام لم أفارقها لحظة فأقمنا في غرفة حقيرة ثم في الدير ثم في منزل قرب لكسمبرج حيث كنت تراها فكنت كابيها وكانت كابنتي

ولا أعلم إذا كنت تفهم كل ما يجول بقلبي فكيف أطيق الآن أن لا اراها ولا أكلمها فائذن لي أن آتي من حين الي حين ومتى أتيت فلا أقيم طويلا

واني أدخل من باب الخدم بل أدخل من الباب الكبير كي لا أستلفت الانظار

وكن في مكاني ياسيدي تعلم أن هذا الفراق لا يطاق على أني آتي في المساء حين يخيم الظلام

قال لك أن تحضر في كل ليلة فان غوسيت تنتظرك

فشكره جان فالجان وانصرف فشيعه ماريوس الى الباب أي أن النعيم شيع اليأس وافترقا

***

كان ماريوس على أشد حالة من الاضطراب فقد كان يرى أن هـذا الرجل محاط بالاسرار ولكن لم يخطر له في بال أن يكون

من المجرمين المحكوم عليهم بالسجن المؤبد

وقد فوجىء بهذا الخبر في أحسن أيام نعيمه كما يفاجئون عقرباً في عش حمامة

وقد جعل يناجي نفسه ويراجع أعماله فوجد أنه هو المخطىء إذ كان يجب عليه أن يفحص ويتروى ويبحث عن ماضي هذا الرجل قبل أن يقدم على الزوج بينته

وقد ذكره أمره مع تنارديه وعصابته حين كادوا له وحين فاجأهم البوليس فانه اغتنم فرصة انشغال البوليس بالقبض على اللصوص وهرب بدلا من أن يبقى ويشكو أمره مما يدل على أنه كان يخاف أن يراه رجال البوليس ويعرفوه

وقد رأى ماريوس كل ذلك فلماذا لم ينتبه . . أن حب غوسيت أعماه عن كل ذلك فلم يفتكر إلا بغوسيت

وبعد فانه لو وقف على الحقيقة قبل أن يتزوج أكان ذلك يمنعه من الزواج بغوسيت وقد تمشى حبها في روحه كما يتمشى الدم في المفاصل ...

كلا ... إذن فلماذا يلوم نفسه وعلام الأسف . . أن الحب قد عصب عينيه وقاده ولكنه لم يقده الى الحفرة بل الى طريق النعيم

ونعم انه ذعر منه حين علم أنه لص محكوم ولكن هذا الذعر كان يمتزج بالشفقة والاعجاب فان هذا اللص قد أرجع ثروة عظيمة لو أراد أن يطمع فيها لما طالبه بها أحد

ثم أنه باح بسره وهو سر هائل دون أن يكون مضطراً الى شيء من ذلك بحيث عرض نفسه بأقراره لأشد الاخطار فقد كان متنكراً باسم يستطيع أن يعيش به اهنأ عيش فأنى ولماذا ؟ لخوفه من تقريع الضمير

فكيف يكون لصاً وهو يرجع ستمائة الف فرنك أؤتمن عليها وكيف يكون مجرماً وهو يؤثر الاعدام على توبيخ الضمير

إذن لابد أن يكون لهذا الرجل سر عظيم يخفيه أو يكون لا شك من عظماء الرجال

ومع ذلك فقد كان يجول فى خاطره أمراً كان قد خفي عنه سببهما

أحدهما امتناعه عن الشكوى حين داهمه تارديه وعصابته وهربه وقد عرف الآن السبب فانه كان يخشى أن يعرفه المفتش فيعيده الى السجن والثانى أنه ذكر الآن انه رأى هذا الرجل فى المتاريس وانه لم يكن يقتل احداً فأي شأن كان له هناك

وعند ذلك ذكر جافرت اذ كان قد رأى جان فالجان حين خرج بجافرت وهو مكتوف اليدين مقيد الرجلين الى ما وراء المتاريس وقتله فهو إذن لم يذهب الى المتاريس الا لينتقم من جافرت اذ كان يعلم انه أسير فيها

وبعد فكيف اتفق انه عاش مع غوسيت هذا الزمن الطويل وكيف اتفق ان الاقدار القتها وهي طفلة اليه بل كيف اتفق أن اؤتمن على مثل هذا المبلغ العظيم

كل ذلك يدل على ان هـذا الرجل تكتنفه الاسرار وربما كانت أسراره هائلة فليس من الحكمة أن يكون له به اتصال

وقد ندم مما أظهره فى مقابلته من الرفق بل من الضعف فان مثل هذا الرجل لايجب أن يدخل الى منزله

ولكنه وعده أن يكتم أمره عن غوسيت فكيف يعلل امتناعه عن قبوله فى منزله اذا كتم عنه السبب

ثم انه أذن له أن يأتي كل ليلة فكيف يحنث بوعده

ولكنه فى جنب ذلك كان يرى له كثيراً من الحسنات فلم يعلم كيف يوفق بين النقيضين

وعلى الجملة فقد كان فى أشد حالات الاضطراب وقد سأل غوسيت أسئلة مختلفة عن حداثتها وعن جان فالجان دون أن يدعها تشعر بشيء من قصده فكانت تجيبه عن أجوبة ترجح اعتقاده انه من أهل الخير ولكنه بقي موجساً خيفة من تلك الاسرار التى لم يوفق الى كشف دقائقها

***

وفى اليوم التالى حين هبوط الظلام ذهب جان فالجان الى منزل البارون ماريوس

وعند ماطرق الباب ودخل استقبلته الخادمة فى الردهة وقالت له قبل أن يكلمها

لقد أمرنى سيدى البارون ان أسألك اذا كنت تريد أن تصعد الى فوق أو تبقى هنا

قال بل ابقى هنا

ففتحت باب القاعه وقالت له

تفضل ياسيدى بالدخول وأنا ذاهبة لاخبار الباروتة بقدومك وانك تنتظرها

وكانت هذه القاعة التى دخل اليهـا جان فالجان باردة رطبة وكانوا يستعملونها من قبل لخزن المؤونه

وهي تشرف على الشارع ولا يوجد فيها غير نافذة واحدة لها قضبان من الحديد وزجاج أحمر بحيث ينفذ اليها النور فى رائعة النهار فلا ينيرها الا بمقدار مايسير ضوء القمر أو نور الفجر

وكان الغبار كثيراً فيها والعنكبوت مخيم عليها وكل ما كان فيها من الزينة قطعة سوداء من القماش المصور تزينت بالذباب الميت كانت على زجاج النافذة

وكان أثاثها مؤلفاً من كثير من القزاز الفارغة موضوعة فى احدى زواياها وفيها مستوقد من الخشب مصبوغ بدهان اسود وقد اوقدت فيـه النار مما يدل على انهم كانوا يتوقعون جواب جان فالجان وهو ايثاره البقاء تحت

وكان فيها كرسيان وضعا بجانبي المستوقد ومعهما قطعة رثة تشبه السجادة

ولم يكن فيها من النور غير لهيب النار فى المستوقد والشفق الذى كان يبعث نوره من النافذة

وكان جان فالجان شديد التعب فانه منذ أيام لم يأكل ولم ينم فجلس على الكرسي وعادت الخادمة تحمل شمعة فأنارتها ووضعتها على المستوقد وانصرفت فكان جان جالساً ورأسه بين يديه فلم ينتبه لدخولها ولا للنور الذي جاءت به

وبعد هنيهة نهض واقفاً فان غوسيت كانت وراءه وهو لم يرها ولكنه شعر بقدومها فالتفت وجعل يتمعن في وجهها الجميل ولكنه لم يكن ينظر بتحديقه الى جمالها بل إلى نفسها

أما غوسيت فانها قالت له

لقد كنت أعلم يا أبي أنك لا تهتم لسفاسف الامور ولكني لم أكن أتوقع منك مثل هذا فقد قال لي ماريوس أنك أنت الذي أردت أن أستقبلك هنا

قال نعم أنا الذي أردت

قالت اني كنت أتوقع هذا الجواب أيضاً ولكن لنبدأ بالبداية يا أبي فهلم وعانقني

وقد بسطت له خدها فلبث في مكانه فقالت

أنك لم تقبلني فكان ذلك بمثابة صفعة ولكني أغفر لك فقد قال السيد المسيح من ضربك على خدك الايمن فادر له الايسر وها أنا أدير لك خدي الايسر

فلم يتحرك من موضعه كأن رجليه قد التصقتا في البلاط فقالت له وقد عجبت من جموده

ماهذا الذي أراه وعاداأسأت اليك . أنك أسأت الى الآن وعقابك أن تتمشى معا

— لقد تمشيت

— كلا وسأشكوك الى حد ماريوس فهذا الذي يعرف ان ان يعاقب المذنبين

والآن هلم معي ولنصعد الى القاعة الكبرى

— هذا محال

فاشتد اندهال غوسيت ورجعت عن اصدار الاوامر الى الاسئلة فقالت له

ولكن لماذا تؤثر أن أستقبلك في هذه الغرفة وهى تشبه القبو كما ترى على أن تصعد معى الى القاعة

قال انك تعلمين ياسيدتي البارونة ،أنى أحب الاماكن المظلمة

فدقت غوسيت يداً بيد وقالت

سيدتى . . أتدعونى سيدتى البارونة . . رباه . . ماذا طرأ عليك وماذا تعي

— لا أعي شيئاً ولكنك أنت التى أردت أن تكونى مدام ماريوس فصرت

— ولكن هذا اللقب يدعونى به الناس الغرباء لا أبى

— لا تدعونى أباك

— كيف ذلك

— لك أن تدعونى المسيو جان إذا أردت

— رباه ما هـذا الذى اسمعه . أنت لم تعد أبى وأنا لم اعد غوسيت وتريد أن أدعوك موسيو جان فماذا حدث . . انظر الي . . أرنى وجهك . . ثم أنك لا تريد أن تكون معنا وتأبى الاقامة فى الغرفة التى عينتها لك فبماذا أسأت اليك وماذا جرى

— لا شىء

— إذن ماذا

— كل شيء لا يزال على حاله

— لماذا غيرت اسمك

— ألم تغيري أنت اسمك

ثم ابتسم وقال وإذا كنت أصبحت تدعى البارونة بونتمرسى فكيف تنكرين على أن أدعى مسيو جان

— انى لا أفهم شيئاً مما تقول سوى أنك تحزنني كثيراً عنادك ولا يحق لك أن تحزنني فما عودتني منك هذا

فلم يجبها لشىء

فأخذت يده وجعلت تمر بها على وجهها وعنقها ودقنها اشارة الى حنوها وتقول له كن كريماً على ما أعهده فيك يا أبي وأقم بيننا ولنعد الى منتزهاتنا السابقة فان العصافير تغرد هنا كما تغرد هناك واترك شارع الرجل المسلح وابق أبى كما كنت

فأفلت منها برفق وقال لها

لم تعودي محتاجة الى أب فقد صار لك زوج

— رباه ماذا أسمع . . بالله قل ماذا طرأ عليك

— ماعساه يطرأ عليّ ولكني لا أستطيع الاقامة معكم لاني أحب العزلة كما تعلمين

— ولكن البرد شديد في هذه الغرفة وبعد فاني لاأطيق أن أدعوك موسيو جان وان تدعوني سيدتي البارونه . نعم أن هذا لا يطاق وقد بدأت تعذيبي منذ أمس فانك لم تدافع عني امام ماريوس حين أبى عليّ أن أكون معكما .. وقد أعددت لك غرفة وبالغت جهدي في تنظيفها فابيت أن تقيم فيها وأوصيت الطباخ أن يعد احر المآكل واشهر الطعام فرفضت أن تذوق طعامي وفوق كل ذلك فان أبي موشلفان لا يريد أن أدعوه الا بمسيو جان ولا أستقبله إلا في دهليز نبت العشب فوق جدرانه ورصفت فيه القناني الفارغة وليس فيه من الستائر غير نسج العنكبوت فبماذا أسأت اليك ولماذا تعذبني هذا التعذيب وأنت تحبني كما تقول ألا تريد أن أكون سعيدة

فاصفر وجه جان ولبث هنيهة مطرقاً لا يجيب ثم نظر اليها بملء الحنو وقال لها بصوت يشبه الهمس

أن كل مطامعي في هذه الحياة ان اراك سعيدة ياغوسيت

فاشرق وجهها بنور البشر وقالت

لقد عاد الي سيدي وابي فوشلفان والحمد لله

اما هو فانه اخذ قبعته ونهض فاجفلت وقالت له

الى اين

قال انى ذاهب ياسيدتى البارونة فعودى الى سيدي البارون فانه ينتظرك

وعند ماوصل الى الباب التفت وقال لها

لقد دعوتك غوسيت فقولى لزوجك اني لن أعود الى هذا الخطأ واغفرى لى

ثم تركها وهي حائرة منذهلة مما سمعته وانصرف

***

وفى اليوم التالى عاد بنفس الساعه التىجاءفيها أمس فلم تسأله غوسيت شيئاً ولم تنذهل ولم تظهر الشكوى من برد القبو ولم تدعه بالموسيو جان ولا بابى ولم تعترض حين كان يدعوهابارونة ولكنها كانت شديدة الكآبة

وقد يكون ماريوس حادثها بشأنه حديثاً لم يحتج فيه الى التصريح فان المرأة تدعى لمن تحبه فى كل مايريد

ولكنها كانت قد أمرت باصلاح ذلك القبو فنظفوه واخرجوا منه القنانى الفارغة

وجعل جان يأتى كل يوم فى الوقت المعين فلم يتفق له مرة أن يرى ماريوس لان ماريوس كان يعرف أوقات حضوره فيغيب عن المنزل

وقد تعود أهل المنزل عليه فكان جد ماريوس يقول انه رجل كريم القلب ولكنه شاذ الطباع فقد عرف فضله المركيز

دى كنابل فانه اشترى قصراً من أفخم القصور فترك قاعاته الرحبة للحدم واقام فى أحد مستودعاته

ولم يكن أحد يعرف دخائل حان غير ماريوس وكيف تخطر لهم أسباب هذا الهوج فى بال فانهم كانوا يرون اضطرابه دون أن أن يعرفوا السبب فكان مثله مثل تلك البحيرات العظيمة فى الهند ينظر الرائى الى مياهها فيراها مضطربة دون أن يكون هنالك رياح تثيرها ولكنه لو أحدق فى أعماق تلك المياه لرأى الثعابين تتلاعب تحت سطحها فتهيجها هذا الهياج

وكذلك حان فالجان فقد كان اليأس في قلبه شبه ذلك الثعبان المائى ينهش قلبه من الداخل فتبدو ظواهر الألم على وجهه دون أن يعلم أحد سبب هذا الالم

ومضى على ذلك بضعة أسابيع تغيرت في خلالها حياة غوسيت تماماً بسبب ما تقتضيه الحالة الزوجية من ادارة المنزل وتدبيره والعناية بماريوس فقد كان ذلك كل ما يلذها ولا تجد نعيماً يعادل نعيم قربه لاسيما حين كانت تخرج وإياه متأبطة ذراعه لا تحاذر رقيباً ولا تضطر إلى الاحتماء تحت الاشجار حذراً من ان تراها العيون كما كانت تفعل فى الحديقة من قبل

وكانت أسباب الراحة متوفرة فى ذلك المنزل فان الجد كان فى أتم عافية والحالة لينة الطباع وماريوس يشتغل فى المحاماه وجان فالجان يأتى فى كل يوم

وقد تعودت أن تدعوه موسيو جان وان تسمع منه سيدتي البارونة وذهبت كابنها

ومع ذلك فقد كانت تحبه أصدق حب وهو يشعر أنها تحبه

وقد قالت له يوماً

أنك كنت أبي فلم تعد أبي وكنت عمي فلم تعد عمي وكنت شوفلشان فصرت المسيو جان فمن أنت إذن ولو لم أكن واثقة من كرم قلبك لخفت منك

فلم يجبها بشيء ولم تلح عليه بالسؤال

وكان لا يزال مقيماً في شارع الرجل المسلح إذ لم يكن يستطيع مغادرة المنزل الذي كانت تقيم فيه غوسيت

وكان في البدء لا يطيل زيارته ولا يقيم غير بضع دقائق ثم جعل يطيلها بالتدريج فكان يأتي قبل الاوان المعتاد ويذهب بعده

واتفق يوماً أن غوسيت غلطت ودعته بابيها فاتقدت عيناه ببارق من السرور وأشرق وجهه بعد التجهم

ولكنه لم يتمالك عن أن يقول لها ادعيني جان

فضحكت وقالت لا تؤاخذني فقد أخطأت ياموسيو جان

فقال حسناً

ثم أدار وجهه كي لا ترى الدمعة التي سقطت من عينه

***

وكانت هذه آخر غلطة من غوسيت ومن ذلك اليوم عادت معه الى الكلفة فلم تعد تعانقه ولا تدعوه بابيها

وانما كان ذلك بخطائه فهو الذى حرم نفسه كل ذاك النعيم وبعد ان فقد غوسيت في يوم واحد جملة أصبح اليوم يفقدها تفصيلا

على أنه كان يقنع أن يراها ساعة فى كل يوم فان حياته بجملتها كانت منوطة بتلك الساعة فكان يجلس بجانبها وينظر اليها دون ان يتكلم أو أنه يحدثها عن أيام حداثتها حين كانت في الدير

فى يوم من أيام الربيع الزاهرة قال ماريوس لغوسيت

ألا تذهبين أيتها الحبيبة الى حديقتكم فى شارع بلميت فقد طالما منينا النفس بزيارة هذه الحديقة التى كانت مهد غرامنا

قالت كما تشاء فهلم بنا

وكان ذلك المنزل القديم لا يزال لجان فالجان فذهبا اليه عند العصر وأقاما فى تلك الحديقة على نفس ذلك المقعد يتناجيان ويذكران تلك الليالى التى كانا ينسيان فيها الوجود

وقد طالت اقامتهما هناك فلما جاء جان فالجان لزيارة غوسيت حسب العادة قالت له الخادمة

أنها لم تعد ياسيدى بعد فتفضل بانتظارها

فدخل الى القهو وأقام ساعة ينتظرها دون ان تعود فعاد الى منزله مطرق الرأس دامع العين

أما غوسيت فقد سكرت من سرورها بزيارة هذه الحديقة بحيث نسيت فى اليوم التالى أنها لم تر جان فالجان ولم تحدثه حين جاءها الا عن هذه الحديقة

فسألها قائلا كيف ذهبتما اليها

قالت ماشيين

قال وكيف عدتما

قالت لقد شعرت بالتعب فرجعنا في مركبة

وكان جان فالجان يرى منذ حين أن الزوجين يعيشان عيشة اقتصاد لا تنطبقان على ثروتهما ولا سيما ماريوس فقد كان يبالغ في اقتصاده الى حد البخل وهو لم يكن من البخلاء

ورأى جان أن الفرصة سانحة فقال لها

لماذا لا يكون لك مركبة خاصة فانها لا تكلفك أكثر من خمسمائة فرنك في الشهر وأنت غنية

قالت لا أعلم

قال وان خادمتك توسين قد سافرت فلماذا لم تستبدليها

— ان خادمتنا نيقوليت تكفي

— ولكن يجب أن يكون لك خادمة لغرفتك

— أليس عندي ماريوس

— بل يجب أن يكون لك منزل خاص ومركبة خاصة ولوج خاص في المراسح فلماذا لا تستفيدين من ثروتك

فلم تجبه بشيء

وكان جان فالجان يحتال أحياناً على إطالة زيارته بالثناء على ماريوس فيحدثها عن جماله ونبله وبسالته وذكائه ومروءته وكرم أخلاقه فتظهر عليها علائم السرور ويفرح لفرحها فاذا أراد الانصراف ألحت عليه بالبقاء فكان ذلك خير بلسم لجرحه

وكانت أحياناً تبقى معه إلى أن يدعوها الى العشاء

وقد عاد جان فالجان فى تلك الليلة وهو مطرق يفكر فى سبب هذا الاقتصاد فلا يهتدى اليه

وفي اليوم التالى عاد الى غوسيت فوجد أن المستوقد لا نار فيه فعجب فى البدء ثم قال فى نفسه

أننا اليوم فى نيسان (ابريل) وقد خف البرد فلم تعد حاجة الى النار فلما دخلت غوسيت صاحت قائلة رباه ما هذا البرد

قال لا أشعر بما تشعرين

قالت إذن أنت الذى أمرت الخادمة أن لا تشعل النار

قال نعم فقد أوشكنا ندخل فى شهر (مايو) أيار

قالت أن العادة أن يوقدوا النار الى شهر (يونيو) حزيران أما فى هذا القصر فيجب أن يكون وقودها متصلا مدى العام

قال لقد حسبت أن لا فائدة من النار

قالت وهذا من جملة شذوذك

وفى اليوم التالى وجد النار فى المستوقد ولكنه وجد الكرسيين عند الباب

فلم يعلم السبب فى نقلهما

غير أن وجود النار شجعه على إطالة زيارته فلما أراد الرحيل استوقفته وقالت له

لقد قال لى ماريوس أمس أموراً غريبة

— ما هي

— لقد قال لي ان إيرادنا ياغوسيت يبلغ ثلاثين الف فرنك في العام منها سبعة وعشرين الفاً إيراد أموالك والثلاثة آلاف الباقية عينها لي جدي فهل تريدين أن لا ننفق غير ثلاثة آلاف فرنك في العام فنقتصر على ايرادي

قلت أني أعيش من غير مال أيضاً بشرط أن أكون معك

ثم سألته لماذا تقول لي هذا القول

قال لا شيء بل أردت أن أعلم

فلم يجبها بشيء وكانت تتوقع أن يكشف لها هذه الغوامض ثم تركها وعاد الى منزله

وقد بلغ من تشتت باله أنه تاه عن باب منزله فبدلا من أن يدخل اليه دخل الى منزل جاره فلم ينتبه الى خطأه إلا بعد أن صعد كل السلم

وكان الذي دعاه الى هذا الذهول ثقته أن ماريوس بات مشككا بمورد ثروة غوسيت أو انه بات يعتقد أن هذا المال من جان فالجان ومن أين يأتي به ذلك اللص إلا من السرقة فأنف وأبى أن ينفق منه شيئاً وآثر لنبل قلبه أن يعيش مع زوجته عيش الفقراء على أن ينفق مالا يرتاب في حقيقة مورده

وفي اليوم التالي اهتز اهتزازاً عنيفاً حين دخل الى القبو لينتظر غوسيت فانه لم يجد الكرسي فيه

فلما دخلت غوسيت صاحت قائلة

ماذا أرى ألا يوجد كرسي هنا فأين ذهبوا بالكرسيين

قال لا يوجد كراسي

— ما معنى هذه الالغاز

— انا قلت للخادمة تأخذها

— لماذا

— لاني لا أقيم اليوم غير بضع دقائق

— وإذا أقمت بضع دقائق أتقيم واقفاً

— لقد ظننت أن الخادمة تحتاج اليهما لاحدى القاعات

— لماذا

— لانه يوجد عندكم كثير من الناس هذه الليلة

— كلا لا يوجد عندنا أحد

فلم يزد كلمة على ما قاله وهزت غوسيت كتفيها فقالت أمس أطفأت النار واليوم أخرجت الكرسيين فما هذا

— استودعك الله

فلم يذكر اسمها ولم يجسر أن يقول لها استودعك الله أيتها البارونة وانصرف وهو يحسب أن الارض تميد به إذ فهم كل شيء

وفي اليوم التالي لم يحضر حسب عادته فانقبض صدر غوسيت ولكن ماريوس لم يلبث أن عالجها وشماها بقبلة من هذا الانقباض

وفي اليوم الذي تلاه لم يذهب اليها أيضاً فاضطربت غوسيت وأرسلت في الصباح خادمتها الى منزله تسأل عنه إذا كان مريضاً فعادت اليها بجوابه وهو أنه ليس مريضاً ولكنه مشغل بشؤون منعته عن زيارتها وأنه سيأتي اليها حين تسنح الفرصة

وفوق ذلك فانه سيسافر حسب عادته التي تعرفها ورجاها في الختام ان لا تقلق عليه وان لا تهتم به

***

في أواخر الربيع وأوائل الصيف كان سكان شارع كالفيربرون شيخاً حسن الملابس يلبس السواد يخرج كل ليلة في ساعة معينة من شارع الرجل المسلح فينتهي الى شارع كالفير

وكانوا يرون أنه كلما توغل في ذلك الشارع تبدو على وجهه علائم السرور فيصل إلى زاوية فيسير ببطء ناظراً الى نقطة معينة وهو يتمتم كما يظهر من حركة شفتيه

وكان يظهر أنه يخاف أن يصل الى تلك النقطة على فرط شوقه الى بلوغها حتى إذا لم يبق بينه وبين تلك النقطة غير بضعة منازل يبطيء في مشيه الى أن يصل

وهناك يقف مضطرباً وينظر الى نوافذ آخر منزل في ذلك الشارع ثم تظهر دمعة في طرف عينه وتكبر حتى تسقط على وجهه ويقف هناك بضع دقائق لا يتحرك كأنه صنم ثم يعود بنفس الطريق التي جاء منها

وبعد حين جعل يقف نفس تلك الوقفة في وسط الشارع ثم جاء مرة فوقف قبل أن يصل فهز رأسه ورجع عائداً دون أن يتقدم ثم انقطع فجأة فكان مثله مثل الساعة يغفلون عن تدويرها فتبطيء حركة آلاتها بالتدريج الى أن تقف

وكان كل يوم يخرج من منزله في ساعة معينة لا يتجاوزها

وكل يوم يسلك نفس الطريق ولكنه لا يتم سيره كأنه كان يقول في نفسه أية فائدة من ذلك

ولكنه أصبح شاحب الوجه ذابل العينين ساهي النظرات وقد نضب الدمع من عينيه وكثر التجعيد في وجهه ورق جسمه

وكان يسير أحيانا تحت الامطار وشمسيته تحت إبطه لا يفتحها فيراه الناس في الشارع فيقول انه مجنون ويراه الغلمان فيسيرون في أثره وهم يضحكون

***

كثيرون من الناس يشغلهم نعيم الحياة عن الواجبات وهذا كان شأن ماريوس

غير أنه لا يجب أن نتسرع في تعنيفه فقد تقدم لنا القول أنه لم يكن يجسر على أن يسأل فوشلفان شيئاً قبل الزواج

ولما تزوج بات يخاف أن يسأل جان فالجان

وقد ندم لانه أذن له بالمجيء الى منزله في كل يوم وعزم على ابعاده بالتدريج الى أن يمحو أثره من مخيلة غوسيت

وكان يحول بينه وبينهـا بحيث لايدعها تنتبه لوثوقه أنه لا يمضي بها زمن قليل حتى تنساه

أن ماريوس كان يعتقد أن ما يفعله حق وأنه لابد من إبعاد جان فالجان برفق لا يتخلله ضعف للأسباب التي بسطناها ولأسباب أخرى سوف تظهر

وقد اتفق له وهو يرافع في احدى القضايا انه عرف موظفاً

قديماً فى مصرف لافيت فعرف منه اتفاقاً أموراً لم يكن يستطيع البحث عنه لتقيده بما وعدبه جان فالجان من كتمان سره فبات يعتقد أن من أهم واجباته ارجاع الستمائة الف فرنك لصاحبها وفي انتظار ذلك فانه امتنع عن أن ينفق شيئاً من هذا المال

أما غوسيت فانها لم تكن تعلم شيئاً من كل هذا وكان ماريوس قد سحرها فلم تكن تعترضه فى شيء مما يريد

وكانت تشعر أن ماريوس لا يعطف على المسيو جان فتوافق على إرادته دون أن تسأله لماذا

وعلى الجملة فان تحببها جان فالجان لم يكن طبيعياً فقد كانت تحبه حباً صادقاً ولكنها كانت تحب زوجها أكثر مما تحبه وهذا الذى رجح كفة الميزان الى جهة ماريوس دون أن تنسى ذلك الرجل الحنون الذى طالما دعته بأبيها

وكان يتفق احيانا أنها تذكر جان فالجان أمام ماريوس وهى متأثرة من انتماده فيطمانها زوجها ويقول لها لا شك أنه مسافر فتقول هو ذاك فان من عادته أن يسافر أكثر الاحيان ولكنه لم يكن يطيل غيابه الى هذا الحد

وقد أرسلت خادمتها مراراً تسأل عنه فى منزله فكان يجيبها أنه لم يعد بعد

وتوالت الايام فانقطعت عن السؤال عنه واكتفت بماريوس

ولابد لنا من القول هنا أن غوسيت قد غابت عن باريس أيضا بضعة أيام فقد ذهب بها زوجها لزيارة قبر أبيه فى فرنون

وقد تمكن ماريوس تدريجاً من حمل غوسيت على نسيان جان فالجان وهو عقوق ينكره الناس على الابناء ولكنهم لو تمعنوا لوجدوا أن هذا العقوق من الطبيعة نفسها . فان الصبي يدفع بصاحبه الى الفرح والملذات والحب والشيخوخة تدفع صاحبها الى النهاية فينظر الفتى الى الامام فلا يرى غير النور وينظر الشيخ الى الوراء فلا يرى غير الظلمات

***

خرج جان فالجان يوما فجلس على عتبة بابه فى ذلك المكان الذى رآه فيه كافروش ليلة حرب المتاريس حين جاء برسالة ماريوس إلى غوسيت

وقد أقام على تلك العتبة هنيهة ثم عاد الى منزله فكانت هذه آخر حركات رقاص ساعته

ولزم الفراش فى ذلك اليوم واليوم الذى يليه

وقد جاءته بوابة منزله التى كانت تخدمه بطعامه وهو لا يزيد عن (الكرنب) الملفوف أو البطاطس فنظرت الى الصحن على المائدة فرأت ان الطعام لا يزال فيه فقالت له

ماهذا ألم تأكل أمس

قال نعم

— ولكن الطعام لا يزال على حاله في الصحن

— انظرى الى ابريق الماء فانه فارغ

هذا يدل على انك شربت ولا يدل على انك أكلت

— ما اعمل اذا كنت جائعا للماء

— تريد أن تقول انك ظمآن وانك غير جائع فلا بد أن تكون محموما

سآكل غداً

— ولماذا لا تأكل اليوم أسمعت أحداً يقول سآكل غداً فانى طبخت لك اليوم أنخر الطعام

— أعدك انى سآكله

ولم يكن يرى غير تلك المرأة فانه يوجد في باريس شوارع لا يمر بها أحد ومنازل لا يزورها أحد فكان حان فالجان مقيماً فى ذلك المنزل وذلك الشارع

ومضى على ذلك أسبوع دون أن يخطو خطوة فى غرفته لملازمته الفراش فكانت البوابة تقول لزوجها

ان هذا الرجل المسكين يلزم الفراش منذ أسبوع فلا يأكل شيئاً وكل يوم يزيد هزالا دون أن تزوره بنته فلا شك أن زواجها سيكون علة قتله

فكان زوجها يجيبها بقوله انه اذا كان غنياً عالجه الاطباء فشفوه واذا كان فقيراً فلا بد له من الموت

فتقول مسكين انه من أطيب الناس قلباً

وكانا يتحدثان عند الباب فرأت طبيباً مقيماً فى الشارع مر بهما فاستوقفته وسألته أن يصعد لمعالجة مريضها

فصعد الطبيب وفحصه فلما نزل سألته البوابة قائلة

كيف رأيته

قال ان مرضه شديد

— ما هو

— هو كل شيء ولا شيء اد يظهر ان علته من فقد عزيز وذلك يقتل أحيانا

— وماذا قال لك

— قال انه على خير حال

— أتعود اليه ياسيدي الطبيب

— نعم ولكن يجب أن يعود سواي أيضاً أوكان شفاؤه محالا

***

ففي ليلة شعر جان فالجان ان قوته تلاشت حتى انه لم يعد يستطيع أن يرفع يده وقد ضاق تنفسه

ولا شك انه كان يفتكر بامر خطير فانه بذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من الاستواء في سريره

ثم بذل مثل هذا الجهد أيضاً فخرج من السرير وأخذ يلبس ثوبا من ملابس العمال لانه كان يؤثر هذا الثوب على سواه لاسيما وانه لم يكن يريد الخروج من المنزل

وعند ذلك أخرج من خزانته ملابس غوسيت الصغيرة وفرشها على سريره

وكان الشمعدانان اللذان أخذهما من الاسقف على المصدة فأخذ شمعتين من درج فوضعها فيهما وأنارهما مع ان الشمس لم

تكن قد غربت بعد فان الشموع لا ينيرونها في المنازل فى رائعة النهار الا فى غرف الاموات

ولم يكن يخطو حطوة فى تلك الغرفة حتى يضطر الى الجلوس فلم يكن ذلك من التعب المألوف الذي ينهك القوى ثم يجددها بالراحة بل كانت الحياة تسيل قطرة فقطرة دون أن تتجدد

وقد اتفق جلوسه على كرسي امام تلك المرآة التى رآى فيها رسالة غوسيت منعكسة على الورق النشاف فنظر وجهه الى تلك المرآة فلم يعرف نفسه ورأى انه قد بلغ مائة عام من العمر مع أن من رآه قبل زواج غوسيت يقول انه لايتجاوز الخمسين فكان هذا العام الذى مر به بخمسين

ولم يكن ذلك من تجعيد وجهه وذهول عينيه بل من علائم الموت التى كانت ظاهرة فى تينك العينين

وقد ارتخى جلده وبات لون وجهه يشبه لون التراب واندلعت شفته السفلى فاصبح كذلك التمثال الذى كان ينقشه القدماء فوق القبور

ثم أقبل الليل فقام إلى منصدة كان عليها أدوات الكتابة وقد أثر به نهوضه تأثيراً عظيما حتى انه أغمى عليه فلما استفاق شعر بظمأ شديد ولكنه لم يستطع أن يحمل اناء الماء فانحنى عليه وشرب

ثم التفت إلى السرير وجعل ينظر الى ملابس غوسيت فغاص في بحار التأملات وهو ينظر اليها

وبعد هنيهة شعر بارتعاد نتج عن البرد فاسند كوعه إلى المنضدة التي كان عليها شمعدان الاسقف وأخذ القلم بيده الثانية فمسح جبينه من العرق البارد الذي كان ينصب منه وكتب ما يأتي

« غوسيت اني أباركك وأخبرك في آخر ساعاتي ما أشكل »
« عليك. ان زوجك أصاب بافهامي انه لايجب أن أذهب اليكم »
« ولكنه على اصابته كان واهما في ظنونه وذلك يقضي عليك »
« أن تحبيه على حوارحك بعد موتي فلو لم يكن واهما لما فعل »
« شيئاً مما فعل »

« غوسيت انك ستقرأين هذه السطور بعد موتي فتعلمين »
« ان الستمائة الف فرنك هي لك فاعلمي الآن كيف كسبتها »

« ان الكهرباء البيضاء ترد من نروج والكهرباء السوداء »
« ترد من انكلترا والخرز الاسود يرد من المانيا »

« وان الكهرباء أخف وأغلى ويمكن تقليدها في فرنسا »
« وذلك انه لابد لصنعها من اللك وهذا اللك يصنعونه »
« هناك من القطران والدخان فتكلف الليبرا أربعة فرنكات »
« أما أنا فقد وفقت الى اكتشاف جليل وهو مزج الصمغ »
« بالترنبتين فلا تكلف الليبرا من هذا المزيج أكثر من ثلاثين »
« سنتيما وهو يأتي بنفس الفائدة فيكون الفرق عظيما كما ترين »

« وان الاسبانيين يشترون كثيراً من هذه الكهرباء . . »

وهنا توقف عن الكتابة فان القلم سقط من يده ولم يعد يستطيع أن يخط حرفا

فوضع رأسه بين يديه وجعل يناجي نفسه فيقول

لقد قضى الامر فلن أراها بعد الآن . . رباه انى لا أسألك لأن أراها لحظة واسمع صوتها وألمس ثوبها ثم أموت . . انى لا أجد أسهل من الموت ولكنى لا أجد أشد منه اذا قدر لى أن لا أراها . . انها تبتسم لى . . انها تقول لى كلمة . . فهل يضر ذلك أحداً . . كلا فقد قضى على أن لا أراها وان أموت وهى بعيدة عنى . رباه .. رباه ما أصعب هذا الموت

وعند ذلك طرق باب غرفته

***

في ذلك اليوم نفسه بل فى تلك الليلة نفسها خرج ماريوس من قاعة الطعام ودخل الى غرفته

وبينما هو جالس دخلت اليه الخادمة برسالة فقالت له أن صاحب هذه الرسالة ينتظر

فأخذ ماريوس الرسالة وشم منها رائحة الدخان وقرأ عنوانها وهو: الى سيدى البارون بونتمرسى فى منزله

وقد خيل له أنه عرف رائحة هذا الدخان وعرف بها ذلك الخط أنه خط جوندريت أى تارديه فقد كان عثر برسائله الاربع التى أضاعتها بنته كما تقدم

فسر بذلك لانه كان يبحث من عهد بعيد عن تارديه فلا

يهتدى اليه إلي أن جاءته رسالته ففضها وقرأ ماياتى

« يا سيدى البارون»

« لو منحني الله ما منح البارون تنارد من نعمة العقل »

« لكنت الآن مثله من أعضاء الاكاديمي »

« ولكنه لم يمنحني غير اسمه فأنا أدعى بذلك الاسم الذى »

« أرجو أن يكون لى خير شفيع اليك »

« على أن كل ما تحسن به الىّ إنما يكون من قبيل المكافأة »

« فاني واقف على سر يتعلق بشخص يهمك أمره »

« وإني مستعد لاطلاعك على هذا السر على رجاء أن اتشرف»

« بأفادتك وأسهل لك طرد هـذا الشخص من بين أسرتك »

« المحترمة إذ لا يحق له أن يكون بينكم ولاأن ينتسب الى سيدتي »

« البارونة فانها من خير الاسرات »

« واني في ساعة الانتظار انتظر أمر سيدى البارون فتفضل »

« بقبول احترامي

« تنارد »

ولم يكن هـذا التوقيع مختلقا ولكنه كان مختصراً فكان دلك مع الخط أجل برهان على أن صاحب هـذه الرسالة انما هو تناردييه بعينه الذى طالما بحث عنه ماريوس

وقد كان تأثره عظيما من هذا الاتفاق لظفره بهذا الرجل الذى انقذ أباه ولم يبق عليه إلا أن يظفر بذلك الرجل الذى انقذه من المتاريس كي يتم هناؤه

وقد فتح درجاً فى المنضدة التى كان جالساً وراءها فاخذ منه بضع أوراق مالية وضعها فى جيبه ثم قرع الجرس فجاءت الخادمة فقال لها

ادخلى هذا الرجل

وبعد هنيهة دخل الرجل وقبعته فى يده فكان اندهاش ماريوس عظيما لانه لم يعرف هذا الرجل الذى كان يتوهم من قبل أنه نفس تارديه

أما الرجل فقد كان شيخاً كبير الانف يصل رباط رقبته الى ذقنه وعلى عينيه نظارتان زرقاوان وشعره منبسط على جبهته إلى الحاجبين كذلك الشعر المستعار الذى يلبسه سواق مركبات أكابر الانكليز

وكان ذلك الشعر أبيض وهو يلبس ثوباً اسود وبيده قبعة قديمة وله انحناء فى ظهره كان يزيد ظهوراً عند التحية حتى يشبه الحدبة

وأول ما كان يستلفت الانظار الى هذا الرجل أن الثياب التى كان يلبسها لم تكن مفصلة له

وهنا نبسط شيئاً من هذا القبيل فنقول

أنه كان يوجد فى باريس فى ذلك العهد رجل عجوز فى شارع نوتربلى قرب الثكنه وهو يهودي كانت مهنته تغيير الازياء فيجعل اللص شريفاً

أي أنه كان يعير اللصوص وغيرهم من الاشقياء كل مايحتاجون

اليه من الملابس للتنكر فيبقى الثوب عند مستأجره يوماً أو يومين ولا يقبض أجرته غير فرنك واحد

وكان يدعى مغير الازياء فان اللصوص لم يكونوا يعرفون إسمه فاصطلحوا على تلقيبه بهذا اللقب

وكان يوجد عنده من جميع أنواع الازياء على اختلافها من ثوب القاضي ألى ثوب الكاهن الى الصراف فالجندى فالضابط فالكاتب بحيث كان السبب الاكبر فى تسهيل مهمات اللصوص فى باريس

وكان من شاء أن يتنكر يأتى اليه فيدفع الفرنك مقدماً ثم يدخل الى المخزن فيختار الثوب الذى يحتاج اليه وعند خروجه يكتب اسمه فى دفتر كبير ونوع الثوب الذى تنكر به وتاريخ أخذه وينصرف

وفى اليوم التالى يرجع اليه الثوب ويمحو اسمه من السجل

ولم يكن يجسر أحد على سرقته لانه كان يعرف جميع اللصوص وفوق ذلك فان كتابة توقيعه فى الدفتر تعد برهاناً على جريمة لا يوافقه أن يظهرها اليهودى للبوليس

وكان يندر أن يوافق ثوب من هذه الملابس جسم لابسه فان هذا الشيخ حين خاطها فصلها على الاجسام المعتدلة فلا توافق البدين ولا الهزيل ولا الطويل ولا القصير وعلى من يلبسها أن يتدبر بها بما يراه

وكان قد وضع بياناً لما عنده من الملابس فى دفتر ضخم ولكل

ثوب نمرة خاصة به فيأخذ الداخل الدفتر ويقرأ فيه أشكال الملابس فاذا وافق شكل نظر الى نمرته ودخل الى المخزن فطلب تلك النمرة وهذا مثال من ذلك الجدول

« نمرة ٢٠ : سترة سوداء من الجوخ الاسود من نوع الردنجوت بنطلون من الكتان الاسود . صدرة من الحرير . حذاء . ثياب داخلية بيضاء . شعر مستعار مجعد . نظارات زرقاء انبوبتان من الريش ضمن غلاف من القطن لتكبير الانف »

ولم تكن هذه الملابس تامة متناسبة أو خالية من العيب فان بعضها كان مرقعاً من الكوع وبعضها مقطع الازرار الى غير ذلك من العيوب فكان على مستأجرها أن يتدبر فى طريقة اخفائها

هذا ما كان يوجد فى مخزن اليهودى الذى جمع ثروة كبيرة من أولئك اللصوص

ولو كان ماريوس يعرف شيئاً من تاريخ هـذا المخزن لعرف من فوره أن ثوب زائره انما هو من ثياب ذلك المخزن

وقد استاء حين رأى أن هـذا الرجل غير الرجل الذي كان يتوقع أن يراه فجعل ينظر اليه نظر الباحث المدقق بينما هو ينحني للسلام عليه ثم قال له

ماذا تريد

فابتسم الرجل ابتسام التمساح وقال له

يستحيل أن لا أكون قد رأيت سيدى البارون فى بعض القصور

ويخال لى أني رأيته منذ بضعة أعوام عند البرنس باجراسيون وعند الفيكونت دمبراى

وهي طريقة يجرى عليها النصابون فى باريس فيوهمون من يريدون النصب عليه أنهم رأوه في الاماكن الممتازة إثارة لعواطف غروره والاستفادة من ذلك

وكان ماريوس يصغى أتم الاصغاء الى صوته وينتبه كل الانتباه الى حركاته واشاراته فوحد النبرات والاشارات تختلف عما يعهده بتنارديه وقال له

انى لا أعرف البرنس باجراسيون ولا المركز دامبراى ولم أزرهما فى حياتى

فلم يقتصر الرجل وقال

إذن لقد رأيت سيدى البارون عند شاتوبريان فانه من اصحابي وقد دعاني مرات كثيرة الى معاقرة المدام

فقطب ماريوس جبينه وقال بلهجة جافية

انى لم أتشرف بمعرفة المسيو شاتوبريان فقل ما تريد وأوجز فى مقالك

فانحنى الرجل أيضاً وقال

ليتفضل مولاى البارون بالاصغاء الى : انه يوجد فى أميركا فى بلد قريب من باناما قرية تدعى جويا

وهذه القرية لا يوجد فيها غير منزل واحد مربع مؤلف من ثلاثة أدوار يبلغ ارتفاع كل دور اثنى عشر قدما

ويوجد أمامه مشرف يحيط به من كل جهاته وفي وسطه مستودع كبير للمؤن والدخائر لا يوجد فيه نوافذ ولا أبواب بل سلالم يصعد عليها الى الادوار الثلاثة

وفي المساء يرفعون تلك السلالم فلا يبقى سبيل الى الدخول الى هذا المنزل أو الي الخروج منه

وهو في النهار قلعة وفي الليل يبيت فيه ثمانمائة رجل وهذه هي القرية

أما أسباب الحذر الشديد فهو أن هذه القرية شديدة الخطر لكثرة اللصوص حواليها وانما يذهبون اليها لاستخراج الذهب من ترابها

فقاطعه ماريوس وقد كاد ينفذ صبره فقال

الى أين تريد أن تنتهي

قال اني يا سيدي البارون سياسي يستريح من عناء الاعمال وقد ارهقتني المدنية القديمة فأردت أن أجرب المتوحشين

— وبعد ذلك

— إن حب الذات يا سيدي البارون أو الانانية هي شريعة البشر فان الفلاحة التي تشتغل مياومة تلتفت حين تمر مركبة المسافرين وأما وأما الفلاحة صاحبة الارض فلا تلتفت أريد أن كل انسان في هذا الوجود ينظر الى منفعته الذاتية والذهب مطلب كل انسان

— وبعد ذلك. قل ما تريد

— اني أريد أن أذهب إلى هذه القرية التى يستخرجون منها الذهب أنا وامرأتى وابنتى والسفر طويل يحتاج الى الكثير من النفقات

— أى شأن لى بنفقاتك

فابتسم الرجل وقال

أأمل سيدى البارون لم يقرأ كتابى

وكان هذا الرجل مصيباً في ملاحظته فان ماريوس شغل بمراقبة الخط وهو يقرأ عن فهم معانى السطور فلم يذكر غير القليل مما قرأه

والآن فقد تنبه الى أمر جديد من قوله أن له امرأة وبنتاً فنظر اليه كما ينظر قاضى التحقيق الى المجرم وقال له

اوضح ما تريد

قال ليكن ما أردته ياسيدى البارون فاعلم أن لدي سراً خطيراً أريد بيعه

— سراً

— نعم السر

— وهذا السر يتعلق بى

— نعم

— ما هو

— انى أبدأ بكشف شىء منه مجانا وستعلم أنه سر خطير

— قل

— أنه يوجد عندك ياسيدي البارون رجل لص سفاك

فارتعش ماريوس وقال

عندى أنا

فسح الرجل قبعته بكم سترته وقال

نعم لص سفاك وانتبه يا سيدى البارون الى ما أقوله فانى لا أذكر عن هذا اللص أموراً قديمة يمحوها مرور الزمن لدى الشرع ولدى الناس بل أستند الى جنايات حديثة العهد تجهل الحكومة أمرها الى الآن

ويظهر يا سيدى البارون أنك خدعت بهذا الرجل فنال ثقتك ودخل الى منزلك وهو ينتحل اسما يخفى به اسمه القديم

وانى سأقول لك اسمه القديم ياسيدى البارون مجانا أيضاً لتعلم فائدة سري

— ما اسمه

— جان فالجان

—انى أعرفه

— وسأقول لك أيضاً من هو

— قل

— انه من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة

— أعرف ذلك

— أنك عرفته حين تشرفت باخبارك عنه

— بل عرفته من قبل

فلما سمع الرجل قول ماريوس ورأى أنه تلقى هذا النبأ بما لم يكن يتوقعه من البرود هاجت راكين الغضب فى صدره فنظر اليه من تحت نظارته نظرة منكرة

غير أن هذه النظرة لم تخف على ماريوس لانها اتقدت كالشرارة أما الرجل فانه كظم غيظه وعاد الى الابتسام وقال

لا أجسر على تكذيب سيدي البارون وعلى كل حال فقد رأيت انى واقف على حقيقة هذا الرجل

أما الذي أريد ان اخبرك به الآن فلا يعرفه احد سواى وهو يتعلق بثروة سيدتي البارونة

ولكنه سر عجيب اريد بيعه وقد اتيت لابيعك إياه بثمن بخس فانى لا أسألك غير عشرين ألف فرنك

— انى أعرف هذا السر كما أعرف سواه

فرأى الرجل أنه لم يبق بد من انقاص الثمن فقال

لنتفق على أن يكون ثمنه عشرة آلاف فرنك فابوح به

— وانا أعيد عليك ما قلته لك وهو انى أعرف هذا السر فلا حاجة الى ان تطلعني عليه

فاتقدت عيناه بارق من الغضب وقال

ولكنى أريد أن أتعشى وقد قلت لك أنه سر عجيب ياسيدى البارون فاعطى عشرين فرنكا على الاقل

فنظر اليه ماريوس محدقاً وقال

انى اعرف سرك الغريب واعرف اسم جان فالجان كما انى اعرف ايضاً اسمك

— اسمى انا

— نعم

— ولكن اسمى لا تصعب معرفته يا سيدى البارون فقد تشرفت بالكتابة اليك وكتبت فى ذيل الكتاب تنار

— ديه

— ماذا

— تنارديه

— من هو تنارديه هذا

— أن الخنزير عند الخطر يرتعد وينتفش والخنفساء تتظاهر بالموت والجيش يقف بشكل مربع أما هذا الرجل فانه جعل يضحك فمضى ماريوس فى حديثه فقال

وانك تدعى ايضا جوندرت العامل وفابانتو الممثل وجنفلو الشاعر ودون الفارين لاسبانى بل انك تدعى ايضاً الامرأة البزار

— أمرأة ماذا

— وأنك كنت صاحب فندق فى مونتفرميل

— كلا كلا

— وأنا أقول لك انك تدعى تنارديه

إني أنكر هذا أتم الانكار

— وانك تارة تكون من اللصوص وتارة من المتسولين كما تفعل الآن

ثم أخرج ورقة مالية من جيبه ورماه بها

فالتقطها ونظر اليها فقال

خمسمائة فرنك...أشكرك يا سيدى البارون

ثم انحنى أمامه شاكراً وقال لقد كشف الغطاء فلم تبق حاجة الى التنكر

وعند ذلك قلع ما كان متنكراً به من الشعر المستعار وأنبوبتى الأنف والنظارة الزرقاء الى غير ذلك أى انه نزع وجهه عن وجهه كما ينزعون القبعة عن الرأس فانتصبت قامته وذهبت الحدبة وأمحى التجعد وصغر الانف واتقدت النظرات فنظر الى ماريوس وقال له

ان سيدى البارون معصوم عن الخطأ فأنا هو تناردييه

وقد كان هو بعينه جاء ليدهش البارون بسره فكان هو المندهش عما سمعه من البارون

وقد ربح بهذا الانقلاب خمسمائة فرنك ولكنه كان من أهل الطمع كما عرفه القراء فلم يقف عند هذا الحد

وكانت هذه هى المرة الاولى التى رأى فيها البارون فعرفه بالرغم عن تنكره

وهو لم يعرف اسمه فقط بل عرف حاضره وماضيه ثم أنه لم يقتصر على ذلك بل انه عرف حقيقة أمر جان فالجان بالتفصيل فمن عسى أن يكون هذا الفتى الذى لم يكد تنبت لحيته وهو يعرف

دخائل اللصوص فيحدثهم محادثة القضاة ويعطيهم من ماله عطاء البلهاء

ولقد كان جاوره مدة من الزمن كما يذكر القراء ولكنه لم يره مرة

وكل ما عرفه من أمره أنه سمع مرة احدى بنتيه تتكلم عن فتى فقير يدعى ماريوس يقيم معهم فى منزل واحد وأنه دفع عنهم اجرة الغرفة فكتب اليه ذلك الكتاب الذى يذكره القراء فكيف يخطر له أن ماريوس الفقير الذى كان يقيم فى غرفة تشبه الكوخ أصبح يدعى الآن البارون بونمرسي ويحسن حتى الى اللصوص دون حساب

ويذكر القراء أيضاً أن تناردييه حين أنقذ والد ماريوس فى معركة واترلو لم يسمع منه حين ذكر اسم عائلته غير المقطعين الاخيرين وهما « مرسى » فحسب أنه يريد شكره لان هذه اللفظة وحدها يراد بها معنى الشكر

وفوق ذلك فانه كان قد عرف من ابنته أزلما حين أرسلها يوم زفاف ماريوس لتفقد أثر الموكب ومن مباحثه الخاصة كثيراً من الامور وعلى الاخص فانه عرف ذلك الرجل الذى لقيه تلك الليلة فى المجارى فاخرجه منها وأخذ ثلاثين فرنكا ولما عرفه عرف اسمه ثم انه عرف ان البارونه بونمرسى انما هى غوسيت ولكنه أراد كتمان أمرها

وهو لم يكن يعرف حقيقة أمرها سوى انها ابنة فانتين وحكاية فانتين نفسها لم يكن يثق بها ولكن أية فائدة من كشف سر غوسيت فانه لايأتيه بفائدة بل قد ينال منه الضرر فانه لو جاء الى البارون وقال له

ان امرأتك لقيطة

فلو سأله البارون برهانا فمن أين يأتيه بالبرهان لا سيما وان جان فالجان لم يزوجه اياها الا وقد انتحل لها نسبا مثبتا باوراق رسمية فلا يكون قد استفاد من ذلك سوى انه أوغر صدر البارون حقدا عليه وهو فى حاجة الى رضاه

وكان يعتقد ان امره لم ينته بعد مع ماريوس فان المحادثة بينهما لاتزال فى بدئها

نعم انه غلب فى المعركة الاولى ولكن ليس عليه الا أن يتراجع ويغير مركزه ويعد خطة أخرى فاذا نجح بلغ ما أراد واذا خاب فقد قبض ثمن خيبته خمسمائة فرنك

وفوق ذلك فانه لايزال لديه مايقوله مما يجهله ذلك البارون مهما بلغ من تفننه بالاستعلام وقد قال له نعم انا هو تناردييه فوقف ينتظر ما يكون

أما ماريوس فانه لبث مطرقا يتفكر وقد عثر أخيراً بهذا الرجل الذى طالما بحث عنه وهو الآن واقف أمامه بحيث بات يستطيع أن يعمل بوصية أبيه ويستريح من عناء هذه الوصية

فقد كان يعز عليه أن يكون لهذا اللص دين على أبيه الكولونيل ولذلك كان مسروراً بهذا الاتفاق

وبجانب هذا الواجب كان عليه واجب آخر يجب أن يقضيه اذا استطاع وهو معرفة مورد الثروة التي نالتها زوجته وقد رأى الفرصة لاحت له فان تنارديه قد يكون عارفا بسر هذه الثروة فأراد أن يبدأ من هنا فالتفت الى تنارديه بعد اطراقه وقال له

لقد ذكرت لك اسمك بل أسماءك ياتنارديه والآن فهل تريد أن أقول لك ذلك السر الذي جئت الىّ لتبوح لى به فانى أنا أيضاً أستعلم عن الاسرار كما تبحث عنها وسترى أنى أعلم منها فوق ما تعلم

ان جاني فالجاني لص سفاك كما قلت أما كونه لصاً فلانه سرق رجلا من أصحاب المعامل يدعى مدلين فقضى عليه بالخراب

وأما كونه سفاكا فلانه قتل جافرت مفتش البوليس

فأجابه قائلا

إنى لم أفهم شيئاً مما تقوله ياسيدى البارون

قال سأفهمك فاصغ الي

كان يوجد سنة ١٨٢٢ فى مقاطعة بادى كاليه رجل كان أساء بعض اساءات دعت الى مداخلة البوليس ثم انتظم أمره وصلح حاله وكان يدعى الاب مدلين

وقد أنشأ معملا لصنع الخرز والكهرباء فنال به كسبا جزيلا

كان ينفق معظمه على الفقراء وانشاء المستشفيات والمدارس وعيادة المرضى وامهار البنات ومساعدة الارامل واغاثة الايتام الى غير ذلك من أعمال البر التي خلدت اسمه فى تلك المقاطعة

وقد أنعمت عليه الحكومة بوسام مكافأة له عن أعماله الخيرية فرفضه كي يكون احسانه خالصا لوجه الله فعينته محافظا

وكان أحد المجرمين يعرف سر جريمة ارتكبها هذا الرجل الصالح فى أيام شره فوشى به فقبضوا عليه واغتنم المجرم فرصة سجنه فجاء الى مصرف لافيت فى باريس (وهذا ماعرفته من أحد المصرف) بتوقيع مزور وقبض ما كان أودعه الاب مدلين في ذلك المصرف وهو ما يزيد على نصف مليون من الفرنكات

اما هذا المجرم الذى سرق الاب مدلين فهو جان فالجان

أما كونه سفاكا فلا حاجة الى أن تطلعى على شيء من أمره فقد رأيت جان فالجان قتل المفتش جافرت برصاصة غدارة والمفتش مكتوف اليدين وكنت حاضراً ساعة هذا القتل

فنظر تنارديه عند ذلك الى ماريوس نظرة الفائز المنتصر الذى سينال بلحظة ما خسره بساعة وقال له

انك مخطيء خطأ جدا يا سيدى البارون

قال أتجادلنى فى هذا أيضاً وهو لا يقبل الجدال

قال بل هي أوهام مثلها لك الخيال يا سيدى البارون وانما شرفتنى به من الثقة يدعونى الى أن أقول لك الحقيقة

وانى لا أحب تهمة الابرياء فاعلم يا سيدى البارون أن جان فالجان لم يسرق الاب مدلين ولم يقتل المفتش جافرت

— كيف ذلك

— ان لدى برهانين لا يمكن رفضهما

— ما هما

— أولهما أنه لم يسرق الاب مدلين لان جان فالجان انما هو نفس الاب مدلين

— ماذا تقول

— أقول الحقيقة يا سيدى البارون

— وثانيهما

— وثانيهما أن جان فالجان لم يقتل المفتش جافرت بل ان الذى قتل جافرت انما هو جافرت نفسه

— ماذا تعنى

— أعني أن جافرت انتحر ولم يقتل

— برهن لي عن ذلك .. هات برهانك إن كنت من الصادقين

— إن المفتش جافرت كان منتحراً ووجد غريقاً تحت قارب عند الجسر الجديد

— هات البرهان

فمد يده الي جيبه وأخرج غلافاً ضخماً فيه كثير من الاوراق مختلفة الحجم فقال

انى قد أردت لمصلحتك ياسيدى البارون أن أقف على دقائق أسرار جان فالجان

وقد قلت لك أن جان فالجان والاب مدلين واحد وأن جافرت لم يقتله غير نفس جافرت

ومن كان مثلى لا يرسل الكلام على عواهنه بل ان لى براهين تدل على صدق ما أقول وهى براهين لا ترفض كما قلت لك لأنها مطبوعة

وقد قال هذا وأخرج من ذلك الغلاف نسختين من جريدتين اصفر ورقها لتقادم العهد بهما واحدى النسختين ممزقة عند طياتها مما يدل على انها أقدم من تلك

ثم دفعهما الى ماريوس وهو يقول

هذا هو برهانى

وقد عرف القراء هاتين الجريدتين فقد كانت احداها تدعى الراية البيضاء وهى بتاريخ ٢٥ تموز سنة ١٨٢٣ تبين منها ان الاب مدلين انما هو نفس جان فالجان كما ثبت فى المحكمة

والجريدة الثانية تدعى المونيتور بتاريخ ١٥ حزيران سنة ١٨٣٢ تبين منها ان المفتش جافرت مات منتحراً وانه كتب الى مدير البوليس كتاباً قبل انتحاره وانه قبل انتحاره أسره الثائرون فى المتاريس فى شارع شوفررى وانه كان مديناً بنجاته لاحد الثائرين الذى عهدوا اليه ان يقتله فخرج به الى وراء جدار فأطلق سراحه

وأطلق غدارته فى الهواء ايهاماً لرفاقه انه قتله

فلما قرأ ماريوس الجريدتين أيقن ان ادارتهما لم تطبعا هذين العددين خصيصاً لتثبيت أقوال تناردييه وان مانشرته جريدة المونيتور كان بلاغاً رسمياً أرسلته اليها ادارة البوليس بحيث لم يبق أدنى مجال للشك

وقد أيقن أيضاً ان ماأخبره به عامل المصرف لم يكن اكيدا وانه كان منخدعاً كما خدع سواه

فلما قرأ كل هذا تمثل له ان جان فالجان قد خرج من بين الغيوم السوداء التى كانت تحجبه عن الانظار ولم يتمالك عن أن يصيح صيحة فرح فقال

اذن ان هذا الشقى المنكود من خير الرجال وأكرمهم قلباً وان هذه الثروة له دون نزاع كسبها بجده وانه حين كان يدعى الاب مدلين كان يلقب بابي اليتيم وملجأ المسكين...وانه هو الذى أنقذ جافرت عدوه الالد . اذن فهو بطل بل هو من رجال الله الصالحين

قال بل هو لص سفاك فتمهل ياسيدى البارون ولا تتسرع بالحكم على هذا الرجل

قال عادا تتهمه أيضاً

قال انه لم يسرق مدين ولم يقتل جافرت ولكنه لص سفاك كما قلت لك

— ألعلك تعنى سرقته الرغيف منذ أربعين عاماً ألم يكف ما فعله من الحسنات كفارة عن هذا الذنب العظيم

— لقد قلت لك ياسيدى البارون انه سارق قاتل وانه سرق وقتل من عهد قريب وان هذه السرقة وهذا القتل لا يعلمها أحد سواى

وانى إذا اطلعتك عليهما عرفت مهارة الرجل بامهاره امرأتك لسيدتى البارونة

وانما ادعوه ماهرا بهذه الهبة لانه يستطيع بسببها أن يقيم فى منزل شريف فيستتر ويخفي جريمته ويسترسل بعد ذلك الى الجرائم كما يشاء دون أن يشك به أحد

— اني أستطيع الاعتراض على ماتقوله ولكنى أمهلك حتى تتم حديثك فتكلم

— انى سأخبرك بكل ما أعلمه تفصيلا يا سيدى البارون وادع أمر مكافأتى الى كرمك فان هذا السر يسوى كثيراً من المال

ولقد تقول لى لماذا لم تذهب الى جان فالجان فتبيعه هذا السر فأقول ان الجواب على ذلك بسيط وهو

ان جان فالجان قد تخلص من كل ماله ووهبك إياه فاذا ذهبت اليه قلب جيوبه ونفض يديه وقال لى انى لا أملك درهما فاصنع ما أنت صانع

ولما كنت محتاجاً الى المال لاسافر الى بلاد الذهب فقد آثرتك

عليه لانه لا يملك شيئاً كما قلت لك

ولقد أنهكنى التعب ياسيدى البارون فاسمح لى أن أجلس على الكرسى فأستريح

فأذن له بالجلوس فأخذ الجريدتين وردهما الى الغلاف وقال لقد كلفتنى جريدة الراية البيضاء عناءاً كثيراً ومالا أكثر لبدورة وجود هذا المعدن

ثم جلس جلوس الواثق المطمئن من فوزه فى ماسيقول واندفع فى حديثه فقال

اعلم يا سيدى البارون أنه فى اليوم السادس من شهر حزيران سنة ١٨٣٢ أى منذ عام أى يوم الثورة كان رجل عند باب المجارى الكبيرة التي تقذف أقذارها فى السين بين جسر الانفاليد وبين جسر يانا

فأدنى ماريوس كرسيه من تناردييه وانقبه تناردييه الى ذلك وجعل يتكلم بطىء وبلهجة الواثق من تأثيره على محدثه فقال

ان هذا الرجل يا سيدى البارون كان مضطراً الى الاختباء لاسباب غير سياسية لا متسع لذكرها فى هذا المقام فكان يختبىء فى تلك الجهات

وقد كان ذلك فى الساعة الثامنة من المساء فبينما هو هناك سمع وقع خطوات فى المتاريس

وقد وقف يصغى الى أن اقترب الصوت منه فنظر فرأى رجلا يسير فى تلك المجارى وعلى كتفه شىء ضخم

وبعد هنيهة تبين له أن هذا الرجل من المجرمين بدليل حدبة ظهره وعوج رجله وبدليل هـذا الشيء الذي كان يحمله فقد كان يحمل جثة قتيل

وهذا ما يثبت عليه جريمة القتل أما جريمة السرقة فلا حاجة الى ثباتها فان هذا المجرم لم يقتل هذا الرجل إلا ليسرقه

وقد قاده بحيلة الى المجارى فقتله وسرقه ثم حمله وأراد الخروج به كى يرمى جثته في النهر اخفاء لجريمته

وكان بوسعه أن يترك تلك الجثة فى المجارى ولكنه كان يخاف ظهور أمرها فآثر أن يربط بها حجراً ضخما ويلقيها الى النهر فتأكلها الاسماك

فاقترب ماريوس أيضاً منه وتنفس تنفساً طويلا ثم عاد الى الحديث فقال

وعندما وصل هذا الجاني الى الباب وجد أن لا حيلة له بالخروج منه لارتفاعه

وقد رآه ذلك الرجل المختبىء فاتفق وإياه على إخراجه وأخرجه ورأى الرجل المقتول على ظهره فغافل حامله وقطع قطعة من ثوبه على رجاء أن تفيده يوماً فى معرفة القتيل وإثبات جريمة القتل ثم تركه وانصرف إذ لم يكن يطيق أن يرى جثة ذلك المنكود تلقى فى النهر

أما هذا المجرم القاتل السارق يا سيدى البارون فقد كان جان

فالجان وأما ذلك الذى أخرجه من المجارى وقطع قطعة من ثوب القتيل فهو خادمك المطيع الذى يكلمك

وقد قال هذا وأخرج من جيبه قطعة صغيرة من الجوخ الاسود وأراها لماريوس

أما ماريوس فانه وقف وقد اصفر وجهه وضاق تنفسه وجعل يحدق بتلك القطعة من القماش ثم تراجع الى الجدار دون أن يفوه بكلمة ودون أن ينقطع عن النظر الى قطعة القماش فمد يده من وراء ظهره الى الجدار وبحث عن مفتاح خزانة فى نفس ذلك الجدار كان فيها ففتحها ومد يده الى داخلها وهو لا يزال ينظر الى تلك الخرقة التى كانت بيد تنارديه

أما تنارديه فانه لبث يتكلم فقال

وانى واثق أتم الثقة يا سيدي البارون أن هذا الفتى القتيل كان غريباً وأن جان فالجان اغتاله بمكيدة وسلب منه مبلغاً عظيما من المال

فقال له ماريوس

ان هذا الفتى كان أنا وهذا هو الثوب الذى كنت ألبسه ثم ألقى على المنضدة ثوباً أخرجه من الخزانة ولا تزال آثار الدماء عليه

وعند ذلك انتزع قطعة القماش من يد تنارديه ووضعها فى المكان المقطوع من الثوب فسدت مكان القطع وتلاحم الثوب

فصعق تنارديه بهذا البرهان وشعر أنه سقط الى الحضيض بعد

أن كان يتوهم أنه بلغ الى أوج الانتصار

أما ماريوس فانه مد يده الى جيبه ودنا منه ورفع يده وهى ملأى بالاوراق المالية حتى كادت تبلغ الى وجهه كأنه أراد أن يصفعه تلك الاوراق ثم قال له

إنك خائن نمام واش كذاب أتيت لتشى بهذا الرجل فكنت السبب فى تبرئته وقد أردت اذلاله وتحقيره ورفعته ومجدته وما هو إلا أنت السارق والسفاك فقد رأيتك حين كنت تدعى جوندريت وعرفت كثيراً من أمورك التى اذا قلت كلمة منها قضيت عليك بالسجن مدى الحياة إذا أردت

ولكنى لا أريد أن أفعل فخذ هذه الالف فرنك

ثم رمى اليه أيضاً ألف فرنك وقال

ياجوندريت وياتنارديه انى اريد أن أؤدبك بهذا الاحسان أيها الشقى فخذ أيضاً هذه الالف فرنك واخرج من هنا فاحتك غيرواترلو

فأخذ تنارديه هذه الاوراق وهو يقول واترلو

قال نعم أيها الشقى فقد أنقذت فى تلك المعركة حياة كولونيل

فرفع تنارديه رأسه وقال بل جنرال

بل كولونيل وأنا أدرى منك حتى بامورك وانك ما أتيت الى هنا إلا للجرائم فسافر واحذر أن تعود إلى هذه البلاد وعش سعيداً بما أعطيتك من المال فهذا كل ما أتمناه لك ..

خذ أيضاً أيها الوحش هذه الثلاثة آلاف فرنك وسافر منذ الغد إلى أميركا مع ابنتك لان امرأتك قد ماتت في السجن أيها المنافق الكذوب واعلم إني سأراقب سفرك وهناك أنقدك أيضاً عشرين ألف فرنك كي تعيش فى غير هذه البلاد

فحياه بقبعته حتي كاد يكنس بها الارض وخرج لايلوى على شيء وهو يكاد يطير باجنحة الفرح

ولنتم الآن حكاية هـذا الرجل فانه بعد يومين من هـذه الحادثة التي بسطناها سافر بمساعدة ماريوس إلى البلاد الامريكية متنكراً باسم غير اسمه تصحبه ابنته ير الما

وقد اعطاه ماريوس ماوعده به من المال فسافر الي نيويورك وهناك لم يستطع التغلب على الشر إذ كان متطوراً عليـه فجعل يتاجر بالرقيق بفضل ما أعطاه ماريوس

أما ماريوس فانه لم يكد يخرج تناردييهمن غرفته حتى أسرع راكضاً إلى غرفة امرأته وناداها من الخارج قائلا

غوسيت غوسيت اسرعي وهلم بنا .. ونادى الخادمةفأمرها أن تأتيهما بمركبة

ثم عاد إلى مناداة امرأته وهو يقول

غوسيت غوسيت .. رباه انه هو الذى انقذنى من الموت . اسرعى اسرعي ضعي وشاحك على كتفيك وهلمي بنا

وقد حسبته غوسيت مجنونا لما رأته من الحاحـه ولـكنها

أسرعت إلى الامتثال فكان يسير فى غرفتها بخطوات غير موزونة فيعانق غوسيت ويقول لها

أواه ياغوسيت إني شقى

وقد كاد يطيش صوابه إذ كان يتمثل له جان فالجان فى هذه الساعة كأنه من ملائكة الله وان هذا المجرم قد استحال الى شهيد وانه عظم فى عينيه حتى بات أرقى من البشر وتنزه عن البشرية

وبعد هنيهة أقبلت المركبة فخرج ماريوس اليها تصحبه غوسيت وأمر السائق أن يسير الى شارع الرجل المسلح نمرة ٧

وقد ذهلت غوسيت فى البدء ثم اتقدت عيناها ببوارق السرور حين سمعت هذا العنوان وقالت

إني لم أجسر من قبل على أن أسألك شيئا لما رأيته من ظواهر اضطرابك أنحن ذاهبان الآن لزيارة المسيو جان

قال نعم لزيارة أبيك ياغوسيت .. آه ياغوسيت لقد عرفت الآن كل شيء فلقد قال لي أن الرسالة التى أرسلتها اليك قبلا مع كافروش لم تصلك فهو الذى أخذها منه

انه ذهب إلى المتاريس لينقذنى فأنقذنى وأنقذ كثيرين وأنقذ جافرت

نعم انه اخرجني من تلك الهوة كي يعطيك إياى وهو الذى حملنى على ظهره فى تلك المجارى فويح لنفسى كم جحدت نعمته وأنكرت جميله وأنا من الجاهلين

غوسيت انه بعد ان كان ملاكك الحارس فى كل مامر بك من عهد الحداثة أصبح ملاكى

إني كنت مغميآ على فسارنى يحملنى على ظهره واجتاز بى تلك المجارى الضيقة فى الظلام وعرض نفسه مراراً للموت فى سبيل انقاذى وأنا لا أعلم شيئاً من أمره ولا من أمرى إذ لم أتوقع أن يكون بين الناس من يبلغ بالمروءة إلى هـذا الحد

اننا سنعود به الينا ياغوسيت سواء رضى أم لم يرض ولا يفترق عنا بعد الآن

ولـكن بشرط أن نجده فى منزله . نعم إنى سأ كرس حياتي في سبيل خدمته وتكريمه . أترين ياغوسيت .. ان كافروش لم يعط الرسالة التى كتبتها اليك للبواب بل هو الذى أخذها منه وقد وضح الامر أفهمت الان

فلم تفهم غوسيت كلمة ولـكنها قالت له

لقد أصبت

واستمرت المركبة فى سيرها

***

يذكر القراء ان جان فالجان سمع طرق الباب وهو فى غرفته فأجاب الطارق بصوت خافت فقال

أدخل

ففتح الباب وظهرت منه غوسيت وماريوس

أما ماريوس فقد لبث واقفا على العتبة وهو يسند رأسه الى الباب

وأما جان فانه لم يكد يرى غوسيت حتى وقف كانما حركه لولب فبسط ذراعيه وهو يرتجف كورق الخريف وجحظت مقلتاه فكادتا تخرجان من وجهه وصاح قائلا

غوسيت

فألقت غوسيت نفسها بين ذراعيه وهي تبكي وتقول

أبي ... أبي

فضمها جان إلى صدره وقال

أهذا أنت .. أتأتين إلي أصفحت عني

وقد أطبق ماريوس عينيه كي يمنع تساقط الدموع ومشى اليه وهو يقول بصوت مختنق

أبي .

فأجابه جان قائلا

وأنت أيضاً ... أصفحت عني اذن

فلم يجد ماريوس كلمة يقولها ولم يستطع جان أن يقول غير كلمة واحدة وهي

أشكرك

أما غوسيت فانها خلعت وشاحها وجلست على ركبة جان فأزاحت الشعر الابيض المسترسل على جبينه وقبلته

ثم جعلت تلاطفه وتقبله كانها تريد أن تفي دين زوجها وهي لا تعلم شيئاً بما كان بينهما

فكان جان يبتسم إذ خيل له أن أبواب السماء قد انفتحت وظهر له منها هذا الملاك فقال

خلق الانسان كنوداً فقد كنت أحسب اني لن أرها... تأمل يا موسيو بونتمرسي انى قبيل دخولكما كنت أناجي نفسي فأقول

قضى الامر وقدر لي أن لا أراها

انظر الى ثوبها الصغير على فراشي فقد كنت أراها به لاعتقادي اني لن أرى غوسيت

وقد كنت أقول هذا القول وأقنط هذا القنوط بينما كنتما تصعدان السلم

نعم ان الانسان كنود يقنط من رحمة الله . ولكن الله رؤوف لا يتخلى عن عباده وقد رأى أن هذا الرجل المنكود يحتاج الى ملاك يعزيه في ساعته الاخيرة فارسل اليه هذا الملاك الممثل بشكل غوسيت

وقد توقف هنيهة لضعفه ثم عاد الى الحديث فقال

نعم اني كنت في اشد الاحتياج على أن أرى غوسيت من حين الى حين

غير اني كنت أخاف التثقيل بزياراتي وقلت في نفسي أنها غير محتاجة الي فلابق منزوياً في مكاني

ولكن الله رحيم فقد أذن لي بلقائها قبل الموت . . أتعلمين

يا غوسيت أن زوجك غاية فى الجمال . . أنك تلبسين شارة مطرزة . . ما أجمل هذه الشارة · فان زوجك قد اختارها لك أليس كذلك

ولكنك محتاجة أيضاً إلى الكشمير . . أرجوك يا سيدى البارون أن تأذن لى أن اكلمها دون كلفة حسب عادتي فان ذلك لا يطول

فاجابته غوسيت قائلة

ما هذه الرداءة يا أبى اتتركنا كل هذا العهد الطويل فالى أين سافرت ولماذا أطلت غيابك أنك كنت تسافر من قبل فلا يطول سفرك اكثر من ثلاثة أيام

وكنت أرسل الخادمة تسأل عنك فيجيبونها كل مرة أنك مسافر فتى رجعت ولماذا لم تخبرني بعودتك . . أتعلم أنك تغيرت كثيراً أنك لم تكن مسافراً بل كنت مريضاً دون شك ونحن لا نعلم . تعال يا ماريوس وانظر فان يده باردة

فقال جان مخاطباً ماريوس

إذن لقد غفرت لى كما تدل هذه الزيارة

فتفجر قلب ماريوس لما سمعه من تكرار كلمة الغفران والتفت الى امرأته فقال

أتسمعين يا غوسيت . . أنه يريد أن أغفر له . . أتعلمين ماذا

اصنع أنه أنقذني من الموت بل فعل ما هو أعظم من ذلك بكثير اذ أعطاني إياك

وبعد ان انقذ حياتي وبعد ان زوجني بك أتعلمين ماذا اصنع بنفسه ؟ أنه ضحى حياته

ثم أنه بعد ذلك يلتمس الغفران مني وأنا هو الكنود الجحود المجرم الذي تجرد قلبه من الاشفاق

وهو فوق ذلك يشكرني وانا لو قضيت حياتي عند قدميه لما فعلت غير القليل مما يجب علي

أنه عرض نفسه للموت في حرب المتاريس وعرض نفسه للموت في المجاري وأنقذني من موت كان محتما مقضياً وكل ذلك من أجلي ومن أجلك يا غوسيت

غوسيت أن هذا الرجل فوق البشر وما هو الا من ملائكة الله نزل الى الارض متنكراً بزي انسان لرحمة بني الانسان

فقال له جان كني كني لماذا تقول هذه الاقوال

قال وأنت يا أبي كتمت افعالك المجيدة ألا ترى أنك كنت مخطئاً في ما فعلت . . أتنقذ الناس من الموت وتطوق أعناقهم بجميل لا ينسونه مدى الحياة ثم تكتم ذلك حتى عنهم بل تدعهم يسيئون الظن دون ان تبالي

قال لقد قلت الحقيقة

قال كلا بل قلت بعضها وهي لا تكون حقيقة إلا اذا قيلت بجملتها . أنك كنت تدعى الاب مدلين فلماذا كتمت هذا الاسم وانك انقذت جافرت فلماذا لا تظهر ذلك وانى مدين لك بالحياة فلماذا كتمت ذلك عنى

قال ذلك لانى كنت افتكر وقد عرض لى نفس الرأى الذي عرض لك فوجدتك مصيباً ورأيت انه لم يبق بد من الرحيل . على انى لو أخبرتك بحقيقة أمرى واوقفتك على سر المجاري لاكرهتني على البقاء عندكم ولذلك رأيت السكوت اولى أو فسدت خطة الرحيل

قال أى رحيل هذا أتحسب انك ستبقى هنا كلا فانك ذاهب معنا لا محالة . . رباه انى حين يخطر لى اني لم اقف على الحقيقة الا بالصدفة والاتفاق يضيع صوابي . . نعم انك ستذهب معنا وتقيم بيننا وتكون أباً لى ولامرأتى . ولا تقيم فى هذا المنزل ساعة فلا تحسب أنك غداً تكون فيه

— نعم إنى غداً لا أكون هنا ولكنى لا أكون عندكم

— ماذا تعنى أتحسب اننا ندعك تسافر أو تفترق لحظة كلا فاننا لا نعود إلا بك

وقالت غوسيت

اذا أتينا بمركبة وهى تنتظرنا عند الباب فاذا لم تصحبنا راضياً اضطررنا الى أن نأخذك بالقوة

أن غرفتك لا تزال على حالها عندنا ولو تعلم كيف صارت الحديقة فانها باتت من فراديس الجنان وانك ستأكل من الكرز الذى غرسته بيدى ولا تعود تدعوني بارونة ولا أدعوك موسيو جان فأنا الآن فى عهد الجمهورية وقد امتنعت الكلفة بين الناس أليس كذلك يا ماريوس

آه لو تعلم يا أبى فقد أصبت بحزن عظيم إذ كان يوجد عصفور بنى عشة فى ثقب جدار فجاءت هرة هائلة فأكلته . . . مسكين هـذا العصفور أنه كان يطل من عشه وينظر إلىّ فبكيت ولو تمكنت من هذه الهرة لقتلتها

أما الآن فلا يوجد من يبكى عندنا بل أن الجميع يضحكون وكلهم سعداء وستأتى معنا فيكون لك قسم من الحديقة تزرعه كما تشاء وسترى إذا كانت اغراسك تنمو أكثر من اغراسى

وبعد فانى سأصنع لك كل ما تريده وستمتثل لنا وتأتى معنا

وكان جان يصغي اليها ولا يسمع كلامها بل يسمع موسيقى صوتها وقد جالت دمعة فى عينه فقال

هذا خير برهان على رحمة الله وليس بعد هذا برهان

فقاطعته قائلة أبى

ومضى جان فى حديثه فقال

لا ريب إن أفضل حياة حياة نقضيها معاً فنرى الطيور تغرد

على الغصون وهي مختبئة بين الاوراق واتنزه مع غوسيت واعيش مع أسرة تحبني وأحبها فأراها فى كل صباح ويودع كل منا قطعة من الارض فتطعمى غوسيت من كرزها وتجنى الورد الذى أزرعه لها

نعم أن كل ذلك جميل ولكن ..

وقد توقف لحظة ثم قال

وا أسفاه

ولم تسقط الدمعة التي أغرورقت فى عينه بل عادت الى موضعها واستعاض عنها بابتسامه

فاخذت غوسيت يده بين يديها وقالت

رباه أن يدك لا تزال باردة بل أن بردها قد اشتد فهل أنت مريض

قال كلا فانى على خير حال ولكن ...

— ولكن ماذا

ولكنى سأموت الآن

فارتعدت غوسيت وصاح ماريوس قائلا

ماذا تقول أتموت

— نعم ولكن ذلك لا شيء

وقد تنفس وابتسم وقال

غوسيت انك كنت تحدثينني فاتمي حديثك .. كنت تقولين أن عصفورك مات .. تكلمي ودعيني أسمع صوتك

فنظر ماريوس نظرة رعب اليه

وصاحت غوسيت مندعرة فقالت

أبي .. أبي أنك ستعيش .. إني أريد أن تعيش أسمعت

فنظر اليها كما ينظر العابد الى الله وقال

دافعي عني واحمني من الموت فمن يعلم إني قد أطيع وأمتثل لما تريدين . . إني كنت عني وشك الموت فلما أتيتما توقف الموت عن إختطاف روحي كأنه خافكما فشعرت ببرد الحياة

فقال له ماريوس

بل إنك الآن في الحياة وأنت شديد القوى أتحسب أن الموت يكون على هذا الشكل

والسبب في ضعفك أنك كنت حزين النفس ولكن أحزانك زالت الآن وأنا الذي أسألك الغفران جاثيا على ركبتي

أنك ستعيش بيننا ناعم البال وستعيش طويلا صدقني لأننا الآن لا يشغلنا في هذا الوجود غير هنائك ورضاك

فمسحت غوسيت دمع عينيها وقالت

أسمعت أني ماريوس يقول أنك لا تموت

فابتسم جان فالجان وقال .

هب يا موسيو بونتمرسي أني امتثلت لك ودعوت معك أتحسب أن ذلك يجعلني غير ما أنا

— كلا فان الله خط ما أراده في لوح مقدوري ولا مرد لقضاء الله

أن موتي لابد منه وهو خير حل لمشكلتى فان الله يعلم فوق مانعلم وهو يتولانا كما يشاء فلا يكون إلا ما يجب أن يكون

عيشاً ياولدى بنعمة الله وكونا سعيدين وترا كضا خيل الشباب واجنيا ثمر الحياة يانعاً داني القطوف

أما أنا فأية فائدة بقيت لى من الحياة فلأمت ولا شك أن موتي لم يكن إلا لخير لانه بأمر الله

واعلما يا ولدىّ أنه قضى الامر الآن فقد اشعرت أن معين الحياة نصب وقد أصبت منذ ساعة بأغماء طويل وشربت كل ما في هذا الاناء من الماء

ما أطيب قلب زوجك يا غوسيت فستكونين معه أهنأ مما كنت معى

وعند ذلك طرق الباب ودخل الطبيب فاستقبله جان فالجان قائلا

السلام عليك يا سيدي الطبيب واستودعك الله . انظر الى ولدىّ فانهما عندى

فدنا ماريوس من الطبيب وسأله بنظرة عن حاله فاجابه الطبيب بمثل نظرته جواباً دل على النهاية

وقد تجهم وجه ماريوس ورأى جان ما كان من تجهمه فقال لا تحزنوا ولا تقبضوا نفوسكم فانكم تسيئون بذلك الى انفسكم وإلى الله

وساد السكوت والتفت جان فالجان الى غوسيت وجعل يتممن

فى وجهها كأنه يريد أن يطبع ذلك الوجه على روحه الذاهبة الى الابدية

ودنا الطبيب منه فجس نبضه

ورأى جان إصفرار غوسيت وماريوس فقال لهما

أرى انكما أولى بجس النبض منى

أما الطبيب فانه قال لماريوس بصوت يشبه الهمس

لقد جئتما بعد فوت الاوان

وقد حمل جان فالجان يجيل نظره بين الطبيب وبين ماريوس ومعهوه يقول بصوت منخفض كأنه يناجي نفسه

ليس الموت يصعب إنما الصعب على المرء أن لا يعيش

ثم استوى واقفاً وقد عادت اليه قوته فجاءة وذلك يعد احيانا من علائم النزع

ومشى فى الغرفة بقدم ثابتة الى الجدار بعد أن دفع عنه الطبيب وماريوس اللذين كانا يحاولان أن يعيناه

وهناك انتزع صليباً من النحاس عليه رسم المسيح المصلوب فوضعه على المنضدة وقال

هذا هو الشهيد العظيم

ثم جاس على الكرسي منهوك القوى وقد أصيب رأسه بدوار كانما أدركته سكرة الموت وسقطت يديه على ركبتيه فجعل يحك بظفره قماش لبنطلونه

وقد أمسكت غوسيت بكتفيه وأخذت تشهق بالبكاء وهي تحاول أن تكلمه فلا تستطيع

ثم أخذت تتكلم بصوت متقطع فتقول

أبي .. لا تتركنا .. أيمكن أن تفقدك حين وجدناك .. أبي أحبني أن غوسيت تكلمك وما عودتها هذا السكوت

ولقد صدق من شبه النزع بحية تدب وتحيي فتمشي الى الموت ثم تعود إلى الحياة

وهذا الذي اتفق لجان فالجان فانه بعد أن أصيب بما يشبه الاغماء صحا وهز رأسه كأنه يريد أن ينفض عنه ما تكدس فيه من الظلمات وما علق عليه من غبار الموت وأخذ بيده طرف كم غوسيت فلثمه

وصاح ماريوس صيحة فرح وقال

— لقد عادت اليه هداه أيها الطبيب

فقال جان أن قلبك طاهر يابني كقلب غوسيت وإني مخبركما الان بسبب حزني فاعلم أيها البارون ان حزني لم يبلغ أشده إلا لانك أبيت أن تنفق شيئاً من المال الذي هو مال امرأتك دون منازع

وإني سأوضح لكما الحقيقة وهذا الذي سرني من لقائكما فاصغيا الي

أن الكهرباء السوداء ترد من انكلترا والكهرباء البيضاء

ترد من نروج والخرز يرد من المانيا

وقد وفقت إلى اكتشاف في صنع الكهرباء والخرز بنقص نفقاتها كثيراً في ثمن المزيج الذى تتألف منه فان الليبرة من هذا المزيج تكلف الانكليز ولا تكلفني غير بضعة سانتيمات بفضل هذا الاختراع

وقد شرحت لكما مفصلا في هذه الورقة كي لا يفوتكما شيء من تفصيله

وبفضل هذا الاختراع كسبت المال الكثير وانشأت المعامل واقتصدت تلك الثروة التي تركتها لغوسيت

وانما أقول لك ذلك لتطمئن وتعلم أنها جاءت من أشرف مورد

وعند ذلك فتح الباب وظهرت منه البوابة فاشار اليها الطبيب أن تنصرف ولكنها لم تنصرف قبل أن سألت جان فالجان قائلة

هل تريد كاهنا سيدى

قال عندى كاهن

وأشار بأصبعه الى ما فوق رأسه كأنه كان يرى في تلك الساعة ذلك الأسقف الجليل يحضر نزعه

وقد أخذت غوسيت مخدة فوضعتها برفق تحت رأسه

وعاد جان الي الحديث فقال

لا تخف يا سيدى البارون وثق اذا الستمائة ألف فرنك كسب حلال وانها لغوسيت دون منازع فاذا لم تتمتع بهذه الثروة وإياك

أ كون أضعت أتعاب حياتى سدى

انى نجحت نجاحاً عظيما بصنع الخرز الذى كانوا يدعونه جواهر برلين وزاحمت الالمانيين أعظم مزاحمة فان الالف خرزة لم تكن تكلفنى أ كثر من ثلاثة فرنكات

أن المرء حين يرى عزيزاً له على وشك الموت ينظر اليه نظرات غريبة كانه يريد أن يستوقف روحه بهذه النظرات ويمنعها عن الانفلات من قيد الجسد

وهكذا كان الزوجان فان غوسيت كانت ممسكة بيد ماريوس وكلاهما ينظر الى هذا المحتضر تلك النظرات ولا يعلمان ما يقولان

وقد بدأ دور الاحتضار فضاقت أنفاسه وكان يتخللها زفير ولم يعد يستطيع تحريك يده إلا بعناء شديد وانقطعت حركة رجليه وجعلت روحه تتصاعد بجلال الى جبينه فكان نور العالم غير المنظور ظاهراً فى عينيه

ثم شحب وجهه وامتقع لونه ومع ذلك فقد لبث يبتسم

وقد أشار الى غوسيت والى ماريوس أن يدنوا منه إذ أنه شعر بان هذه آخر دقيقة من آخر ساعة وجعل يكلمهما بصوت خافت ضعيف كانه يصل الى مسمعها من مكان بعيد أو كأنه يكلمهما من وراء جدار فقال

ادنوا . . ادنوا مني فاني احبكما كثيرا . . آه ما أطيب الموت على هذا الشكل

وانت ياغوسيت أنك تحبينني أيضاً أليس كذلك . . انى كنت أعلم يقيناً بانك تحبين هذا الشيخ الذى لم يحب سواك فى الوجود . . آه لو تعلمين كم أحسنت الي بوضع هذه الوسادة تحت رأسى . . انك ستبكين عليّ ياغوسيت ولكنى لا أريد أن تكثري من البكاء والحزن فانك مع زوجك فى أبان الشباب ولا اقبح من الحزن مع الصبي

لقد فاتني ان احركما ان الالف حبة من الخرز التى كانت تكلفنى ثلاثة فرنكات كانت تباع بستين فرنكا وهذه خير تجارة فلا تعجب يا بنى من اقتصادى الستمائة ألف فرنك فقد كنت اكسب فى كل عام ما يزيد على مليون . . اطمئن يا بنى فانها ثروة شريفة المورد جمعت بعرق الجبين واجهاد النفس

وانت يا غرسيت يجب ان يكون لك مركبة وان يكون لك لوج فى المراسح من حين الي حين وان تلبسي خير الملابس وان تكونى مع زوجك على خير حال

وقد كتبت منذ هنيهة الى غوسيت وستجد رسالتى

وانى اهبها هذين الشمعدانين فانهما من الفضة ولكنهما عندي من الماس بل لم تكن تفضلهما جواهر الارض ولا اعلم اذا كان الذى اعطانى اياهما ينظر الي نظرة رضى من السماء فقد صنعت مااستطعت صنعه

ولا تنسيا يا ولدي اني فقير فادفنانى فى اول بقعة تجدانها من

الارض وضعا حجراً فوق تلك الارض يدل على مكانى ولا تكتبا اسمى على الحجر وهذه هى ارادتي

واذا ارادت غوسيت ان تزور ترابي احيانا اشعر بدوس قدميها وكذلك يا موسيو دونتمرسى

وهنا لا بد لي ان اعترف لك بانى ما احببتك دائماً واسألك ان تغفر لى

اما الآن فقد اصبحت واياها شخصاً واحداً عندى وانى اشكرك منذ الآن لثوقى من انك ستجعل غوسيت من اسعد النساء

وانه يوجد في هذا الدرج خمسمائة فرنك ارجوا ان توزعها على الفقراء

وانت يا غوسيت انك تجدين على سريري هذا الشمعدان الاسود الصغير . أتم فيهم هناك كنت تدرسينه منذ عشرة أعوام . . . . أرأيت كيف تمر الايام

لله ما أسعد تلك الايام ومما اوصيت الان ان تنسيا لامك

لا تبكيا . لا تبكيا . فانى لا أسافر الى مكان بعيد عنكما . .

انى أراكما من هناك وما عليكما الا أن تنظرا حين يخيم الظلام فترياني أبتسم . . .

غوسيت أتذكرين مونتفرميل . . انك كنت في الغابة وكنت خائفة أتذكرين حين حملت عنك إناء الماء . . انها أول مرة لمست فيها يدك الصغيرة . . انها كانت باردة وكانت حمراء في ذلك العهد أما الآن فهي بيضاء

ثم أتذكرين تلك الدمية التى جئتك بها وكنت تدعينها كاترين وماكان من أسفك لانك لم تدخليها معك الى الدير

آه كم أضحكتني يا ملاكي الجميل وكم كنت تفرحين حين تمطر السماء وتجري السواقي فتلقي القش فيها وتراقبين سيرها

وقد أعطيتك يوماً كرة وصولجاناً وطيارة مزينة بريش مختلف الالوان . . انك نسيت كل ذلك يا غوسيت أما أنا فلم أنس

ان الغابات التي كنت أمر بها معك والاشجار التي كنا نتنزه تحتها والدير الذي كنا نختبىء فيه والالعاب وضحك الحداثة كنت أحسب أنها تدوم فاذا هي ظل زائل

أما تنارديه وامرأته كانا من شر الناس وقد أساءا اليك كثيراً ولكن يجب الصفح عنهما

والآن يا غوسيت لقد دنا الوقت الذي يجب أن تعلمي فيه اسم أمك

فاعلمي أنها كانت تدعى فانتين فاحفظي هذا الاسم في قلبك واركعي كلما ذكرته فقد شقيت كثيراً وأحبتك كثيراً ونالت من الشقاء قدر ما تنالينه قرب زوجك من الهناء

والآن اني ذاهب يا ولديَّ فاحملا الحب وانعما في هذه الحياة فانه كل الحياة واذكرا من حين الى حين ذلك الشيخ المسكين الذي يموت هنا

أواه يا غوسيت انى اذا كنت لم أرك فى أيامى الاخيرة فما ذلك بذنبي

وقد كان قلبى يتقطع حتى أني كنت أذهب فى كل يوم الى زاوية الشارع الذى تقيمين فيـه وأقف وقوف المجانين بل انى ذهبت مرة من غير قبعة فلم يسهني غير ضحك الاحداث

والان . . . ما هذا .. انى لم أعد أرى . . ان لدي ما أريد قوله أيضاً ... ولـكن لا بأس .. أفتكرانى .. لا أعلم ماأصابنى انى أرى نوراً ... ادنوا ... ادنوامى أمتسعيداً .. فرباراًسيكما من يدي لاباركما

فأسرع الزوجان الى الركوع أمامه فرفع يديه على رأسيهما ولم تعودا تتحركان

وقد انقلب رأسه الي الوراء وعيناه ناظرتان الى السماء فقد أسلم الروح بينما كان ماريوس وغوسيت يقبلان يديه ويغسلانهما بالدموع

***

هناك فى تربة لبير لاشيز بجوار حفرة عمومية بعيدة عن القبور المزينة بالرخام والاكاليل يوجدحجر طويل علىقدرطول الميت المضطجع تحته

وقد لونته الامطار بلون أخضر وسودته الرياح وبجانبه أشجار كان ينعق فيها البوم فى أيام الربيع

ولم يكن مكتوباً على هـذا الحجر اسم الميت غير أنه منذ بضعة أعوام كتب احد الشعراء على هذا الحجر ولابد أن تكون محتهما الامطار

أما هذان البيتان فهما

لقد عاش عيش الاولياء بقربها

الى أن نأت عنـه فحان مماته

كذلك شأن الليل والشمس حينما

يزول ضياها تبتدى ظلماته

وأما هذا القبر فقد كان قبر جان فالجان

تمت الرواية

